تأملات إيمانية في سورة يوسف عليه السلام

بقلم

فضيلة الشيخ الدكتور

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والتسجيلات
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

جميع الحقوق محفوظة

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع ٥٠٨١ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى
977-331-275-5

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

مُقدِّمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب : ٧١-٧٠] .

أما بعد ... فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

سورة يوسف هذه المعجزة الخالدة، والدلالة القاطعة من دلائل نبوة محمد ﷺ ، طالما وقفت القلوب والعقول مبهورة أمام ما تضمنّه سياقها العظيم من أنواع النور من الخبر الصادق، والقصص الحسن، ومعاني الإيمان الصافي، والعقيدة النقية، وتعريف العباد بأسماء ربهم، وصفاته، وأفعاله، وتعليق قلوبهم بها، والتفصيل الدقيق لما يحتاج إليه المكلفون، والإعراض عن ما لا فائدة لهم في

ذكره، وتحبيب النفوس في المُثل العليا في شخص أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه ، وتبيين الأحكام والحلال والحرام والأخلاق، وكشف أغوار الشخصيات التي تجد أمثالها متكررة في كل زمانٍ ومكانٍ، فتعرف غور النفس الإنسانية، وما يعتريها من أمراض، وكيفية معالجتها، والأسلوب العليّ الحييّ النقيّ الذي يصف أحرج المواقف التي تتسلّل من خلالها الشياطين في قصص البشرلإفساد القلوب وإلقاء بذر الحرام فيها، يصفها بأروع وأنصع وأنظف الكلمات التي تلقي بذور الإيمان والطاعة، وتسمو بالقلب ليرتفع عن علائق الطين ليكون في النديّ الأعلى بدلاً من الحضيض الأسفل، وغير ذلك من أنواع الهدى والنور يعجز اللسان والقلم عن وصف ما يقع في القلب منها، فضلاً عما تتفاوت فيه القلوب في إدراكاتها من شخصٍ لآخرٍ، بل ومن قراءةٍ لأخرى، ومن مرةٍ لأخرى لنفس الشخص؛ فضلاً عما أحاط الله به من العلوم التي تضمّنتها، والمعاني التي احتوتها، فسبحان من أحاط بكل شيءٍ علمًا، ولا يحيطون به علمًا .

والحمد لله الذي امتنّ علينا ببعثة رسوله ﷺ، وإنزال القرآن عليه، ومَنْحِه هذه السورة الكريمة، فَصَلِّ اللهم على من اجتبيته واصطفيته من خلقك لتنزل على قلبه هذا الكتاب، وتفيض عليه الحكمة، وسَلِّمْ تسليمًا كثيرًا ...

وبعد ...

فهذه محاولة لتدبّر ما في هذه السورة العظيمة – وكل القرآن عظيم – من المعاني، بعد الوقوف على تفسيرها، وبيان حقائق الإيمان، وتزكية النفس من مواقف القصة، بعيداً عمّا عَلَقَ بكثير من التفاسير في هذه المواقف من الآثار الإسرائيلية التي تهتم دائمًا بالتفاصيل غير المفيدة، فتأخذ القلب بعيداً عن طريقة القرآن المبهرة المضيئة المنيرة .

To: www.al-mostafa.com

أكتبها تذكاراً لنفسي عساها تستيقظ في فترات غفلتها على منة الله في أوقات التنبيه، وتذكرةً لإخواني وأحبائي المسلمين عسى أن ندرك شيئًا من عظمة القرآن وطريقته الكريمة، فنزداد حبًا وشوقًا لمن أنزله سبحانه، وحرصًا على تلاوته وتدبره، ونزداد حبًا لرسول الله ﷺ الذي خَصَّهُ الله بهذه الرحمة والفضل العظيم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وهو يخلق ما يشاء ويختار، فاختار قلب محمد ﷺ ليملأه بالنور المبين، ويفيض على من اجتباهم من عباده المؤمنين من آثار هذا النور، ونزداد حبًا لأنبياء اللهصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين خصوصًا في هذه السورة، إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف صلى الله عليهم وسلم، وشوقًا للحياة معهم، في الدنيا بذكر سيرتهم، ونسأل الله أن يرزقنا مرافقتهم في الآخرة بحبنا لهم، وإن لم نعمل عملهم أو نتصف بصفاتهم .

وأكتبها كذلك تسليةً لنفسي ولأهلي وأولادي في منحة المحنة التي أصابتنا، وتبشيراً لنا وللمسلمين جميعًا بقرب النصرة والفرج والتمكين، فإن هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ وهو بمكة والإسلام محاصر حبيس بها، والمسلمون مضطهدون تنالهم أنواع الأذى، والظلام دامس شديد، فنزلت السورة مبشرةً بقرب الفرج والنصر والتمكين ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ .

[يوسف : ١١٠] .

وأسأله سبحانه أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، وصالحًا على وفق شرعه المنزل على خير خلقه محمد ﷺ ، وأن يجعله كذلك من أسباب الثبات على الدين في مواجهة الفتن، فاللهم يا مُقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك، ويا مُصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك، اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك،

ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، اللهم علِّمنا منه ما جهلنا، وذكِّرنا منه ما نُسِّينا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وآناء النهار على الوجه الذي يرضيك عنا، ونسألك اللهم رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار......آمين.

كتبه
ياسر برهامي
حفظه الله

تفسير البسملة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

اتفق العلماء على أن البسملة بعض آية من سورة النمل، واختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة (أي : فهي لا تعد من آياتها)؟ أم هي آية من كل سورة (أي : فهي إحدى آياتها) ؟ أو أنها بعض آية من كل سورة (أي : تكون الآية الأولى في كل سورة هي البسملة وما يليها) ؟ أم أنها آية من الفاتحة دون غيرها ؟ أو أنها كتبت للفصل لا أنها آية ؟ وأصح الأقوال أنها إحدى آيات الفاتحة، وآية مستقلة في أول كل سورة للحديث الذي رواه ابن خزيمة وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا : « **إذا قرأتم فاتحة الكتاب فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها إحدى آياتها** » (١) صححه الألباني، فهو دليل على أنها إحدى آيات الفاتحة، أمّا أنها آية مستقلة في أول كل سورة، فللحديث الذي رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ « **كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم** » (٢)، وللحديث الذي رواه مسلم وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسمًا، إمَّا قال لهم وإمَّا قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **إنه أنزلت علي آنفاً سورة** »، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر حتى ختمها. . . » الحديث (٣)، وللحديث الذي رواه أهل السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « **إن سورةً في القرآن ثلاثين آية، شفعت لصاحبها حتى غُفر له :**

---

(١) **صحيح** : رواه الدارقطني (٣٦) الصلاة، والبيهقي (٢٢١٩) الصلاة كلاهما عن أبي هريرة بلفظ « **إذا** قرأتم الحمد لله . . . » الحديث ، وابن خزيمة (٤٩٣) الصلاة عن أم سلمة بمعناه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٩) .

(٢) **صحيح** : رواه أبو داود (٧٨٨) الصلاة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٦٤) .

(٣) رواه مسلم (٤٠٠) الصلاة ، وأبو داود (٤٧٤٧) السنة واللفظ له ، والنسائي (٩٠٤) الافتتاح ، وأحمد (١٢٠١٥) في مسند أنس بن مالك .

تبارك الذي بيده الملك »(١)، وهي ثلاثون آية مستقلة دون عدّ بسم الله الرحمن الرحيم، فهذه الأحاديث ترجح ما ذكرنا من أنها آية مستقلة في أول كل سورة، وأنها إحدى آيات الفاتحة، والله أعلم .

والباء في ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ** ﴾ متعلقة بمبتدأ مؤخر محذوف تقديره (ابتدائي)، أو بفعل محذوف تقديره (أبدأ)، أي : ابتدائي بسم الله أو أبدأ باسمه أي : بذكر اسمه عز وجل استعانةً وتبركًا.

واسم ﴿ **اللَّهِ** ﴾ بمعنى : الإله المعبود وحده لا شريك له على أصح قولي العلماء مشتق من الإلاهة، ودليله قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ** ﴾ [الأنعام:٣]، مثل قوله : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ** ﴾ [الزخرف : ٨٤]، فينبغي على العبد حين يذكر اسم ﴿ **اللَّهِ** ﴾ أن يستحضر القضية الأولى في حياته بل في الوجود كله، وهي إفراد الله بالعبادة كما قال عز وجل لموسى: ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي** ﴾ [طه : ١٤] .

واسم ﴿ **الرَّحْمَنِ** ﴾ الاسم الدال على صفة الرحمة العامة من صفة الذات، أي التي هي من لوازم ذاته عز وجل ليست متعلقة بمشيئته، بل كل من سواه مرحوم بهذه الرحمة بمقتضى كونه مخلوقًا من مخلوقاته، بصرف النظر عن كونه مطيعًا أو عاصيًا، مؤمنًا أو كافرًا، فهذه الرحمة العامة وسعت كل شئ سواه عز وجل، وينبغي على العبد أن يستحضر عند تلاوته لاسمه ﴿ **الرَّحْمَنِ** ﴾ عز وجل آثار رحمة الله بخلقه جميعًا، وكيف « **أن رحمةً واحدة من مئة رحمة أنزلها الله عز وجل، بها تتراحم الخلائق من أولهم إلى آخرهم، وبها ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه** »(٢) ،وتأمل ما في قلوب البشر من التراحم بين

---

(١) **صحيح** : رواه أبو داود (١١٩٢) الصلاة ، والترمذي (٢٨١٦) فضائل القرآن ، وابن ماجة (٣٧٨٦) الأدب ، وأحمد (٧٩٦٢) ، وابن حبان (٧٨٧) ، والحاكم (٢٠٧٥) ، عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩١) .

(٢) **متفق عليه** : رواه البخاري (٦٠٠٠) الأدب ، ومسلم (٢٧٥٢) التوبة .

الأمهات والآباء والأولاد، وبين الأزواج والزوجات وغيرهم، ثم ما في قلوب سائر الحيوانات لأولادها، وانظر إلى آثار رحمة الله خلقه بالمطر، وما ينزل لهم من الأرزاق والعطايا، والمعافاة في الأبدان والأهل والأموال، وكل هذه من هذه الرحمة الواحدة المخلوقة، وادّخر عز وجل تسعةً وتسعين رحمةً ليوم القيامة، فعند ذلك يرجو المؤمن رحمة ربه رجاءً عظيمًا، ويناله من رحمة الله فوق ما يخطر بباله، ويحضرني الآن رؤيا رأيتها أن ابني محمداً قد أصابه جرح، فجعل يبكي فجعلت أبكي لبكائه رحمةً له، فقلت في نفسي في المنام: إذا كنت أرحم ابني هذه الرحمة، فكيف برحمة الله لعباده المؤمنين، « **وهو أرحم بعباده من الأم بولدها** » (١)، لا بد أنها تكون رحمة عظيمةً جداً فوق ما يخطر ببالنا، فالحمد لله.

واسمه ﴿ **الرَّحِيمِ** ﴾ الاسم الدال على صفة الفعل فهو يختص بمن شاء الله رحمته، كما قال عز و جل: ﴿ **يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [آل عمران: ٧٤]، وقال: ﴿ **وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً** ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ... ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦]، وأعظم رحمة خصَّ الله بها عباده المؤمنين هدايتهم للإسلام، وشرح صدورهم له، وتوفيقهم للتقرب إليه بطاعته، وما يفيض عليهم من نعيم قربه وحبه، الذي يعرفهم به جنس النعيم الذي أعده لهم في جنته، ثم ما يخص به سبحانه من شاء بما شاء من أنواع الرحمة التي يتفاوت الخلق فيها أعظم تفاوت، و « **الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** » (٢) فاللهم ارحمنا رحمةً تغننا بها عن رحمة من سواك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري(٥٩٩٩) الأدب، ومسلم(٢٧٥٤) التوبة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود(٤٩٤١) الأدب، والترمذي(١٩٢٤)، وأحمد(٦٤٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٥٢٢).

الحروف المقطعة في أوائل السور

قوله تعالى: ﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① ﴾.

﴿ الٓر ﴾ أصح الأقوال في الحروف المقطعة إن شاء الله هو ما ثبت عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وهما من هما في تفسير كلام الله، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: « أمَّا ﴿ الٓمٓ ﴾ فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « ﴿ الٓمٓ ﴾ أنا الله أعلم، و ﴿ الٓر ﴾ أنا الله أرى »، وما نقل عن الخلفاء الأربعة بالوقف عن تفسيرها ورجّحه طائفة من المفسرين، فهو منقول بلا إسناد عن الخلفاء الأربعة، ولو صح لكان توقفًا منهم عن أمرٍ لم يعلموا وجهه، لا يمنع غيرهم من الكلام فيه كما تكلم ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، ومما يرجح صحة تفسيرهما عموم قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص: ٢٩]، وهذه آية من آياته فكيف تُتَدبَّر إن كان التوقف عن تفسيرها لازمًا، وأما القول بأنها تدل على عمر الأمة، فهو قولٌ باطل سندًا ومتنًا وواقعًا، فالغيب لا يعلمه إلا الله، وهذه الطريقة مأخوذة عن أهل الكتاب من اليهود، لا عن النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، وهي مخالفة لما أتى به ﷺ من نفي علم الغيب عن غير الله، خاصةً إن عمر الأمّة معناه انتهاء الدنيا وقيام الساعة، لأن أمّة الإسلام آخر الأمم، فيجب رد هذا القول وإبطاله.

وأما أنها أسماء للسور وأسماء للقرآن، فلا تعارض بين هذا القول وما رجّحناه، فإن السورة تسمى باسم أول آياتها، وهذا في الحقيقة ليس تفسيرًا لها، وأما ما رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية من أنها سيقت لبيان إعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي

يتخاطبون بها، وهو أيضًا ترجيح الفراء والمبرد وقطرب والزمخشري، فإنه ليس في مقام تفسيرها، بل في مقام الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي، بقطع النظر عن معانيها في أنفسها كما ذكره ابن كثير رحمه الله، والله أعلم .

﴿ تِلْكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد، واستعماله هنا يشعر بارتفاع قدر آيات الكتاب فوق كل كلام ارتفاعًا هائلاً، وعلواً ساميًا، لا يُنال ولا يُدرك، ولا حتى يَقْرُب منه كلام آخر.

﴿ آيَاتُ ﴾ جمع آية، وهي : العلامة، وآيات القرآن علامات دالة على أنه حق، وأنه من عند الله سبحانه، وعلى صدق محمد ﷺ .

﴿ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ بمعنى : أنه يبين لمن سمعه وقرأه أنه الحق، كما أنه يُوضّح الحق ويُبَيِّنُهُ ويظهره ويُفَصِّلُهُ ويُفسره.

بين يدي القصة

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾.

وإنزال القرآن من عند الله دليل على عُلُوِّ الله عز وجل وفوقيته كما استفاضت بذلك أدلة الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

وعربية القرآن من أعظم معجزات الرسول ﷺ إذ بلغ الغاية في الفصاحة والبيان، مع تضمنه لأخبار الأمم المتقدمة على التفصيل الدقيق لما يُحتاج إليه، وهو مصدقٌ لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنٌ: أي شهيد عليه، يجزم كل عاقل أنه يستحيل أن يكون ترجمة مأخوذة عن كتب الأولين، لأن ترجمة لغة إلى أخرى لا بد أن يقع فيها من ركاكة الألفاظ والمباني ما لا مفر منه للحفاظ على المعاني، وهذه تراجم التوراة والإنجيل بالعربية شاهدة على ذلك أوضح شهادة، فلا تجد فيها من الفصاحة والاتقان والبلاغة عشر معشار ما في القرآن، بل المقارنة أصلاً لا يمكن عقدها، فضلاً عن المعاني الإيمانية من الإيمان بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وقضائه، وقدره، ومن التعريف بالرسل الكرام وصفاتهم الجميلة التي تُحبّب الخلق فيهم، ودعوتهم النقيّة البيّنة في وسائلها ومقاصدها وأدلّتها، ودحض الشبهات المخالفة لها، ومن تحقيق الإيمان باليوم الآخر وربط قلوب العباد بموقفهم غداً بين يدي ربهم، ليُعِدّوا لهذا اليوم عُدَّتَهُ، وغير ذلك مما لا تجده في كتاب آخر بالعربية أو غيرها، كل ذلك مع المحافظة على سياق القصص الموافق تفصيله ما عند أهل الكتاب، بل وأدق مما عندهم، مما يجعل كل عاقل يجزم جزمًا يقينيًا قاطعًا أن القرآن كلام الله، وأن محمد رسول الله ﷺ، ولذا ختم الله الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فمن كان عنده عقل أيقن بذلك، ومن شك أو كذب فلانعدام عقله، أو عدم قبوله ما دل عليه العقل لعناده وكبره، وكما بدأت السورة بالتنبيه على شرف القرآن، وإنه من آيات صدق رسول الله

ﷺ ختمت بذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ .

والقرآن دعوة للعقل ليس بالمعنى الاصطلاحي عند المتكلمين ضعاف العقول، وليس كذلك بالاصطلاح المعاصر الذي يجعله الناس مرادفًا للهوى والتحكم، فتجد الواحد منهم على جهله وضلاله، يزعم أنه يريد أن يُحَكِّمَ عقله على أحكام الله ورسوله ﷺ ويعترض عليها، ويُصَوِّب ويُخَطِّئ بزعم أنه يستعمل عقله، وهو في الحقيقة إنما يلهو ويلعب، كصبيٍ صغيرٍ يفكر بعقله المحدود في تركيب جهاز الكتروني غاية في التعقيد، بل والله النسبة أعظم من ذلك، ولكن العقل الذي يدعو القرآن إليه هو إدراك حقائق الوجود، ومعرفة الغاية التي من أجلها وُجد الخلق، ونهاية المطاف بعد هذه الحياة، ومعرفة صفات ربهم ووحدانيته وصدق رسله، وتوابع ذلك من معاني الإيمان، فليس بعاقلٍ من أفنى عمره في لذات الطعام والشراب، والجنس والرياسة، والشهرة والمال، وهو يرى الموت يحصد أمامه من هو أشد منه قوةً وأكثر جمعًا، وليس بعاقلٍ من رأى عاقبة من سبقه من الكفرة والفساق والعصاة، ثم هو يسير على سنّتهم، ويكرّر غيّهم وضلالهم، وليس بعاقلٍ من نسي نفسه وجعل أجله لغيره، فأفسد دينه وآخرته لإصلاح دنيا غيره، وما أصلحها بل أفسدها، وأشقى نفسه وغيره، إذ لا صلاح إلا في اتباع شرع الله، فالعقل الحقيقي هو في أن يُعِدَّ الإنسان لمستقبله بعد رحيله عن ظهر هذه الأرض، بعد رحلته القصيرة التي يحياها فوقها، ولذا لا يصح وصف الكفار بأنهم يعقلون أو يعلمون، فضلاً أن يكونوا عقلاء العالم أو علماؤه، لإدراكهم بعض أنواع العلوم الدنيوية، إذ لم تَقُدهم هذه العلوم للاهتداء إلى كبرى الحقائق الكونية، وأسباب السعادة الدنيوية والأخروية .

أحسن القصص

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

المقارنة بين قصص القرآن وغيره من القصص، توضح لنا بجلاء هذه الحقيقة أن القرآن أحسن القصص، وقصص غير القرآن إما أن يكون من قصص أهل الكتاب، أو من قصص البشر المخترع، أو المنقول عن من سبقهم كالأساطير، وأنت تجد في قصص أهل الكتاب من الاهتمام بالتفاصيل غير المفيدة كأسماء الأشخاص والبلدان، والأولاد والزوجات، وأنواع الأشجار وألوان الكلاب والحيوانات ونحو ذلك، مما قد ملأ كثيرٌ من المفسرين كتبهم به، وفي قصتنا هذه على سبيل المثال، تجد الاهتمام الكبير بأسماء إخوة يوسف، وأسماء الكواكب التي رآها يوسف ساجدةً له، ونحو هذا مما لا ينفع العلم به ولا يضر الجهل به، وتجد في القرآن الإعراض عن مثل هذا كله، والبيان لما فيه صلاح القلب والسلوك والخلق والاعتقاد والعمل، وتجد أيضًا في قصص أهل الكتاب المبالغات، فضلاً عمّا دخل في هذا القصص من الأكاذيب والباطل مما تشهد العقول بتناقضه واستحالته، فالحمد لله على نعمته بقصص القرآن.

وأمّا قصص البشر فمبناه على الكذب لا الصدق، وغايته الشهوات الأرضية والأهواء النفسانية، فتجد قصص الناس اليوم الذي يروج بينهم، حول قصص الحب الجنسي الرخيص، ووصف المواقف التي سَتْرُها هو الفطرة السوية، لكنها عند القوم قد طُمست، أو قصص الجريمة والقتل وسفك الدماء والصراعات الحقيرة حول المال والمخدرات والرياسة، وبالطبع فالمرأة كسلعة متداولة مشتركة في كل قصصهم، تَعمى القلوب بقراءة قصصهم أو سماعه أو مشاهدته، وتَفسد

العقائد والأخلاق وتَنحط المجتمعات، وهذه أقوالهم وإحصاءاتهم حول زيادة نسب الجريمة بمشاهدة أفلام الجنس والعنف، وأعتى أنواع الانحراف بين أطفالهم وشبابهم ورجالهم ونسائهم، بسبب السينما والتليفزيون ونحوها من وسائل الإفساد التي مبناها على القصص الفاجر الكاذب المدمر، الذي لا يحتمل عاقل أن يقول بجوازه فضلاً عن متشرعٍ متدين، فنصيحة لكل مسلم ومسلمة بالإعراض عن هذا القصص القاتل للقلوب مشاهدةً في الأفلام، أو سماعًا أو قراءةً باسم الأدب، وما هو إلا إضاعة للأدب، والواجب علينا أن ندرك قيمة النعمة العظيمة بقصص القرآن الذي فيه صلاح الدنيا والآخرة، وهو أحسن القصص الذي يذهب المَلَلَ، كما ورد في سبب نزول سورة يوسف من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: مَلَّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلّة، فقالوا: يا رسول الله، حدثنا، فأنزل الله: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ** ﴾[الزمر: ٢٣]، ثمّ ملّوا ملّة أخرى، فقالوا: يا رسول الله، حدثنا فوق الحديث ودون القرآن - يعنون القصص- ، فأنزل الله: ﴿ **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ...** ﴾ الآية، رواه ابن جرير والحاكم (١).

وهذه السورة تميزت عن باقي قصص القرآن بأنها سياق تام لقصة واحدة، لم تتكرر بالتفصيل في موضع آخر من القرآن، ولم تُجزأ أجزاء القصة على مواضع مختلفة في سور مختلفة من القرآن، كقصة موسى عليه السلام مثلاً، تجدها قد تكررت وبتفاصيل مختلفة في سور مختلفة، ولم تسق سياقًا واحداً تامًا في موضعٍ واحدٍ، بخلاف سورة يوسف ففيها من الإعجاز القصصي ما يبهر العقول والقلوب، فصلى الله على من أنزلها على قلبه وسلم تسليمًا كثيراً.

---

(١) صحيح: رواه ابن جرير والحاكم (٣٣١٩)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٤٦٨) وسكت عنه، والطبري في تفسيره (١٢/١٥٠) قال حدثنا وكيع حدثنا أبي عن المسعودي عن عون بن عبد الله قال «مل أصحاب رسول الله ...» الحديث، وذكره أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (٤/٢٤٨) و صححه الألباني في صحيح الموارد (١٤٦٢).

وأما قوله : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي : عن تفاصيل ما أوحى الله إليه من الكتاب والإيمان كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى : ٥٢]، ولقد كان النبي ﷺ قبل البعثة مجتنبًا لعبادة الأوثان، مبتعداً عن مساوئ الأخلاق، متعبداً لله على التوحيد، لكنه لم يكن يعلم تفاصيل الإيمان، والعلم الذي امتنّ الله عليه بإنزال هذا القرآن العظيم على قلبه، وكذلك كل عبدٍ لا يتدبر القرآن ولا يتعلمه يكون من الغافلين، فالقرآن ذِكرٌ لمن يتذكر، منبهٌ من سِنة الغفلة، يحيي الله به قلوب من اصطفاهم من عباده، فتستيقظ القلوب لنور التنبيه، وتُعِدّ العدّة للسير على الصراط المستقيم الموصل إلى رحمة رب العالمين.

رؤيا يوسف عليه السلام

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) ﴾ .

﴿ إِذْ ﴾ بمعنى : حين، متعلقة بفعلٍ محذوفٍ تقديره : واذكر يا محمد حين قال يوسف لأبيه، ويوسف عليه السلام أكرم الناس كما ثبت في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب ابن إسحق ابن إبراهيم** » رواه البخاري(١)، وروي أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال :سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أكرم؟ قال : «**أكرمهم عند الله أتقاهم**» ، قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال : « **فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**» ، قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال : « **فعن معادن العرب تسألونني؟** » قالوا : نعم، قال: « **خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا** » متفق عليه (٢) . فيوسف أكرم الناس نسبًا و شرفًا، ومع ذلك جرى له ما جرى من البيع رقيقًا والسجن وفراق الوالدين منذ الصغر إلى نحو الأربعين عامًا وغير ذلك، وهذا كله مما يبيّن لنا هوان الدنيا على الله سبحانه وحقارتها، فلو كانت ذات قيمة لما حرم منها أكرم الخلق عليه، ولما عرَّضهم فيها لأنواع البلايا، وصدق النبي صلى الله عليه وسلم : « **لو أن الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء** » (٣)، فإذا حرم الكريم حبيبه جناح بعوضة أو أهون، فما أهانه ولا منعه فله الحمد .

---

(١) رواه البخاري(٣٣٩٠) تفسير القرآن ، والترمذي(٣١١٦) ، وأحمد (٥٦٧٩) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري(٣٣٥٣) أحاديث الأنبياء ، ومسلم(٢٣٧٨) الفضائل ، وأحمد(٧٤٤٤) مسند المكثرين من الصحابة .

(٣) صحيح : رواه الترمذي(٢٣٢٠) الزهد عن رسول الله ، وابن ماجة(٤١١٠) الزهد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٥٢٩٢) .

ونلحظ في هذا الحوار الجميل بين الابن وأبيه، المليئ بالأدب والتقدير والاسترشاد من الابن البار، والحب والشفقة والنصح والتوجيه والتربية من الأب الحنون، نلحظ وجود هذه المجالسة الخاصة التي لا يحضرها غيرهما، والتي تكاد تكون غابت بالكلية عن أكثر الأُسر، وعن أكثر المربين والموجهين، شغلتهم عنها ملاهي الحياة، واكتفوا في توجيه أبنائهم ومن يربونهم بمجرد الأوامر العامة، التي كثيرا ما تكون أشبه بالأوامر العسكرية الزاجرة، التي لا تثبت عاطفة ولا تؤثر في قلب، هذا إن وُجدت أصلاً في زحمة الحياة المعاصرة، التي يتولى التوجيه والتربية فيها وسائل الإعلام - أقصد وسائل الإفساد - من تليفزيون وشريط فيديو وبث مباشر وشبكة (الإنترنت) ومجلة وشريط أغاني ومناهج تعليم منحرفة وأصدقاء سوء فضلاً عن الغنى المُطغي أو الفقر المُنسي، الذي يجعل الأب - وغالبًا الأم - لا يجلسان مع أولادهما أصلاً، بل يخرج الأب قبل استيقاظهم ويعود بعد نومهم، ولو بقي وقت يستثمره، فهو يقضيه على المقهى يلعب النرد ويتجاذب أطراف الحديث مع قرنائه في مجالس السوء هذه، أو لو جلس في البيت فالكل صامت أمام (العجل الفضي) (التلفزيون) يتلقى منه هو وأولاده التوجيه والتعليم، فأين هذه الجلسة التي يستنصح الابن فيها أباه منفردًا به، مختصًا به ؟ هذه الجلسة لها أهمية قصوى في التربية، لا بد أن يعطيها الأب والشيخ والمعلم لكل ابن من أبنائه وتلامذته على حدة، حتى تتواصل القلوب، وتتقارب المشاعر، ونخرج عن نطاق المادية ودائرة الرفاهية الكاذبة، التي تُشقي الإنسان ولا تُسعده، فإن السعادة هي سعادة القلب بالأحاسيس الجميلة النبيلة، والمعاني الإيمانية الحية التي أصلها حب الله، وعبادته، والشوق إليه، ثم حب أنبيائه ورسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم، فلا بد لنا أن نضع في برامج توجيهنا لأبنائنا مثل هذه الجلسة، التي تجدها في هذا الموضع، كما تجدها في قصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل عليه السلام، حين يقول له : ﴿ **يَا بُنَيَّ**

إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات : ١٠٢]، وتجدها في وصية لقمان لابنه وهو يعظه، وتجدها في وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول له : « **يا غلام إني أعلمك كلمات...** » الحديث (١)، هذه الكلمات التي أثرت أعظم الأثر في نفس الابن والمُرَبَّى والمعلَّم، وتبقى في قلبه عبر السنين كما سنرى عن قريب في قصتنا الكريمة.

وقول يوسف :﴿ **يَا أَبَتِ** ﴾ تجد فيه رُقيّ الحوار، والأدب الرفيع مع الأب، كما تلمس فيه الشعور بالخصوصية، فهو أبوه هو، واضافته التاء المكسورة للفظ الأب تشعر بالقرب الشديد، وكسرة جناح الذل، وتستخرج من الأب أنهار الحنان والعطف، وتهيج عاطفة الأبوة الرحيمة، تلك العاطفة العجيبة التي هي من آيات الله في خلقه، ومن أدلة اتصاف الرب سبحانه بصفة الرحمة، إذ خلق في قلوب عباده هذه العاطفة ليرحمهم« **ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» (٢)،« **والله أرحم بعباده من الأم بولدها** » (٣) .

ولا تجد جواباً لهذه الكلمة﴿ **يَا أَبَتِ** ﴾ أحسن من﴿ **يَا بُنَيَّ** ﴾ تصغير ابني، وذلك للتعبير عن كمال الشفقة والنصح والمحبة والرحمة، فالبنوة سبب لهذا كله، ومع الصغر يزداد الحب والشفقة والرحمة، وكلمة﴿ **يَا بُنَيَّ** ﴾ كلمة جليلة اختفت من قواميس لغتنا، كان النبي ﷺ يستعملها، فقال لأنس« **يا بُنيَّ** » كما بوّب النووي في كتاب الأدب في صحيح مسلم (٤) .

وكما ذكرنا استعملها إبراهيم مع ولده إسماعيل عليهما السلام، واستعملها

---

(١) **صحيح** : رواه الترمذي(٢٥١٦) صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ، وأحمد(٢٥٣٧، ٢٦٢٧، ٢٦٦٦) مسند بني هاشم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٩٧٥٧) .

(٢) **صحيح** : سبق تخريجه ص(١١) .

(٣) **متفق عليه** : سبق تخريجه ص(١١) .

(٤) رواه مسلم(٢١٥١) الأدب : باب جواز قوله لغير ابنه يا بني واستحبابه للملاطفة ، وأبو داود(٤٩٦٤) الأدب ، والترمذي(٢٦٧٨) الأدب .

لقمان مع ابنه وهو يعظه، ولا يزال يستعملها الآباء الرحماء مع أبنائهم، والمربين الناصحين مع تلامذتهم، للتعبير عن الود والنصح والرحمة. قارن هذا مع ما تسمعه من كلمات التعنيف التي تصدر من الآباء والأمهات في مجتمعاتنا، فضلاً عن السباب والشتم مما يدمر الشخصية، ويُعَوِّدُ القسوة، وينزع الرحمة، فينشأ الأبناء على نزعات الغلظة والقسوة، فتحصل الأخلاق الفاسدة، والانحرافات النفسية، وما يتبعها من أمراض المجتمعات، وتشوهات الشخصية، حتى يستعجب الناظر في كثير من الشخصيات، كيف وُجدت فيها هذه القسوة التي لا توجد عند الوحوش، وحقيقة الأمر أنها نبعت من سوء التربية، وقلة الحنان أو انعدامه في الصغر، فأسأل الله أن يرحم والديَّ كما ربياني صغيراً .

أما رؤيا يوسف عليه السلام التي رأى فيها أحد عشر كوكبًا وتأويلها الواضح : إخوته، والشمس والقمر وتأويلها الواضح : أبوه وأمه له ساجدين، فهي دليل على إثبات الرؤيا الصالحة التي يستأنس منها أمر الغيب، ومفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله، لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولكن الله يُطلع من شاء من خلقه على أشياء من الغيب، لا تخرج عن عموم قوله تعالى : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ** ﴾ [الأنعام : ٥٩]، وقوله : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ [الجن : ٢٦]، فالرسل إذا أُخبرت بأشياء من الغيب كما أُخبر الرسول ﷺ بأشراط الساعة وأمور الآخرة، فهم لا يخبرون بكل التفاصيل التي تزيل عن هذه الأمور وصف أنها غيب، بل لا يزال هناك من التفاصيل ما استأثر الله به، فتظل هذه الأمور غيبًا، مثل وقت حدوث هذه الأمور، أو كيفية كثيرٍ منها كما في الجنة وما في النار، فإننا نعلم المعاني ولا نعلم الكيفية ولا الحقيقة الكاملة .

وإذا عَلِمَ بعض الخلق التفصيل الكامل لشئٍ من مفاتح الغيب، كما « يُعْلِمُ

الله المَلَك الذي يكتب أجل الجنين ورزقه وعمله وشقي أم سعيد » (١)، كما أخبر الرسول ﷺ في غزوة بدر عن مصارع المشركين فقال : « **هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله** » (٢) فهو معلق على مشيئة الله في إمضاء هذه الأمور وإثباته، أو محوه وعدم إمضائه، فلم يخرج عن كونه غيبًا.

ومن هذا الباب أمر الرؤيا، فهي مما يحتمل أولاً أن تكون رؤيا صادقة من الله تعالى، وهي التي قال عنها النبي ﷺ : « **الرؤيا جزءٌ من ست وأربعين جزءاً من النبوة** » (٣)، ويحتمل أن تكون حلمًا من الشيطان، ويمكن أن تكون حديث نفسٍ مما يشغل الإنسان، وهذا غالبًا ما لا يخفى على البصير بالتأويل التفرقة بينه، ولكنه في النهاية يبقى اجتهاداً محتملاً للخطأ والصواب، ثم تأويل الرؤيا الصادقة قد يصيب فيه المرء وقد يخطئ، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لأبي بكر في تأويل رؤيا: «**أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا**» (٤) مع أن الصدق الذي نال الصديق منه أرفع المراتب بعد الأنبياء، من أعظم أسباب الإصابة في تأويل الرؤيا، ومع ذلك فقد أخطأ الصديق بعضًا، فغيره أولى باحتمال الخطأ في التأويل، ولهذا كانت الرؤيا استئناس لحكم الغيب، وليس استدلالاً قاطعًا، ولهذا لم تصلح لمعارضة الأدلة الثابتة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح، ولكنها ربما صلحت مرجحًا ليستأنس به البصير الصادق عند تعارض الأدلة، وعدم وجود مرجح بينها عنده، خصوصًا في آخر الزمان، لقول النبي ﷺ : « **إذا اقتربت الساعة، لم تكد تخطئ رؤيا المؤمن** » (٥)، وهذا هو الفرق بين أهل السنة وبين بعض الصوفية في أمر الرؤى والإلهام والكشف، فهو عندهم قطع،

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري(٦٥٩٤) ، ومسلم(٢٦٤٣) ، وأبو داود(٤٧٠٨) .
(٢) رواه مسلم(١٧٧٩) ، والنسائي(٢٠٧٤) ، وأبو داود(٢٦٨١) .
(٣) متفق عليه : رواه البخاري(٦٩٨٧) ، ومسلم(٢٢٦٣) .
(٤) متفق عليه : رواه البخاري(٧٠٤٦) ، ومسلم(٢٢٦٩) .
(٥) متفق عليه : رواه البخاري(٧٠١٧) عن أبي هريرة ، ومسلم(٢٢٦٣) ، والترمذي(٢١٩٦، ٢٢١٥) الرؤيا ، وابن ماجة(٣٨٨٤) تعبير الرؤيا ، وأحمد(٦٨٧١، ٦٨٨٦) باقي مسند المكثرين ، ومالك(١٥٠٤) الجامع من الموطأ .

وعند أهل السنة استئناس حق لغير الأنبياء، أما الأنبياء فرؤياهم وحيٌ قاطع، فإنهم معصومون، قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ** ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ **يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ويوسف عليه السلام حين رأى رؤياه كان غلامًا، فلم يكن قد نُبّئ بعد، لأن الأنبياء رجال صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولكن كانت رؤياه صادقة كما علمها كذلك أبوه يعقوب عليه السلام، وعلم منها علوَّ يوسف عليه السلام على إخوته، فكانت نصيحته له: ﴿ **يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا** ﴾، ومن هنا يستدل على أنه لا ينبغي أن يقص الرؤيا إلا على ناصحٍ محبٍ، ولأن « **الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عبرت وقعت** »(١) كما ثبت ذلك في الحديث الذي رواه أحمد من حديث معاوية بن حيدة مرفوعًا وصححه الألباني، فربما كان غير الناصح سببًا لوقوع المكروه بتأويلها على وجهٍ غير مرغوب فيه.

وكذلك يستدل بهذه الآية على كتمان بعض ما فضل الله به بعض عباده من أنواع الإكرام والاختصاص، عمن يتوقع منه الحسد والحقد كما في الحديث عن النبي ﷺ: « **استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود** »(٢) (صححه الألباني في صحيح الجامع)، وأما قوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ [الضحى: ١١]، فهو إما بمعنى الحديث بما علّمه الله من النبوة والعلم فيعلّمه للناس، وإما بمعنى الثناء على الله عز وجل بها، وكلا المعنيين صحيح، وعلى الثاني، فهو يحدث بها أهل الصلاح والخير الذين لا يحسدون

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٥٠٢٠) عن أبي رزين في الأدب، والترمذي (٢٢٠٤، ٢٢٠٥) الرؤيا، وابن ماجة (٣٩٠٤) تعبير الرؤيا، وأحمد (١٥٥٩٣، ١٥٦٠٢، ١٥٦٠٦، ١٥٦١٦) أول مسند المدنيين، والدارمي (٢٠٥٥) الرؤيا، والبيهقي (٤٧٦٦) شعب الإيمان، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٥).

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني (١١٨٦) الصغير، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٣) بلفظ « إنجاح » بدلاً من « قضاء ».

مؤمنًا على ما أنعم الله به عليه.

ونلحظ هنا علم يعقوب عليه السلام بنفسية أبنائه الآخرين، وما يوقعهم الشيطان فيه من الحسد ليوسف، لما اختصه الله من أنواع الفضل الذي كانت مباديه ظاهرة منذ الصغر، ولذا كان حب يعقوب عليه السلام له أكثر من إخوته، للصفات الجميلة التى اختصه الله بها، وهكذا ينبغي للأب أن يكون خبيراً بصفات أبناءه، وكذا المربي والمعلم مع تلامذته، ليستطيع قدر الإمكان معالجة ما يقع بينهم، وليكن منتبها لهذا الداء العضال، داء الحسد الذى هو من أدواء إبليس، والذى كان من أسباب هلاكه، وكان داء ابن آدم الأول القاتل لأخيه – نعوذ بالله منه –، هذا الداء هو الذى يدفع إلى أنواع الكيد والمكر بالمحسود، لمحاولة إزالة النعمة التى فضل الله بها من شاء مِنْ عباده على بعض، وهذا كله منبعه الشيطان، رأس الحاسدين وأول الحاقدين المتكبرين، ولذا حرص يعقوب عليه السلام أن يبين ليوسف ذلك بقوله: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ ، وهذا من أهم وسائل التربية والتوجيه فى مثل هذا المقام، وهو يريد منع العداوة بين الأخوة، وتوجيهها للعدو الحقيقى البيِّن: الشيطان الرجيم، فالكيد السيء طارئ على الإنسان، فلا ينبغى أن تكون العداوة متأصلةً معه، إلا من تحول إلى أن صار شيطانًاوالعياذ بالله، وهذا هو الواجب على الأب والمربي، أن يعمِّق فى نفس أبنائه وتلامذته عداوة الشيطان، والانتباه لعداوته، فإن أكثر الناس لا يلتفت لعداوته، ولا يتخذونه عدواً، بل وليًا، فلا ينتبهون لوسوسته وخواطر السوء التى يلقيها، وشبهات الضلال التى يغذيها، فتثمر فى قلوبهم ثمار الغي والضلال .

وتأمل كيف أثرت هذه الكلمة من يعقوب فى نفس يوسف، فقال بعد نحو أربعين سنة : ﴿ **مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي** ﴾ ، فهو قد وعى الدرس من أبيه جيداً، وعلم أن ما وقع من إخوته كان نزغًا من الشيطان، وليس أصله من

قلوب إخوته، فرغم ما كان فيها من الحسد وما وقع بينهم من الكيد، إلا أن الخير في قلوبهم كان أغلب، وهو الذى انتصر فى النهاية بفضل الله، وزال الحسد والعداوة بشهود تفضيل الله وإيثاره، الذى هو دواء الحسد ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ .

وتأمل الأدب الرفيع فى ترك المعاتبة واللوم كما وعدهم، فقال : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ ، فذكر نفسه أولاً، لئلا يجد إخوته من الحرج أن الشيطان نزغ فى قلوبهم هم، وهى الحقيقة، ولكنها العبارة الرفيعة الأدب، التى تؤدّي المعنى ولا تجرح الشعور فى مثل هذا المقام، والمقصود أن المؤمن عليه دائما أن ينتبه إلى عداوة الشيطان، مما يقتضي حراسة الخواطر من كيده، والإستعاذة بالله منه ومن همزه ونفثه ونفخه .

التربية الإيمانية وأثرها

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ .

هذه الجلسة التربوية الإيمانية الرائعة، التى أثّرت فى يوسف عليه السلام عمره كله، وظل أثرها عبر السنين رغم الفراق الطويل، يقصّها الله علينا ليعلّمنا كيف يُغرس الإيمان والحب لله فى القلب، ولتكون القدوة والأسوة للأباء والمربين فى توجيه الأبناء والتلاميذ، فيخبر الله عن قول يعقوب ليوسف عليهما السلام : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾، أى كما اختارك وأراك سجود هذه الكواكب والشمس والقمر لك، فكذلك يجتبيك ربك أى يختارك ويصطفيك بفضله، وشهودُ نعمة الله وفضله أصل سعادة العبد، إذ هذا أصل الشكر، وإنما يعمل الشيطان ليجعل الخلق غير شاكرين ﴿ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧]، فإذا شكر العبد ربه، قطع الطريق على الشيطان فلم يجد إلى قلبه سبيلاً، وشهود الإختصاص بالرحمة والتفضيل، من أعظم ما يأخذ بقلب العبد إلى ربه سبحانه، حبًا وشوقًا، ورجاءً وعبوديةً، فالحب ينبت على حافات شهود المنن، ومعرفة الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذا قد تحقق فى كلمات يعقوب عليه السلام لابنه يوسف عليه السلام، وأعظم نعمة واجتباء يمنّ الله بها على عبده، هى نعمة الإسلام والإيمان والإحسان، ثم الاجتباء بالقرب الخاص والتفضيل على كثيرٍ من عباده المؤمنين، وأعلى ذلك الاجتباء بالنبوة والرسالة، تأمّل ما ذكر الله سبحانه فى كلامه لموسى : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾[طه : ١٣]، وقوله : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾[طه : ٣٦-٣٧] إلى قوله : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[طه : ٣٩] إلى قوله : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾

[طه : ٤١]، ولولا تثبيت الله لهذه القلوب لضعفت من شدة الفرح والحب والشوق إلى الله سبحانه، وتأمّل قول الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣]، وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤]، ماذا ينالنا نحن من إدراك قبس من النور، الذى حلّ في قلوب الأنبياء، وتأمل قول الله تعالى لعباده المؤمنين : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤]، وتأمّل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران : ٧٣]، وقوله : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ [الحج : ٧٨]، فحين تستشعر أن الله هو الذى سمّاك مسلما من قبل ولادتك، ومنّ عليك من قبل وجودك، وسمّاك مسلما فى القرآن، أشرف الكتب المنزلة على أشرف الرسل ﷺ، يكاد القلب يذوب حبًا وشوقًا ورجاءً لمزيد الفضل والرحمة منه سبحانه، الكون مليء بأدلة التفضيل بين الخلائق ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء : ٢١]، وتأمل هذا فى الدنيا يقود إلى وجود تفضيل أعظم فى الآخرة ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٢١] وشهود التفضيل بالدين أعظم سبب للحب، مع معرفة صفات الجمال والجلال لله سبحانه.

ولنتأمل فى ذكر اسم الرب مضافًا إلى ضمير المخاطب المفرد فى قوله : ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾، لنجد التوجيه ولفت نظر القلب إلى هذه الخصوصية فى العلاقة، ربك أنت الذى يفعل بك كل جميل، ويمن عليك بكل نعمة، ويختصك أنت، ويريدك أنت، فلتشهد أفعاله الجميلة بك، ولتحرص على أن تكون له وحده، وتشهد فضله وحده، لا تحقق هذا الشعور غير هذه الكلمة

﴿ ربُّكَ ﴾ في مثل هذا الموضع .

وتأمل قول يوسف في نهاية القصة : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾، وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾، وقوله : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾، تجد هذا التعلق الخاص بالربوبية، الذي يشهد به العبد الصالح المنة الخاصة والنعمة الخاصة، مثل ما تجده في قول صالح عليه السلام : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١]، وقول شعيب عليه السلام : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠]، فحين أمرهم بالاستغفار ذكر اسم الربوبية مضافًا إلى ضمير المخاطَبين، وهم هنا لم يُخَصّوا بَعْدُ بالفضل والتقريب، وحين ذكر تعلقه هو بما وجد أثره من صفات ربه الرحيم الودود، ذكر اسم الربوبية مضافًا إلى ضمير المتكلم المفرد : ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾، لأنه وجد من رحمته الخاصة، و أثر حبه عز وجل ما لم يجدوه هم .

وتأمل قول السحرة : ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٨] لتعرف قدر هذه الخصوصية بهذا الفضل، هذا الذي يأخذ القلب إلى الله عز وجل، ويكاد يذوب شوقًا وحبًا لله، وتأمل ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] هذا الذي يجب أن يُربّى عليه الإنسان، ويُنشّأ عليه من شهود نعمته، واختصاصه عبده بفضله ورحمته، فيحب ربه أعظم الحب، ويكون تعلقه به، وحرصه على مرضاته، مقدمًا على كل ما سواه، اللهم ارزقنا حبك ومرضاتك .

وقد أكّد يعقوب عليه السلام على شهود أثر الربوبية بذكر جميع الأمور منسوبة إلى فعله عز وجل ، فلم يقل ستكون يا يوسف عالمًا بتأويل الرؤى، وستنال المنازل العالية التي نالها آباؤك وإنما كانت كل الأمور من أفعاله عز وجل ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾، و ﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾، و﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾، و﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ

﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾، وقد أثرت هذه الكلمات في يوسف عليه السلام أعظم الأثر، فظل مشاهداً لفضل ربه سبحانه، وفعله الجميل به، في كل مراحل حياته، فيقول لصاحبيه في السجن : ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾، ويقول لهما : ﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾، ويقول لأبيه في خاتمة القصة : ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ لم يقل قد تحققت، ويقول : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ فنسب الإحسان إلى ربه، ولم يقل خرجت من السجن بل الله أخرجه، وقال : ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ ولم يقل جئتم، وقال : ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فنسب الشر إلى الشيطان وفعله، فهذا هو الأدب، فالخير كله في يدي الرب سبحانه والشر ليس إليه، وقال : ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ فذكر لطفه ومشيئته، كل هذا أثر هذه التربية الإيمانية في الصغر، فالله الذي يفعل ويتفضل ويمن ويحسن، ويلطف ويشاء، له الحمد عز وجل وقال : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، كل هذا فضله ومنته .

وفي قوله عليه السلام : ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ نجد أن شهود النعمة منه سبحانه يأخذ قلب العبد، فكيف بإتمامها ؟إن ابتداء النعمة فضل عظيم، وأعظم منه إتمامها ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣]، وقال تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح : ١٢].

وإذا شهد مع ذلك أنه إتمام للنعمة على آله كلهم، وأنه سبق إتمامها على أبويه من قبل إبراهيم و إسحق، فهو إذن مغمورٌ بنعم الله التامة عليه وعلى آبائه، كل هذا أعظم في شهود الرحمة والفضل، واستدعاء المحبة والشكر، فاللهم أتمم

نعمك علينا، واجعلنا شاكرين لها، مثنين بها عليك .

وتأمل كيف ذكر يعقوب نفسه باسمه، وليس بضمير المتكلم المعتاد في مثل هذا المقام، تجد في ذلك التواضع لله، والاعتراف بفضله، وشهود الفضل عليه لاجتباء أحد من ذريته للنبوة والرسالة، فهذا فضل ونعمة على الأسرة كله .

وذَكَرَ اسم يعقوب الذي سُمّي به في صغره دون ذكر إسرائيل، الذي سُمي به في كبره بعد جهاده في الله، وتضحيته وصبره وغلبته(١) لنفسه لله عز وجل وهذا والله أعلم، تواضعًا لله سبحانه .

قوله تعالى عن يعقوب : ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، إن الإيمان بالأسماء والصفات أساس التوحيد والمعرفة، ونجد هنا التربية الإيمانية على التعلق بالأسماء والصفات واستحضار آثارها، وذكر هنا ثلاثة أسماء لله سبحانه : الرب والعليم والحكيم، ذكر اسم الرب مضافًا إلى ضمير المخاطب المفرد، ليرى في نفسه خصوصية التعلق وشهود الإصلاح الخاص، فالرب هو الذي يَرُبُّ مربوبه، أي يصلحه ويقوم على شأنه، والله سبحانه يخص أنبيائه ورسله ثم أوليائه بأنواع من العناية والإصلاح، ويسبغ عليهم من النعم والفضل ما لا يسبغه على غيرهم، فإذا استشعر العبد ذلك، عظمت عنده النعمة، وتعلق قلبه بربه تعلقًا خاصًا، حبًا وشوقًا ورجاءً، يختلف عن تعلق سائر الخلق، فإن النعمة الدينية أعظم من النعمة الدنيوية **﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾** [النساء : ١١٣] .

والرب أيضًا المالك لمربوبه، وإذا استشعر العبد أنه مملوك، مختص بمزيد فضل مالكه، مُهَيَّئ مُعَد لأمر لم يهيئ له غيره من المماليك، ربأ بنفسه أن يضيعها، أو

---

(١) اليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة – يعتقدون أن اسم إسرائيل أنعم الله به على يعقوب بعد أن أمسكه من حقويه وصرعه ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، فهو عندهم (اصرع – ائيل) أي : الذي صرع الرب سبحانه ، وإنما معناه عبد الله ، الذي صرع نفسه لله – عز وجل – ، والله أعلم أو نحو ذلك .

يرضى لها بأن يملكها غير مالكها الحق، ولم يرض بعبودية غير ربه ومولاه .

والرب أيضًا السيد الآمر الناهي المطاع، وفي هذا يشهد المؤمن أن أوامر ربه ونواهيه له هو، وهو المقصود بها قبل غيره، وأن طاعته هي المقصودة، وهذا يجعله أشد حرصًا على التزام الأمر، واجتناب النهي، والمداومة على الطاعة .

واسم ﴿ العليمٌ ﴾في هذا الموطن، يقتضي شهود علمه بمن يصلح للاجتباء، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بالشاكرين، وأعلم بكيفية تدبير أمر عبده المؤمن، حتى يوصله إلى غايته المحمودة، وأعلم بما في قلوب عباده، فيقدر أمره الغالب بعلمه الأول الموصوف به أزلاً سبحانه .

واسم ﴿ الحكيمٌ ﴾بمعنى الذي لا يفعل ولا يشرع شيئًا إلا لحكمةٍ وغايةٍ محمودةٍ، فهو يضع الأشياء في مواضعها، وإذا اجتبى عبداً وعلّمه، ومنَّ عليه بما لم يمنّ على غيره، فلأنه أهلٌ لذلك، فهو أعلم بخلقه، ويفعل فيهم مقتضى الحكمة التي يستحق الحمد عليها، كما أن شرعه عز وجل كله حكمة وأوامره الشرعية لعباده المؤمنين، فيها مصالحهم في دينهم ودنياهم، وهذا كله يقتضي التسليم لشرعه، والرضا به سبحانه وعنه، ربًا مدبرًا قادرًا، لا يتهمه في قضائه، ولا يعقب على حكمه، وإن غابت عنه الحكمة في مبادئ الأمور، فليوقن بها، فما يخلو قضاؤه عنها أبدًا، وليصبر لأمره، فسيرى العجب، وليواظب على الحمد والتفويض والتوكل .

واسمه ﴿ الحَكِيمٌ ﴾بمعنى : المُحْكِم للأشياء، الذي أتقن صنع كل شئ، وتدبير كل شئ، وكلا المعنيين في قصة يوسف يظهر في تفاصيلها من آثارهما العجب، فتأمل حكمة الله في إلقاء يوسف في البئر، ثم بيعه رقيقًا وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم كيف كان هذا في الحقيقة سببًا لعلوه وارتفاعه على إخوته، الذين أرادوا إنزاله، فارتفع بفضل الله، وأرادوا إذلاله، فعز بتقدير الله وحكمته، وانظر كيف كان السجن سببًا للملك، لو لم يُبتلى يوسف به، لظلّ

في رقّ العبودية، فكان الضيق سببًا للسعة بحكمة الحكيم سبحانه ، وغير هذا كثير مما سيمر بنا إن شاء الله أثناء تفاصيل القصة، وتأمّل كذلك إتقان التدبير والكيد منه سبحانه ، وكيف كان الأمر في غاية الإحكام لينفذ أمره، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولقد ظلّ يوسف عليه السلام متعلقًا بأسماء الله الحسنى، التي علّمها له أبوه عبر السنين، وظهر هذا جليًا في نهاية القصة، بعد السنين الطوال والفراق البعيد، فيقول لأبيه : ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾، نفس الأسماء التي ألقاها على سمعه وقلبه أبوه الكريم في صغره، وهذا يؤكد لنا أهمية التربية الإيمانية على فهم معاني الأسماء والصفات، والتعلق بها، حتى لو كانت البيئة بعد ذلك غير مُعِينَة على نفس التربية، بل حتى لو كانت البيئة فاسدة، كالتي عاش فيها يوسف، كانت بيئة كافرة ماجنة لاهية، ومع ذلك بقي أثر التربية العظيمة، ولو تأملت وصية لقمان لابنه كيف يعلمه أسماء الله الحسنى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾ [لقمان : ١٦]، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [لقمان : ١٨]، وتأمّل كذلك الكلمات التي يعلمها النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : « **احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك . . .** » (١) الحديث، فيظهر لك ضرورة هذه التربية، ومدى التقصير الذي يقع فيه الآباء والمربين، إذا أهملوا هذا الجانب من جوانب التربية، وبالقطع واليقين أن طريقة علم الكلام بالتعريفات الرياضية والحدود الكلامية، هي أبعد الطرق وأظلمها، فليبتعد عنها الأب والمربي، وعليه بطريقة الكتاب والسنة والسلف الصالح رضوان الله عليهم .

---

(١) **صحيح** : سبق تخريجه ص (٢١) .

عبر وعظات

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ .

يخبر تعالى أن في قصة يوسف من العبر والعظات، ما هو دلالات وعلامات للسائلين المستخبرين الباحثين عن ذلك، دلالات على وحدانية الرب سبحانه وكمال أسمائه وصفاته، وحكمته وعلمه، وفضله وعدله، ودلالات على صدق رسله، وما لهم من الصفات الجميلة التي تحببهم إلى نفوس الخلق، من الكرم والإحسان، والعفو وسلامة الصدر، والإخلاص والمراقبة، والصبر والشكر، والتفويض ورجاء فضل الله وعدم اليأس من روحه، والاستعانة بالله وحده والالتجاء إليه في كل شدة، بل في كل حاجة دينية أو دنيوية، وغير ذلك مما لعله أن يمر بنا في مواضعه من القصة، ودلالات على حسن عاقبة الصبر والتقوى والإحسان، وقبح عاقبة الحسد والحقد والمكر السيئ، وقطيعة الرحم والظلم واتباع الشهوات، مما هو دلالة على أمر الآخرة وما فيها من الحساب الثواب والعقاب، ودلالات على فضل العلم والدعوة إلى الله سبحانه، وكيفية الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ودلالات على الإيمان بالقدر، وأن مشيئة الله نافذة، وأن الله غالب على أمره رضي العباد بذلك أو لم يرضوا، ودلالات ظاهرة قاطعة على نبوة محمد ﷺ، الذي أوحى الله إليه هذا القرآن العظيم، ومنه هذه السورة الكريمة .

المؤامرة الخبيثة

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾ .

يبيّن الله تعالى في هذه الآيات، ما وقع فيه إخوة يوسف من حقدهم وحسدهم ليوسف وأخيه، على حب أبيهما لهما أكثر من إخوتهما، والحسد هو الداء العضال، الذي هلك به إبليس حين حسد آدم، وهلك به ابن آدم الأول حين حسد أخاه فقتله، ومنبع ذلك الداء الجهل بحكمة الله في قَسْمِه وعطائه، والاعتراض على فضله ومنته على من شاء من خلقه، وسبب ذلك المقارنة الجاهلة بين النفس التي ترى كمالاتها المظنونة دون عيوبها، وتعمى عن فضل المُقارن به، فإبليس رأى كمال فضل النار على الطين وليس هذا كمال في الحقيقة ، وجَهِلَ عيوب نفسه من الكبر والعجب والإباء لأمر الله، وعَمِيَ عن فضل آدم إذ خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعَلَّمَهُ أسماء كل شئ .

وإخوة يوسف رأوا أنهم جماعة وقد رُوِيَ أنهم إخوة لأم واحدة ، وهل هذا يقتضي التفضيل والاختصاص بمزيد من المحبة ؟ وأنت تلحظ أن اجتماعهم غالب عمرهم لم يكن على خير، حتى تابوا إلى الله، وتناولوا دواء الحسد بشهودهم إيثار الله تعالى ليوسف عليهم، وشهود خطيئتهم، فمجرد كونهم (عصبة) لا يلزم منه المحبة والفضل، ولتعلم ما كانوا عليه في اجتماعهم من الجهل والجفاء أنهم قالوا لبعضهم دون منكر منهم : **﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾** نعوذ بالله من الجهل والضلال، أبوهم الكريم ابن الكريم ابن الكريم، نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن

خليل الله، العليم بالله بصفاته، الذي جعله الله قرّة عينٍ لجدّه إبراهيم في حياته وتربى في حجره، وجعله الله إمامًا يهدي بأمره، يقولون عنه أنه في ضلال، وليس فقط في ضلال، بل يجعلونه ضلالاً مبينًا واضحًا جليًا فسبحان الله كيف انقلبت الموازين، واختل الفهم إلى هذا الحد، لكنه الحسد الذي يُعمي القلب، ويُغير الحقائق في نفس الحاسد، حتى لا يرى الخير في غيره، ويحكم على من لا يوافقه في غيّه وجهله بالضلال، وهم قد جمعوا في هذه الجملة عددًا من العظائم: عقوق الأب، وحسد الأخ، وغيبة أبيهم النبيّ، وسوء الظن به، والاعتقاد الفاسد بنسبة الظلم إليه في تفضيله، والإعجاب بالنفس بما لا يستلزم الفضل، وأشد هذه كلها الاعتقاد الفاسد في أبيهم النبيّ، وتلفظهم بهذه الكلمة العظيمة باتهامه بالضلال، ولا شك أن اعتقاد ضلال نبي من الأنبياء، فضلاً عن التلفظ بذلك من الكفر، ولكنهم كانوا جهالاً بما يجوز وما لا يجوز في حق الأنبياء، فعُذروا بالجهل في عدم التكفير، وإن كان إثمهم بذلك عظيمًا، لكن لا يكفر المعين قبل إقامة الحجة وإزالة الشبهة، ومثلُ هذه الكلمة في الشناعة والفساد، قولهم لأبيهم حين قال في نهاية القصة: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تسفهوني وتنسبونني إلى خرف الهرم، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾، قال قتادة: «قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبيّ الله ﷺ» وكذا قال السدي وغيره، والأنبياء لا يجوز أن يُسَفَّهوا أو يضللوا، بل هذا قول أعدائهم الكفرة فيهم، ولولا جهل أبناء يعقوب، لكفروا كفرًا ينقل عن الملة، فيما اعتقدوا وتلفظوا في حق نبي الله يعقوب، ففي القصة دليل على العذر بالجهل في مسائل الاعتقاد.

وقارن بين أدب يوسف وهو يقص على أبيه الرؤيا ويقول: ﴿يَا أَبَتِ...﴾ وبين قولهم عن أبيهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لتعلم الفرق الذي من أجله

أحب يعقوب يوسف أكثر منهم، فلم يكن تفضيله إياه عن هوى نفس، أو إعجاب بهيئةٍ وجمالٍ ظاهر، أو تفضيل زوجةٍ على أخرى بتفضيل أولادها، فإن نبي الله منزّه عن ذلك، إنما كان تفضيله ليوسف لما رأى من صفات النجابة وحسن الأدب، وكمال العقل وعلامات الاجتباء والاصطفاء، ودلائل التفضيل الإلهي والإعداد لوراثة النبوة .

ولا شك أن المؤمن يحب في الله من يراه أكثر طاعة، وموافقة لدين الله الذي يحبه ويرضاه سبحانه لعباده، والأب الذي يفضل في المحبة ابنه المطيع على ابنه العاصي، ليس بظالمٍ ولا متعدٍ، وإنما الجور الذي حذر منه النبي ﷺ هو في التفضيل في العطية الدنيوية، فلا يجوز تفضيل بعض الأولاد فيها على بعض بغير سبب كمرضٍ أو زمانةٍ أو فقرٍ أو حاجةٍ، وسمّى النبي ﷺ تفضيل بعض الولد في العطية جوراً، فقال ﷺ للبشير والد النعمان بن بشير، لما أراد أن يخصه بهبة : « **لا تشهدني على جور** »(١)، وقال ﷺ : «**اعدلوا بين أولادكم**»(٢)، وظاهر هذه الأحاديث وجوب العدل والتسوية بين الأولاد في العطية، وهو مذهب أحمد رحمه الله ، وقال الجمهور بالاستحباب، ولا صارف للأمر بالعدل عن الوجوب، فالظاهر مذهب أحمد، واستثناء المريض والزمن والفقير ونحو ذلك هو من جهة المعنى، لأن العدل يقتضي إعطاء كل واحد كفايته، وهؤلاء حاجتهم أكثر من غيرهم، والأحاديث وردت في عطية أو هبة زائدة عن الحاجة، والجمهور أن العدل المأمور به يستوي فيه الذكور والإناث، لأن لفظ (أولادكم) يشمل الذكور والإناث، وذهب أحمد إلى أن العدل في الهبة كالميراث، للذكر مثل حظ الأنثيين، والظاهر قول الجمهور لعموم الدليل .

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري (٢٦٥٠) الشهادات ، ومسلم (١٦٢٣) الهبات ، والترمذي (١٢٨٨) الأحكام، والنسائي (٣٦٨٣) النحل ، وابن ماجة (٢٣٦٧) الأحكام ، وأحمد (١٧٦٣١) أول مسند الكوفيين ، ومالك (١٢٤١) في الأقضية .

(٢) **متفق عليه** : رواه البخاري (٢٥٨٧) الهبة وفضلها والتحريض عليها ، ومسلم (١٦٢٣) الهبات بلفظ «**قاربوا** » بدل « **أعدلوا** » ، وأبو داود (٣٥٤٤) البيوع ، والنسائي (٣٦٢٧) النحل بلفظ « **أعدلوا بين أبناءكم** » .

والمقصود أن التفضيل في المحبة بناءً على الصفات والأخلاق، ليس من التفضيل المنهي عنه، فلم يكن يعقوب عليه السلام مخطئًا، ولا مخالفًا للأولى في شدّة محبته ليوسف وأخيه على بقيّة أبنائه .

قال ابن كثير رحمه الله : « واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى : ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ** ﴾ [البقرة : ١٣٦]، وهذا فيه احتمال، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم : الأسباط، كما يقال للعرب : قبائل، وللعجم : شعوب، ويذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم » أ.هـ. والصحيح ما رجحه ابن كثير من عدم نبوتهم، لأننا على يقين من عدم نبوتهم حال فعلهم ما فعلوه بيوسف، ويُسْتَصْحَبُ هذا الحكم حتى يأتي دليل، ولا دليل كما ذكر رحمه الله .

وقوله تعالى عنهم : ﴿ **اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ** ⑨ ﴾، يبين ما يصل الحسد بصاحبه إليه من العظائم، والقسوة والفظاظة، وعمى البصيرة وقطيعة الرحم، قال ابن اسحق رحمه الله : « لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيمٍ من قطيعة الرحم وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده، ليفرّقوا بينه وبين أبيه وحبيبه، على كبر سنّه ورقّة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوّته وصغر سنّه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه،

يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً » رواه ابن أبي حاتم .

وتأمّل كيف سوّل لهم الشيطان ونفوسهم الأمارة بالسوء، قتل يوسف أو إلقاءه في أرضٍ بعيدة لا يعود إلى أبيه، ومنّاهم ووعدهم الغرور أنه بذلك سيخلو لهم وجه أبيهم ومحبته ووده، يا عجباً لهذا الغرور، أيصفو لهم قلب أبيهم وقد قتلوا حبيبه أو طرحوه ؟ إن أدنى ذرةٍ من عقل تؤكد أن مثل هذا الفعل لا يجلب إلا الكراهية والسخط العمر كله، ولكنه الغرور والوعد الكاذب الذي يشقى به الإنسان، ثم هل هم فعلاً حريصون على حب أبيهم ؟ لو كانوا كذلك لأحبوا ما يحب، ولعلموا أن إحزانه وإغضابه بإبعاد ابنه عنه، من أعظم المنكرات، لكنه في الحقيقة حب للنفس وحظها، فهم لا يحبون أباهم حقيقةً، ولا يريدون إلا نصيب النفوس وحظها من أبيهم، ومثل هذه المحبة محبة علة، لا ينظر المحب فيها إلا إلى حظه وشهوته، مثل حب امرأة العزيز ليوسف ليس حبًا حقيقيًا، بل هو حب للنفس وأنانية رذيلة دنيئة، ومن عدل الله عز وجل أن جعل هذه المحبة لا ينال صاحبها بها وطره وغايته، بل يتعذب بها ويبتعد عن مقصوده، ولو نال شيئًا منه لما تنعم به، بل ينقلب عليه عذابًا ووبالاً، وليحذر العبد أن تكون محبته لربه عز وجل محبة علة، لا يطيع ربه إلا لينال حظًا من الدنيا، من جاهٍ أو منصبٍ أو مالٍ أو شهوةٍ، فيصير ممن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خيرٌ اطمأن به، وإن إصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، واعلم أن حظ العبد من الطاعة والعبادة، من حب الله والشوق إليه، ورجائه وحسن الظن والتوكل عليه، ولذة كل هذه العبادات وغيرها، ليس من حظ النفس المذموم، بل هو من أعظم المطالب الشرعية التي يحبها الله، والتي هي من بشرى المؤمنين، وهو ذوق طعم الإيمان وحلاوته، وهو جنة الدنيا التي من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وفي قوله تعالى عنهم : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ فأضمروا التوبة

قبل الذنب، دليلٌ على خطر هذه الطريقة الشيطانية، التي يُسوّل بها الشيطان للعبد فعل المعصية، ويُهَوِّنُ عليه مواقعتها لأنه سوف يتوب، فالعبد إن كان عنده أصل الإيمان والانقياد الباطن، فهو يجد ألمًا وضيقًا ولومًا داخليًا بها، وصراعًا نفسيًا لفعل المعصية، ولا يزال به هذا الألم والضيق حتى يترك المعصية، وحسب قوة الإيمان وضعفه، يكون هذا الألم قوةً وضعفًا، فيحاول الشيطان أن يُسَكِّنَ هذا الألم، ويخدّر هذا الشعور، ويؤجّل هذا الصراع، حتى يتمكن داعي الشهوة من حسم هذه المعركة لصالح فعل المعصية، وهذا المخدّر الذي يُسكّن ويُخدّر به هذا الألم، هو حديث النفس وتمنيتها بالتوبة في المستقبل، وبعد فعل المعصية يسوّف التوبة، أو يُنسي العبد إياها، أو يصده عنها بأي طريق، فالمهم عنده أن يفعل المعصية الآن، وغداً يجد طريقاً للصدّ عن التوبة، وأنت تلحظ هذا الأمر فعلاً في هذه القصة، فرغم عزم إخوة يوسف على التوبة بعد فعلتهم، لم يتوبوا إلا بعد سنين طوالٍ، لمّا أخذوا دواء الداء وهو داء الحسد، فقد ظلوا طيلة هذه السنين يُكنّون العداوة ليوسف، وما شعروا بالندم على فعلتهم، حتى إنهم قالوا ليوسف وهو عزيز مصر، وهم لا يعلمونه: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾، فلم يزل الحقد في نفوسهم، ولا يُلْمَحُ بداية الندم إلا في قول كبيرهم: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾، فكان بداية الفرج عليهم شعورهم بالتفريط، فهل تركهم الشيطان يتوبون عقب فعلتهم في بيع يوسف؟ لم يتركهم، بل ظلّ الحسد والحقد يملأ القلوب عبر السنين، التي ربما بلغت نحو الأربعين أو أقل أو أكثر.

فإيّاك وطريقة الشيطان في تسهيل أمر الذنب، وتمنية النفس بالتوبة، فإنها من أماني الغرور التي لا تتحقق ولا تغني من الحقّ شيئًا، وربما كان من عقوبة الذنب الحرمان من التوبة المعزوم عليها، واحسم الصراع في داخل النفس لصالح

ترك المعصية قبل فعلها، فهذا الذي تطمئن به النّفس، ويسكن به القلب .

وقول قائلهم : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ⦗١٠⦘ ﴾، تلمس فيه درجة من القسوة أقل من الاقتراح الأول بقتله، وترددًا وترديدًا لهم في الفعل بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾، وإن كان والله اقتراحًا قاسيًا جدًا، يطول به في ظاهر الظنون عذاب أخيهم ومعاناته في ظلمة البئر، ثم في ذل الرق طول العمر، لولا ما قدّره الله ليوسف من التمكين في الأرض، وتيسير المأوى، وتليين قلب من اشتراه عليه، وعظيم محبته له إلى درجة الولد، فسبحان من هو غالب على أمره وبحمده .

وتلحظ في كلمات إخوة يوسف ﴿ اقْتُلُوا ﴾، ﴿ اطْرَحُوهُ ﴾، ﴿ أَلْقُوهُ ﴾ الفظاظة والغلظة وقلة الرحمة .

والغيابة : أسفل الجب، بحيث يغيب ما وضع فيه عن نظر الناظر، وحين يستحضر المرء صورة الطفل الصغير، الذي يُلقى في أسفل بئر مظلم وحيداً منفرداً، يُترك فيها ليالي مظلمة، حتى تأتي السيارة التي تأخذه رقيقًا تبيعه للناس، فيكون خروجه على أيديهم، هو الفرج بالنسبة إلى ما كان فيه، البيع رقيقًا هو الفرج ! لا حول ولا قوة إلا بالله، حين يستحضر المرء ذلك وأنه وقع من إخوة لأخيهم من أبيهم، مع حسن خُلُقه وخَلْقِه، يعلم أن كيد الشيطان بالعبد لا يقف عند حدّ، ويعلم كم يُكِنُّ الشيطان للإنسان من عداوة، ورغبة في الشقاء والعذاب، ليس فقط بالمعَذَّب المطرود المباع المظلوم، بل والله بالمُعَذِّب المُلْقي البائع الخاسر الظالم، فإن هذه القسوة الشديدة تجلب عذابًا حاضرًا لصاحبها في دنياه قبل أخراه إلا أن يتوب ، والإنسان الذي نزعت من قلبه الرحمة غير مرحوم، نفسه تمقته على ظلمه، ومَنْ حوله يمقتونه، والكائنات حيّها وجمادها تمقته، وأعظم من ذلك مقت أهل السماء، وأعظم وأعظم مقت الله عز

وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [غافر : ١٠]، وقال النبي ﷺ : « **وأما الفاجر فيستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب** »(١)، ولا تظن أن هذا في الكافر فقط، بل من كان له فيه من صفات الكفار القبيحة من الظلم والفسق، كان له نصيب من هذا المقت بقدر ما فيه قلةً وكثراً، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف : ٢٣]، نعوذ بالله من مقته وغضبه، ونعوذ بالله من القسوة والغفلة (٢).

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٦٥١٢) الرقائق ، ومسلم (٩٥٠) الجنائز ، والنسائي (١٩٣٠) الجنائز ، وأحمد (٢١٤٩٧) باقي مسند الأنصار ، حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه (٢١٥٣١ ، ٢١٥٤٦)، ومالك (٥٠٩) الموطأ في الجنائز .

(٢) صحيح : رواه الحاكم والبيهقي بلفظ « **اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والبخل، والهرم، والقسوة، والغفلة ، والعيلة ، والذلة ، والمسكنة ، وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون ، والجزام والبرص وسيء الأسقام** »، و صححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٥).

الوعد الكاذب

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

وقع الاتفاق على الاقتراح الأخير بإلقاء يوسف في غيابات البئر، وبدأ تنفيذ الخطة من خلال الحديث الكاذب، والوعد الذي يضمرون إخلافه، وادعاء طلب الأمانة التي هم عازمون على إضاعتها وخيانتها، فأتوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، وواضح أن يعقوب عليه السلام كان يلمس منهم سوء المعاملة ليوسف، فكان لا يأمنهم عليه، ويحول بينهم وبين الخلوة به، ولا يتركه يفارق المنزل ولو حتى للعب الذي يحتاجه الصغير، فدرأ المفاسد مقدم على جلب المصالح .

وقولهم : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ كذبٌ صريحٌ منهم، فهم في الحقيقة له حاسدون، وعليه حاقدون، وفي ضرره ساعون، وكم من مقسمٍ على النصيحة هو لك غاش، فإياك أن تغتر بمن يزعم النصح، حتى تعرض نصحه المزعوم على أمر الله، ثم تعرضه على فعله وسلوكه، لتعلم حقيقة النصح من الغش، فقديمًا قاسَمَ الشيطان أبوينا ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف : ٢١]، وكان أعظم الغشاشين، ولا تنخدع بمن يأمرك بالسوء، ويظهر من فلتات لسانه وأعماله دلائل الغش والحسد، حتى ولو حاول خداعك بالله ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قال ابن عباس : « يسعى وينشط »، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وهذا هو الوعد الذي تواطئوا على إخلافه، وتأمل قدر التأكيدات وأنواعها المختلفة التي استعملوها في كلامهم، من (إن) المؤكدة، ولام التوكيد المتكررة، و ﴿لَنَاصِحُونَ﴾،

و﴿ لَحَافِظُونَ ﴾ مع أنهم على العكس تمامًا مما يعلنون .

وفي كذب إخوة يوسف وإخلافهم الوعد وخيانتهم للأمانة، وفجورهم في خصومتهم لأخيهم، مع عدم تكفيرهم والحكم عليهم بالنفاق الأكبر، ما يؤكد قاعدة أهل السنة في انقسام النفاق إلى أصغر وأكبر، كالكفر والشرك والظلم والفسق، وأن اجتماع أعمال النفاق التي أخبر عنها النبي ﷺ في قوله : « **آية المنافق ثلاث ...** »[1] الحديث وكذا قوله : « **أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا : إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر** »[2]، وهذا نفاق العمل لا نفاق الاعتقاد المخرج من الملة، والمنافق خالص النفاق في هذا الحديث هو أيضًا النفاق الأصغر، ولكنه على خطر عظيم لأن النفاق الأصغر ذريعة وسبب للنفاق الأكبر، وإذا كان منافقًا خالصًا، كان على حافة النفاق الأكبر، ليس بينه وبينه شئ إلا حد الإيمان والتوحيد، فهو على شفا هلكة الكفر والنفاق الأكبر، فليدرك نفسه قبل فوات الأوان .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٣) الإيمان، ومسلم (٥٩)، والترمذي (٢٦٣١) الإيمان، والنسائي (٤٩٣٥)، وأحمد (٨٣٣١) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٣١٧٨)، ومسلم (٥٨)، وأبو داود (٤٠٦٨)، والترمذي (٢٥٥٦)، والنسائي (٤٩٣٤)، وأحمد (٦٤٧٩) .

حزن يعقوب عليه السلام

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

حاول يعقوب عليه السلام أن يمتنع من إرسال ابنه الحبيب يوسف مع إخوته لأمرين، الأول : هو أنه يحزنه فراقه مدة ذهابهم عدة ساعات من النهار، والأمر الثاني : خوفه أن ينشغلوا عنه فيأكله ذئب، وهو صغير لا يستطيع الدفع عن نفسه، ونلحظ من هذا مدى حب يعقوب ليوسف عليهما السلام ، فإنه كان يحزنه فراقه ساعات، فكيف كان حزنه وبثه وألمه عليه هذه السنين الطوال، لقد كان صبره ﷺ صبراً عظيماً، فإن الواحد منا يشقّ عليه ويؤلمه فراق أولاده وأهله أياماً وأسابيع، وليس فيهم الصفات الجميلة خُلُقاً وخَلْقاً، عشر معشار ما كان عليه يوسف عليه السلام ، يكفيك في معرفة جماله الظاهر قول النبي ﷺ عنه : « **أنه قد أُعطي شطر الحسن** » (١)، فلو قُسِّمَ الحسن في هذه الدنيا، لكان نصفه موزع بين البشر، والنصف الثاني ليوسف ﷺ، وأما جماله الباطن، فالقصة من أولها إلى آخرها تدل عليه دلالةً آسرةً للقلوب، من علمٍ وحُكْمٍ وكرمٍ، وعفةٍ وطهارةٍ، واستغناءٍ بالله ونصحٍ للخلق، وسعة صدرٍ وعفوٍ وصفحٍ، وغير ذلك كثير يجعل قلب كل مؤمن يهفو إلى رؤية يوسف صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم وصحبته .

نسأل الله أن يرزقنا رفقته ورفقة الأنبياء جميعاً في الجنة، ونحن نحبه على سماع سيرته فكيف بمن صحبه ورآه، فكيف بحب أبيه له الذي هو من صلبه، وحَقٌّ لنبي الله يعقوب أن يحزنه غياب يوسف عنه ساعات، وهو يرى فيه شمائل

---

(١) رواه مسلم (١٦٢) جزءاً من حديث طويل ، وأحمد (١٣٦٣٦) المسند بلفظ « **أعطي يوسف ــ عليه السلام ــ شطر الحسن** » .

وراثة النبوة، وهو يعلم منه أنه المهيء والمعد من الله، لحمل المهمة العظيمة في آل يعقوب، مهمة النبوة والرسالة، وهو عليه السلام يراعيه ويربيه أحسن التربية، لذلك ومع هذا، فقدر الله نافذ، وأمره غالب، ورحمته بعبده أعظم من رحمة الأم والأب لولدهما .

وسبحان الله كيف كان غياب يوسف عن أبيه، سببًا في رفعته وملكه، وكيف كان حفظ الله له في غيابه عن أبيه، أعظم من حفظه له في كنفه، وكيف كانت تربية الله له بعيداً عن توجيهات أبيه، أكمل وأتم مما كان يريده يعقوب له ويقدر عليه، فليفوض العبد أمره لربه، وليتوكل عليه في حفظ نفسه وأهله، وولده وماله وشأنه كله، وصلاحه وفلاحه في الدنيا والآخرة، فهو خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، فما يظنه العبد ضرراً، يجعل الله فيه أعظم النفع، وما يحسبه نقصًا، يجعله الله سببًا للكمال، وما يراه ضياعًا أو سببًا للضياع، يجعله الله حفظًا وسببًا له، فلنحسن الظن بالله فهو أكرم الأكرمين، وهو لا يسوء عبده المؤمن إلا ليَسُرَّهُ، وما يحرمه إلا ليعطيه، وما يبتليه إلا ليكرمه ويعافيه .

وأما خوف يعقوب عليه السلام على يوسف من الذئب، فهو خوف طبيعي لا ذم فيه ولا نقص، طالما كان مع كمال التوكل، وقد كان من يعقوب عليه السلام، وهذا الخوف دافع لأخذ أسباب الحذر والحيطة، وسبحان الله أخذ يعقوب بالأسباب، ولكن الحذر لا يغني من القدر، وتلقف أبناؤه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم الكاذب، وحجتهم الزائفة فيما صنعوا بأخيهم، وفي قولهم: ﴿**قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ**﴾ تلمح تكرار تكلمهم بلفظ: ﴿**وَنَحْنُ عُصْبَةٌ**﴾ هنا، ومن قبل ذلك في قولهم: ﴿**لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ**﴾، فهو يدل على شعورهم المتزايد باجتماعهم وإعجابهم بأنفسهم، وهذا الأمر من أخطر الأمراض النفسية القلبية التي تعرض للتجمعات، أن يرى الأفراد

المجتمعون على أمر واحد، استحقاقهم للتميز على غيرهم لمجرد اجتماعهم، ولو تأملنا الحركات العنصرية والعصابات الإجرامية عبر الزمان والمكان، لوجدنا من أعظم أسباب استمرار الإجرام والفساد، هذا الشعور بالقوة والاعتزاز بالجماعة، بل الدول الظالمة، بقاؤها وبطشها وقهرها لغيرها، مبنيٌّ على هذا الشعور، والإنسان مدني بطبعه يميل إلى الإجتماع، فإما أن يكون اجتماعًا على الخير والتعاون على البر والتقوى، فيكون مأموراً به، يسدّ الحاجة الفطرية في الإنسان إلى الاجتماع، وإما أن يكون اجتماعًا على الشر والتعاون على الإثم والعداون، فيكون وبالاً على العباد والبلاد، وهلاكاً للحرث والنسل، وهل قامت الحروب الكبرى كالعالميتين، إلا بسبب هذه (العصبية) الجاهلية ؟ وهل تسلط اليهود على أكثر الأمم والشعوب، إلا نابعاً من هذا المرض ؟ فلا بد من الحذر من هذا المرض لدى الجماعات البشرية المختلفة، ولا بد من سد الحاجة الإنسانية إلى الاجتماع بضبطه بالبر والتقوى، لا بإلغائه فإنه مصادم للفطرة، لا بد أن تضمحل الدعوة إليه، فليس علاج المريض بقتله، ولا علاج تضرره بكثرة الأكل، بمنعه من الأكل بالكلية، ولكن بالقصد والتوسط في الأمور كلها .

يوسف عليه السلام في محنة الجب

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾.

قال ابن كثير - رحمه الله -: « يقول الله تعالى فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخال للسرور عليه، فيُقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمَّه وقبَّله ودعا له، وذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب (البئر) الذي اتفقوا على رميه فيه، فربطوه بحبل ودلَّوه فيه، فكان إذا لجأ إلى واحدٍ منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال له الراغوفة فقام فوقها. » أ.هـ.

تبكي العين ويتوجع القلب على ما جرى ليوسف من إخوته، هذا الطفل الجميل البريء الطاهر النجيب الذكي الزكي الكريم، يُلطم ويُشتم ويُضرب ويُلقى في البئر، يغمره الماء بلا ذنبٍ ولا جريرةٍ إلا حسد إخوته على تفضيل الله له في قلب أبيه، وحُقّ له أن يُفضّل، ماذا يصنع الحقد بالإنسان ؟! وما هذه القسوة العجيبة وقطيعة الرحم وانعدام البصيرة ؟! كيف كان شعور يوسف الطفل الصغير، وهو يحاول التشبث بحافات البئر لئلا يقع فيه، فتضرب يده ؟! وكيف ظنه بما عساه يكون قد فعل لإخوته، وهو يلجأ إليهم واحداً بعد واحد، فيلطمه

ويشتمه ؟! وكيف كان شعوره حين انصرفوا عنه وتركوه، وجاء عليه الليل وحده، بلا أنيسٍ ولا جليسٍ ولا ضوءٍ إلا ظلمة الليل وظلمة البئر، البعيد عن الدار والأب الحنون والأم المشفقة والأخ الوحيد الرفيق في الإخوة بنيامين ؟! وما هو المصير المجهول الذي ينتظره بعد ذلك ؟! لولا رحمة الله ويسره الذي أنزله في هذا العسر لشديد، ولولا الأمن والسكينة التي أنزلها في قلبه، لمات يوسف خوفًا ورعبًا وجزعًا وهمًا وحزنًا، لكنها رحمة الله الواسعة ونعمته السابغة ورأفته العظيمة .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول ابن كثير – رحمه الله –: « يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر، أنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطييبًا لقلبه وتثبيتًا له إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع »أ.هـ.

سبحان الله ! كان إلقاء يوسف في البئر إلى أسفل، فجعلها الله بكرمه سُلَّمًا إلى الرفعة والعلو، أرادوه أن يكون أسفل، فجعله الله أعلى منهم، فوقهم بمراتب عالية لا تدرك، أرادوه إلى إهانة، فجعله الله إلى إكرام، أرادوه إلى خوف وفزع، فجعله الله في أمن وسكون، أرادوه إلى وحشةٍ وانقطاعٍ، فكان الوحي من الله أنيسه وجليسه، اللهم لك الحمد كما تقول وخيرًا مما نقول، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، أنت جبار قلوب المنكسرين إليك، وأنت الغالب على أمرك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

والذي يظهر والله أعلم أن الوحي إلى يوسف في تلك الحال، كان وحي إلهام، لأن يوسف لم يبلغ بعد، بل كان غلامًا والأنبياء رجال، والبلوغ شرط في النبوة، كما دل عليه القرآن: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٣]، فيكون هذا الوحي مما يصح وقوعه لعموم المؤمنين، فهو بشارة لكل مظلوم مُلقى في ظلمة وخوف وإذلال وعسر، بالنور والأمن والعز واليسر بفضل الله الكريم المنان، وعلى قدر الإيمان يفتح الله للقلب من أسباب الخير والرحمة، ويلهم من أسباب الطمأنينة والسكون .

وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ فسره العلماء على وجهين، الأول: أنه متعلق بـ(أوحينا) أي: لا يشعرون بإيحاء الله إليه، وهو قول مجاهد وقتادة، والثاني: أنه متعلق بـ(لتنبئنهم) أي: ستنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون أنك يوسف ولا يعرفونك، وهو منقول عن ابن عباس، والأول أظهر إن شاء الله .

مكر وخداع وكذب

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ .

تمتع إخوة يوسف بقدرة غريبة على الخداع والمكر، إن دموع الإنسان من أصدق مظاهر التعبير عن ما في نفسه، خصّ الله الإنسان بها من بين الكائنات الحية الأخرى، فحين يستعملها في المكر والخديعة، وإظهار خلاف ما يبطن، يكون في أحطّ المنازل، قلوب إخوة يوسف تضحك طربًا وسرورًا على نجاح الخطة الظالمة – التي هي في الحقيقة فشل ذريع – وعيونهم باكية أمام أبيهم الشيخ الكبير ذي الحرمة والفضل، وألسنتهم تقرع سمعه بأشق خبر يمكن أن يسمعه ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ ، خبرٌ وقعه كالصاعقة بل والله أشد على قلب الأب الحنون، الشفيق المحب لأنجب أولاده وأفضلهم عند الله وعنده، وإذا كان الذئب قد أكله – بزعمهم – فلن يعود ثانيةً، وقد قطعوا على أنفسهم طريق العودة في الكذبة التي كذبوها، فلو قالوا مثلاً: « تاه منا في الطريق »، « ضلّ وهو يلعب »، أمكن أن يعودوا فيقولوا: « وجدناه، عاد »، لكن ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ ما أقسى قلوبهم حين واجهوا أباهم بمثل هذه الكذبة، التي حاولوا ترويجها على أبيهم بإثارة شفقته عليهم لأنهم أبرياء صادقون، لكن لا يصدقهم أبوهم لموقفه السابق منهم، المتحيز ضدهم – في زعمهم – .

قال ابن كثير – رحمه الله –: « وقولهم ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ تلطفٌ عظيمٌ في تقرير ما يحاولونه، يقولون ونحن نعلم أنك لا تصدقنا، والحالة هذه لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك لأنك

خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا . » أ.هـ.

وقد كثر استدلال الكثيرين بهذه الآية على أن الإيمان هو التصديق، فالمرجئة يقولون هو التصديق لغةً وشرعًا، ومن أهل السنة من يقول هو التصديق لغةً بدلالة هذه الآية، وشرعًا هو قولٌ وعملٌ، والصحيح أن الآية لا تدل على ما ذهبوا إليه، إنما تدل على أن أحد معاني الإيمان هو التصديق، ولا يلزم من ذلك أن يكون هو المعنى الوحيد له، فإن لفظ الإيمان يحتمل معانٍ أخرى من الأمن والسكون إلى أمر غيبي، ويشمل معنى الخضوع والانقياد، ولهذا يُعَدَّى فعل (آمن) بالباء واللام، و (صدَّق) يتعدى بنفسه وبالباء ولا يكاد يُعَدَّى باللام، ولذا فليس التصديق مرادفًا للإيمان من كل وجه لغةً، وعلى أي حال فالإيمان شرعاً: قول وعمل ونية، يزيد وينقص كما هو مقرر بأدلته في موضعه .

الصبر الجميل

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ .

قال ابن كثير - رحمه الله -: « ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي: مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة (وهي ولد الشاة من المعز والضأن) فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد، فذبحوها ولطخوا ثياب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ، فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب المحال . » أ.هـ.

أمر آخر من علامات قسوة قلوبهم على يوسف، أنهم نزعوا قميصه وتركوه بلا قميص، ليستعملوا قميصه في ترويج كذبهم على أبيهم، ولكن الله فضحهم عند أبيهم بنسيان تخريقه، فكان هذا الأمر من التيسير على يعقوب عليه السلام مع العسر الذي نزل به بخبر أكل الذئب ليوسف، فقد أيقن أن الأمر ليس كذلك، وأن هناك أمرٌ مدبر، فحصل له بذلك نوع طمأنينة أن يوسف لم يمت كما زعموا، ازداد إلى ما عنده من اليقين بوعد الله في يوسف، وما يعلمه من الله، وهم لا يعلمون أنه العليم الحكيم اللطيف الخبير، الذي يجتبي من يشاء، وقد

علم من الله أن يوسف لا بد أن يعلو على إخوته، ويرفعه الله فوقهم كما دلت عليه رؤيا يوسف، ويعلم أنه الذي يرث النبوة من آل يعقوب، فلا بد من أن يكون أمر غير ما ذكروه كذبًا وزوراً، وهنا يظهر كمال اليقين بوعد الله، وإن كانت الأسباب الظاهرة لحصوله منعدمة، أو تبدو للمتأمل تسير في عكس الطريق، ولكن سنة الله سبحانه لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، وعد الله لا يُخلف، وهو عز وجل يبتلي عباده بمثل هذه المحن، وانعدام الأسباب الظاهرة أو كونها عكس الطريق، ليستخرج من عباده عبودية الصبر والتوكل واليقين، ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ بلا جزع في القلب ولا شكوى لغير الله ولا عمل بالجوارح يدل على السخط، ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ المتوكل عليه في جلب المنافع ودفع المضار وإنفاذ وعده لعبده، فمهما أظلمت الدنيا في نظرنا، فبالصبر واليقين يأتي النور والفرج من عند الله، وتنال الإمامة في الدين، ومهما سُدَّت الطرق، فالفتح آت والنصر قريب، وقال تعالى عن الرسل: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وما أجمل تمثل عائشة رضي الله عنها وهي متهمة بريئة مظلومة، في محنة قصة الإفك بهذة الآية، قالت: « **والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾** »(١)، وما أجمل عاقبتها في ذلك حيث برأها الله من فوق سبع سماوات، بكلامه الذي يتلى إلى يوم القيامة، فعلى العبد إذا أعيته الأسباب وضاقت عليه السبل، أن يكثر من هذا الذكر الجميل ويصبّر نفسه، ويذكّرها بمنزلة عبادة الصبر وعبادة التوكل والاستعانة بالله – عز وجل –، فهو إنما ابتلي ليرى الله منه ما يحب من أنواع العبودية، ثم تكون له العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، فاللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأنت ربنا الرحمن المستعان على ما يصف أعداؤنا أعداء الدين .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

يوسف يُباع رقيقًا

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾ .

ظاهر السياق - والله أعلم - أن إخوة يوسف عادوا إلى البئر مرة أخرى، بعد كذبهم على أبيهم لينظروا ماذا يَصنع وماذا يُصنع به، فيسّر الله تعالى مرور قافلة سائرة على الطريق، فأرسلوا من يستقي لهم الماء وهو واردهم، فأدلى دلوه في البئر، فتشبث يوسف بها، فأخرجه واستبشر به وقال: ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾، فعند ذلك أَسَرَّه إخوته بضاعة، أي: كتموا أن يكون أخاهم، وزعموا أنه بضاعة يُباع، فباعه إخوته بثمن بخس دراهم معدودة، لا موزونة لعيبها ونقصها، وكانوا زاهدين فيه ليس لهم فيه رغبة، فالضمير في ﴿ أَسَرُّوهُ ﴾ و﴿ شَرَوْهُ ﴾ أي: باعوه، يعود على إخوة يوسف وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، والقول الثاني أن الضمير يعود على السيارة فيهما، أي: أن الواردين أسرّوه عن بقية السيارة، وقالوا اشتريناه من أصحاب البئر، ثم باعوه بثمن بخس، والأول هو الصحيح الظاهر، فإخوته هم الذين باعوه بالثمن البخس، فأما من اشتراه من السيارة فكانوا مستبشرين، ولم يكونوا فيه من الزاهدين، والدليل على ذلك أنهم باعوه لعزيز مصر، وإذا أردت أن تعرف قيمة سلعة فانظر من يشتريها، فإذا كان الملوك هم الذين يشترونها فهي غالية، فمثل يوسف في جماله الظاهر لا يُزهد فيه، وإنما زهد فيه إخوته لحسدهم وحقدهم وحرصهم على التخلص منه، فالذي يظهر أن إخوة يوسف هم الذين باعوه عبدًا رقيقًا بضاعةً تباع، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وقد كتم أمره ولم يبح بسره، خوفًا على نفسه من الهلاك في البئر، أو قتلاً بيد إخوته بعدما رأى ما رأى منهم، فبلاء أهون من

بلاء، وظلم أقل من ظلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا كان بيع الحر جريمة كبيرة من الكبائر، كما قال النبي ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجلٌ باع حراً وأكل ثمنه...**»[(١)] الحديث، رواه البخاري، فكيف بمن يبيعون أخاهم ابن أبيهم من صلبه؟ فكيف إذا كان أكرم الناس يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن اسحق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله.

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ في هذا السياق لنستحضر أن الله سبحانه مطّلع على هذا الظلم والإجرام والعدوان.

قال ابن كثير - رحمه الله -: «أي عليم بما فعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ، وإعلام له بأنّي عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكن سأملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.» أ.هـ.

فإذا تألمت أيها المظلوم الأسير لذل الأسر وهوانه، ولفراق الأهل والأحبة والأوطان، فلك السلوى عن ذلك في ذكرى يوسف عليه السلام، وهو يباع بالثمن البخس الدون القليل، وليس هذا بالذل الحقيقي والهوان الحقيقي رغم ما يبدو للناس من ذلك، فإن الذل الحقيقي هو في طاعة الشيطان وعبوديته وهو العدو اللدود، فلهَوانِ العصاة والكفار على الله جعلهم عبيداً لعدوه، وحرمهم شرف السجود والعبودية له، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ**

---

(١) رواه البخاري (٢٢٢٧) البيوع بلفظ «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه حقه**»، وابن ماجة (٢٤٤٢) الأحكام، وأحمد (٨٤٧٧) باقي مسند المكثرين.

مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] .

فالمهان هو من لم يسجد لله، والذليل هو من ذلّ لعدوه الذي يريد إهلاكه أبدًا، وأنت عزيزٌ بطاعة الرحمن ومعصية الشيطان، ولو باعك إخوانك في النسب أو الوطن أو القومية أو غير ذلك، بالثمن البخس الذي يقبضونه من أعداء الإسلام، ووالله لا يُمتّعون به إلا قليلاً، وهو مشوب بالنغص والألم والشقاء، وهل يريد الشيطان بالإنسان إلا ذلك ؟! لو باعوك فلا تحزن، ولك الأسوة في يوسف الكريم على الله – عز وجل –، فلا تَهُن نفسك لانقيادك الظاهر في أيديهم، فكذلك سار يوسف مع مشتريه، وأُوقف صامتًا عن أمره، كاتمًا حاله في سوق الرقيق، مع جماله الظاهر والباطن، ومنزلته عند ربه، ثم كانت له العاقبة على من باعه .

فاصبر أيها المظلوم فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، واصبر فإن العاقبة للمتقين، والله يعلم حالك ويرى مكانك، ويعلم ما يفعل الظالمون، وهو لا يحب الظالمين ولا يرضى بالظلم، ولكنه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وعلّق قلبك بالله ربك، واستحضر آثار أسمائه وصفاته، فهو الذي يدبر بعلمه وحكمته، ولا تستعجل للظالمين فإن لهم أجلاً لا يتعدونه، وهم لا يُعجزون الله – سبحانه وتعالى –، وإذا آلمك وآذاك قيدٌ أو وثاق، فإليك قول مجاهد عن يوسف وإخوته: « لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم استوثقوا منه لا يأبق، حتى وقفوه بمصر، فقال: من يبتاعني وليبشر، فاشتراه الملك (يعني العزيز) وكان مسلمًا . » أ.هـ. والله أعلم بإسلامه ولكن الوثاق في حالة الرق والسفر بالرقيق معهود لمنع الإباق، فالإخوة هم الذين طلبوا من السيارة وثاقه طول السفر، فلا تجزع ولا تقل ربي أهانن، وانظر إلى حال طاعتك في أسرك ووثاقك، فإن كنت مطيعًا فأبشر، وإن كنت مفرطًا فاستدرك، حتى لا يفوتك العز الحقيقي .

تمكين في بيت العزيز

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ .

سوق الرقيق واسعة، والمشترون متنوعون مختلفون، والغالب على الرقيق الذل والإهانة، والتكليف من الأعمال بما لا يبقى معه وقت لفكر ولا علم، وكان من الممكن أن يقع هذا ليوسف عليه السلام، يشتريه من لا يعرف قدر الناس، ولا يتفرس في مقاديرهم، وكم من الناس عنده هذه الفراسة ؟ أقل القليل في أهل الإسلام، فكيف بأهل الكفر والفسوق والعصيان ؟! لكن قدر الله النافذ، وأمره الغالب، ولطفه الخفيّ بيوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، أسبق من كل الاحتمالات، وأكبر من غالب الظنون، فقدّر سبحانه برحمته أن يشتريه عزيز مصر، وأن يُلقي الله في قلبه إكرامه ومحبته، حتى يفكر في اتخاذه ولداً، وأن يتفرس فيه النفع، قال ابن مسعود رضي الله عنه: « أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته أكرمي مثواه ، والمرأة التي قالت لأبيها ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ... ﴾ الآية [القصص:٢٦] ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه » (١).

فاللهم لك الحمد كما تقول، وخيراً مما نقول، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

يقدر – عز وجل – إلقاء يوسف في الجبّ وبيعه رقيقًا، وبُعده عن أبيه وحنانه وتربيته وتعليمه، ليترك يوسف البدو إلى الحضر، وحياة الشدة والحقد والحسد من الإخوة، الذين لا يدخرون الوسع في الكيد، إلى حياة السعة

---

(١) صحيح : أخرجه الحاكم (٣٣٢٠) التفسير، وقال عنه هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

والقصور والراحة والتقدير والاحترام، ويعوضه الله عن حنان أبيه، بحنان هذا الرجل العزيز الذي يربيه كولده راجيًا نفعه، وإذا أمر عزيز مصر بإكرام مثواه، وهم أهل الرفاهية الذين ربما خَدَمُهم وفقراؤهم في رفاهية أشد من أكثر البدو، فكيف يكون إكرام من يعامله العزيز وامرأته كابنهما ؟ وأبدله الله بتعليم أبيه يعقوب، تعليم الرب سبحانه، وإيتاءه إياه الحكم والعلم، والحكم: هو الفهم في الدين والعمل به، وقال ابن كثير: « يعني النبوة » أ.هـ. حباه الله بها بين أولئك الأقوام، فالله عز وجل لا يغالب، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، لو بقي يوسف عند أبيه، لما حصل له من هذا الخير ما حصل، وإذا حرم الله عبده المؤمن شيئًا، عوضه خيرًا منه أو مثله، وتأمل ذكر فعل الرب سبحانه وصفاته وربط الأحداث بذلك، وهذا من أعظم ما يميز قصص القرآن، ويجعله مختلفًا تمامًا عن أي قصص آخر، فإنما تستفاد المعاني الإيمانية والمعارف الربانية الإلهية من خلال مشاهدة آثار الأسماء والصفات والأفعال، وهذا متكررٌ في كل أجزاء القصة تقريبًا، تجد في هذا الموضع ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** ﴾ أي: تأويل الرؤيا الذي ما كان يمكن أن يكون إلا بتيسير الله المثوى الكريم ليوسف، ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ** ﴾ فإخوة يوسف أرادوا إهانته وأراد الله إكرامه، فغلب الله الخلق على أمره عز وجل، ونفذ أمره واضمحل أمرهم وإرادتهم، وهذه قاعدة كلية عامة ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾، فكل صراع بين الحق والباطل والخير والشر، يريد أهل الباطل فيه إزهاق الحق وإبطاله، فيحق الله الحق بكلماته، ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا، يريد أهل الكفر أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله غالب على أمره، فيتم نوره ولو كره الكافرون، يريدون أن لا يظهر دين الله، والله غالب على أمره، فيظهر الله دينه على الدين كله ولو كره المشركون، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله وقدرته وعزته، وأنه الفعّال لما يريد .

وقوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ** ﴾ أي: كما أنجينا يوسف من إخوته

مكنّا له في أرض مصر، وقوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ كل هذا من أفعال الرب سبحانه وصفاته وسننه في خلقه، وتلحظ توجيه القلوب إلى آثار الأسماء والصفات والأفعال، فيما مضى من القصة من أول كلام يعقوب عليه السلام ليوسف كما سبق بيانه، وتعليمه إياه أنّ ربّه عليم حكيم، وفي ذكر إلقاء يوسف في الجب، ذكر الله إيحاءه إليه بأنه ينبئهم بأمرهم هذا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾، وفي ذكر بيعهم له للسيارة قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، وفيما يأتي في القصة مزيد من ذلك، ففي ذكر ما وقع بينه وبين امرأة العزيز قوله تعالى: ﴿لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، وفي مواجهة التهديد بالسجن قال عن يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾، ودعوة يوسف لصاحبيه في السجن، كلها ذكر أسماء الله وصفاته وربوبيته وألوهيته وآلائه ونعمه، وفي جواب يوسف لرسول الملك لما جاءه بعد تأويل الرؤيا قال: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، وفي ذكر مُلك يوسف أرض مصر قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ولعلّه يأتي المزيد من ذلك إن شاء الله في تضاعيف القصة .

والشاهد من هذا، أن المؤمن لا بد أن يلحظ من الأحداث التي تقع أمامه، أن الله الذي يدبر الأمر، وأن كل ما يرى من أمور، هو أثر من آثار أسماء الله وصفاته وأفعاله، فيتعلق قلبه بالله وحده، ويصغر الخلق في قلبه، ولا يغرره تقلب الذين كفروا وظلموا في البلاد، فلله غيب السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وعبده المؤمن يعبده وحده، ويتوكل عليه وحده، ويوقن أن الخير كله بيده، والملك كله بيده، ويبتعد عن سبيل أكثر الناس الذين لا يعلمون، لا يعلمون إلا

ظاهراً من الحياة الدنيا، فيظنون أن الأمور بأيدي الخلق، وأنهم مستقلون بأفعالهم، وذلك لأنهم لم يعلموا الآيات المتلوة، ولم يفقهوا الآيات المشهودة، مع أن تفكراً يسيراً في الكون وما فيه من موتٍ وحياةٍ، وإعزازٍ وإذلالٍ، وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، يجعل العاقل يقطع أن البشر لا يملكون شيئاً، ولا يستقلون بأفعالهم، بل لا بد أن يجعلهم الله فاعلين مالكين، فلا حول ولا قوة إلا بالله، كيف لا، وكل واحد منهم كان نطفة من منيٍّ يمنى، كان شخصياً حيواناً منوياً من مئات الملايين من الحيوانات المنوية، التي أمناها أبوه في رحم أمه (في المرة الواحدة من الإمناء حوالي من ٢٠٠ مليون إلى ٦٠٠ مليون حيوان منوي)، لو سبق حيوان غير الذي سبق إلى البويضة لكان إنساناً آخر بصفاتٍ أخرى، بقدرات عقلية وسمعية وبصرية وبدنية ونفسية أخرى غير التي هو عليها، كيف لا، وقد خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل الله له السمع والبصر والفؤاد، كيف لا، وقلبه الذي ينبض فيجري الدم في عروقه إلى كل أجزاء جسمه، لا يملك أن يجعله ينبض أو يقف، لو توقف عن النبض لمات الإنسان في لحظة، لو توقف جريان الدم عن أي عضو من أعضائه لتعطلت قدرته ومنافعه .

فالإنسان مغلوب على أمره حتماً، والله غالبٌ على أمره، قاهرٌ فوق عباده، لا يملك من دونه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، هو سبحانه رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم، فالق الحب والنوى، ما من شئ إلا هو آخذ بناصيته، الأول الذي ليس قبله شئ، والآخر الذي ليس بعده شئ، الظاهر الذي ليس فوقه شئ، والباطن الذي ليس دونه شئ، هو الغني والخلق كلهم فقراء إليه، كل هذا – والله – أمر محسوس لكل عاقل، بأقلّ قدرٍ من الفكر، وليس فقط مقتضى الآيات الشرعية المتلوة المنزلة، والأحاديث النبوية

المباركة، وإن كانت الآيات والأحاديث ترشد الفكر والعقل والقلب إلى الحق بأقصر طريق وأيسر سبيل، وذلك لمن تدبّرها واستحضر معانيها بقلبه الحيّ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

فاللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، أغثنا برحمتك ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ سبق ذكر كلام ابن كثير – رحمه الله – أنها النبوة، وقد قال غيره: الحكم: الحكمة، والعلم: الفقه في الدين قبل أن يبعث نبيًا، وهذا أظهر لأن الله تعالى قال: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ فهذا الحكم والعلم يجزي الله به كل محسن، وبالقطع لا يكون كل محسن من المؤمنين نبيًا، فالتفسير بالحكمة والفهم والفقه والعمل أظهر، لأنه القدر المشترك بين الأنبياء وسائر المحسنين، ويخص الله الأنبياء بمزيدٍ من الحكم والعلم لا يناله غيرهم، ولعل هذا – والله أعلم – هو السبب الذي لأجله ذكر القرآن ما آتاه يوسف بالحكم والعلم دون التصريح بالنبوة، لينتفع المؤمنون بما دلهم عليه القرآن من القدر المشترك، فيطلبوه بالإحسان، ولو صرّح بالنبوة لما وَجدت النفوس سبيلاً للتأسّي للقطع بالتخصيص .

وهذه هي طريقة القرآن دائمًا، تذكر أوصاف الأنبياء بالقدر المشترك بينهم وبين المؤمنين لقياس المؤمنين بهم، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) ﴾ [الصافات: ٨٤]، وسلامة القلب يطلبها كل مؤمن، وقال – عز وجل – عن إسحق ويعقوب: ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾ [الأنبياء: ٧٢–٧٣]، فالصلاح والدعوة وفعل الخيرات وإقام الصلاة والزكاة والعبادة، صفات يحرص عليها كل مؤمن، وللأنبياء منها القدر الأعلى .

وقال عن لوط : ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾ [الأنبياء : ٧٥]، فالعلة في إدخاله في رحمة الله أنه من الصالحين، ليس فقط لكونه نبيًا، فكل صالح يدخل في رحمة الله بصلاحه، وقال عن أيوب : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ [الأنبياء : ٨٤]، فبالعبادة ينال العابدون من هذه الرحمة، وقال : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾ [الأنبياء : ٨٥-٨٦]، فالممدوح من صفاتهم - الصبر والصلاح - ممكن لكل عباد الله المؤمنين، وقال عن آل زكريا : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ [الأنبياء : ٩٠]، وكلها صفات ممكن للمؤمنين تحصيلها، وإن لم تكن درجتهم فيها كدرجة الأنبياء .

فهذه طريقة القرآن التي لو تقصيناها لطال المقام، يذكر الله ما آتاه الأنبياء والمرسلين بالأوصاف المشتركة بينهم وبين المؤمنين، ليحث المؤمنين على تحصيلها، لينالوا - بقدرهم - من جنس ما نال الأنبياء والمرسلين، وإن كان لهم من الاجتباء والاختصاص ما لا يدركه غيرهم .

والمقصود أنه بالإحسان - وهو كما فسره النبي ﷺ : « **أن تعبد الله كأنك تراه** » [١]، ينال الإنسان من أنواع الحكمة والفقه والعلم والعمل، فكلما أحسن العبد عبادة ربه، كلما فتح لقلبه عيونًا و عيونًا يرى بها الحقائق، وينكشف له بها منازل الطريق إلى الله، ويعلم بها عيوب نفسه وعمله، فيتلافاها ويستدركها، وأعظم من ذلك وأعظم، يعرف أسماء ربه وصفاته وأفعاله وآلائه، فيزداد بذلك إحسانًا إلى إحسان فـ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : ٦٠]، فاللهم اجعلنا من المحسنين .

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري(٥٠) ، ومسلم(٨) ، والترمذي(٢٦١٠) ، والنسائي(٤٩٩٠) جزء من

ثم هذا الإحسان في عبادة ربه، يحصل له به غنىً في قلبه، يستغني به عن الخلق، فلا يحتاج لمنافستهم على دنياهم، بل يتركها لهم، حتى لو كانت من حقه، ودنياه هو، فهو يربأ بنفسه أن ينافس ويخاصم عليها، فـ(المليونير) – كما يسمونه – إذا وقع منه قروش، فتقاتل الناس عليها، هل يحطّ نفسه للمنازعة عليها والمطالبة بها ؟ بالقطع لا، بل يرتفع عنها ويتركها لهم، لكمال غناه، فيحصل للمحسن بذلك، بذل الفضل، وكف الأذى، واحتمال أذى الناس، ويقوى على أن يدفع بالتي هي أحسن السيئة، ويسهل عليه العفو والصفح، والجود والكرم، وعدم استقصاء الحق، والسماحة، وهذه مظاهر الإحسان إلى الخلق، وقد كان ليوسف من ذلك ما يليق بمقامات النبوة العالية والدرجات الرفيعة، تأمل إحسانه مع صاحبيه في السجن، وحين نساه الذي نجا سنوات، لم يعاتبه بكلمة، ولم يشارطه على قضاء حاجته، بل بذلها مجانًا، وزاد عليها النصح لهم فيما يعملونه، وزادهم من عنده بشارة بالفرج ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾، وتأمل إحسانه وعفوه وكرمه مع إخوته، تجد أن الذي سهّل عليه ﴿ **لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ ، شهوده لفضل الله ومنته ﴿ **قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ ، فمنة الله عليه بالصبر والتقوى والإحسان، فأغناه الله بها، فبذل مظلمته بلا عتاب أكثر من جملة واحدة ﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾ ، لم يزد عليها إلى آخر عمره، ولا كررها على أسماعهم مرة أخرى ﷺ ، وبهذا الإحسان بنوعيه – في عبادة الله ومع الخلق – يقوم أمر العالم ويصلُح، ويهتدي الخلق ويقتدون بسادة المحسنين أنبياء الله الكرام عليهم وعلى سيدهم أفضل الصلاة والسلام .

اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى، وبأنّا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول، أن تلحقنا بهم، وأن ترزقنا مرافقتهم في الجنة .

محنة جديدة

قوله تعلى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾ .

محنة جديدة وابتلاء جديد ليوسف عليه السلام، محنة سببها حياة الرفاهية والشهوات، التي يحياها أهل الملك والسلطان في أغلب الأحيان، وإن كان يوسف في وادٍ، وهم في وادٍ، ولكنهم لا يعرفون من الحياة إلا شهوة البطن والفرج والرياسة والمال وكلام الناس، ونحو ذلك من فتن السرّاء، التي لا يصبر عليها أكثر الخلق، ولما كان العبد حقًا هو الذي يصبر على كل حال، ويعتصم بالله من كل الفتن، ويسلم قلبه من كل تعلق بغير الله، وكانت هذه الدنيا محلاً ليُحَصِّلَ الخلق كمال عبودية ربهم على كل حال، في السرّاء والضرّاء، والعسر واليسر، فيما يحبون وفيما يكرهون، قدّر الله على يوسف عليه السلام – ويقدر على غيره من عباده المؤمنين – مثل هذه الفتنة، نعوذ بالله من الفتن .

يوسف الشاب الأعزب ذو الجمال الخارق والحسن الباهر، يعيش في قصر العزيز مع امرأته التي لم تزل في شبابها وحسنها، وزوجها مشغول في وزارته، بالإضافة إلى تسيب وانحلال في المجتمع كله، وخصوصًا هذه الطبقة المترفة الحاكمة، وكما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية، كان في الرجل نوع دياثة، لتركه امرأته تفعل ما تشاء وتخلو بمن تشاء، ورغم علمه بما وقع منها تركها ثانياً، تفعل ما تشاء وتخلو بمن تشاء، وواضح أيضًا من سياق القصة أن المرأة كانت مسموعة الكلمة، لأمرها شأن، تستطيع الضغط على زوجها وغيره من رجالات الدولة بطريقتها الخاصة، حتى ينفذون ما تريد ولو كان إلقاء البرئ الطاهر الكريم

في السجن بضع سنين، فهي امرأة ذات منصب وجمال، تزينت وتهيأت وغلّقت الأبواب، ودعت يوسف عليه السلام إلى نفسها إلى الفاحشة والعياذ بالله، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فسرها غير واحد من السلف: هلم لك؛ تقول أنا لك، تعال إلى من تُمَلِّكُكَ نفسها، وهي ذات المنصب والجمال، وعلى القراءة الأخرى: هئت لك؛ أي: تهيئت لك. ومعنيا القراءتين متلازمان، فهلم لك وتعال، ملازم لتهيأت وتزينت لك، هو فتاها الذي تملكه في عُرْف الناس، والعادة أن المرأة لا تكون طالبة، ومع ذلك هي تطلبه وتُمَلِّكه نفسها وعرضها له، أيٌّ فتنةٍ أعظم من هذه الفتنة؟ مع شدة حاجة يوسف إلى الأنيس في غربته، وإلى المرأة في عزوبته وشبابه، والأبواب مغلّقة، والخلوة تامة، والرجل حتى لو حضر، فرد الفعل المنتظر لا يهدد بالخطر، ومع ذلك كان الجواب المباشر ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ الالتجاء إلى الله، والاحتماء بجنابه، والتحصن بعصمته، فوالله لا ينجي من هذا الموقف إلا الله سبحانه، لاستعاذة يوسف فأعاذه الله من شر هذه المرأة، وصرف عنه السوء والفحشاء، وصرف عنه شر الشهوة المحرمة، وهذا أقصر الطرق وأيسرها للشباب في مواجهة فتنة الشهوات، التي تطل برأسها في كل مكان، ومجتمعات اليوم شبيهة بالمجتمع الذي عاش فيه يوسف عليه السلام، في الاختلاط المحرم، والخلوة المحرمة، وصعوبة الزواج، وتبرج النساء وتزينهن، بل وعرضهن أنفسهن في الحرام، كل ذلك كان موجوداً بعينه في قصة يوسف، وكان المخرج من هذه الفتنة هو؛ الاستعاذة والالتجاء إلى الله سبحانه، وتحقيق الإخلاص ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، فعلى القراءة بكسر اللام ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ اسم فاعل، فالإخلاص فعل العباد، فإرادة وجه الله وحده، وابتغاء ما عنده، من أعظم أسباب صرف السوء والفحشاء عن العبد، وهذا مع الاستعاذة التي هي أولاً؛ شهود لتدبيره عز وجل للكون وما فيه، وأنه الملك الذي يحمي

من شاء ممن شاء، ثم هي لجوءٌ إليه وفرارٌ إليه، وطلب الحماية منه، فهي من الاستعانة به والتوكل عليه، فبالإخلاص يحقق العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وبالاستعاذة يحقق العبد ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فعند ذلك يهديه الله الصراط المستقيم .

وعلى القراءة الأخرى ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ - بفتح اللام -، فهم الذين أخلصهم الله لعبادته، فالمعنيان متلازمان، لأن تخليص الله لهم، إنما هو ليحققوا عبادته وهي الإخلاص، ولكن على قراءة ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ - بفتح اللام - يكون الشهود لفضل الله ومنته هو الأصل، فهي في معنى ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وعلى قراءة ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ - بكسر اللام - يكون شهود إفراد الله بالإخلاص وتوحيد العبادة هو الأصل، فهي في معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وكلا الأمرين ضروري ولازم للعبد، وهما متلازمان ؛ لا يحصل إخلاص إلا بتوفيقٍ منه - عز وجل -، ولا تحصل الإعانة إلا لعبدٍ توجّه إلى الله بقصده، وأراد وجهه، وهو الأول والآخر سبحانه وبحمده، يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وكلا القراءتين صحيح متواتر ونزل بهما الوحي، ليعلم العباد ضرورة الإخلاص والاستعانة واللُجأ إلى الله سبحانه، وإنما تملأ الشهوات القلب إذا خلا من إرادة وجه الله ومحبته والإخلاص له، أو إذا خلا من الاستعانة به واللجوء إليه، أمّا إذا امتلأ قلب العبد بالإخلاص والاستعانة، فإنه يطرد الشهوات المحرمة، ويمدّه الله بتوفيقه وحفظه، ويصرف عنه شر خلقه ونفسه وشيطانه، ويدحر عنه جيوش الظلام والفساد، فلا تجد إليه مدخلاً، وإنما تتمكن هذه الجنود من الدخول إلى القلوب الخاوية من عبادة الله ومحبته، فحب الله وإرادة وجهه هو الدواء الشافي من هذا المرض العضال، الذي يملأ المجتمعات، ويدمر القلوب والإرادات، ويؤدي إلى انتشار الفواحش والمنكرات، وليحذر الشباب على أنفسهم من محاولات التبرير والاعتذار، بأن الشهوات هي التي تفرض نفسها، وأن الحلال سبله قد ضاقت،

فيوسف كان في نفس الظروف، واحذر أن يقول لك الشيطان؛ إنه نبي، وأنت لست كذلك، فالله – عز وجل – لم يعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من (النبيين)، بل قال: ﴿ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾، فهي إذًا لكل مخلصٍ لله سبحانه، وليس في الخروج عن هذه الصفة (الإخلاص) إلا الوقوع في شباك إبليس وغوايته ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [ص: ٨٢–٨٣]، فليس هناك إلا طريقان: الإخلاص وفيه يصرف الله عن العبد السوء والفحشاء، والطريق الآخر إغواء إبليس والوقوع في السوء والفحشاء، عياذًا بالله من ذلك، فاختر لنفسك أحد الطريقين، تصل إلى أحد المصيرين .

وأمر آخر أرشد إليه القرآن، إذا استحضره العبد، سهل عليه ترك الفاحشة ومقدماتها، وهو تذكر حقوق المخلوقين التي تُنتهك بفعل الفاحشة، قال تعالى: ﴿ **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾، والرب هنا بمعنى السيد، وكان هذا في شريعتهم، وقد ورد النهي الصحيح الصريح عن النبي ﷺ من قوله: « **لا يقل أحدكم ربّي، وليقل سيّدي ومولاي** » (١)، فهذا اللفظ مكروهٌ شرعًا في شرعنا، وإنما استعمله يوسف عليه السلام على ما جرت به لغتهم، ولم يكن منهيًا عنه في شرعهم، والغرض المقصود أن يوسف ذكّر نفسه والمرأة بحق زوجها، وأن الإحسان يقتضي الإحسان، وأن مقابلة الإحسان بالإساءة ظلم، وأن الفاحشة من الظلم والخيانة، والحق أن هذه المسألة من أعظم الأدوية لهذا الداء، لو استحضره العبد كما صح عن النبي ﷺ استعماله للشاب الذي استأذنه في الزنا، فقال: « **أتحبه لأمك ؟** »، قال: لا، قال: « **فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لأختك ؟ أتحبه لابنتك ؟ ....** »(٢) الحديث، فإذا علم الذي

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٥٢) العتق، ومسلم (٢٢٤٩) الألفاظ من الأدب غيرها جزء من حديث بلفظ « **لا يقل أحدكم أسق ربك أطعم ربك وضيء ربك وليقل سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم عبدي أمتي وليقل فتاي فتاتي غلامي** »، وأبو داود (٤٩٧٥) الأدب، وأحمد (٢٧٤١٤) باقي مسند المكثرين.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢١٧٠٨) باقي مسند الأنصار من حديث أبي أمامة، ورواه آخرون، و صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٠) .

يقدم على الفاحشة ومقدماتها، أن عليه – بعد حقّ الله تعالى – حقًّا للمخلوقين، من أهل هذه المرأة، من أب وأخ وزوج وابن وأقارب، يتضررون أعم الضرر من هذه الفعلة، وأنه لا سبيل للتحلل منها غالبًا، فإنه يمتنع من فعل الفاحشة ومقدماتها، فالزنا وإن كان اعتداءً على حقّ، هو في الأصل حق لله – سبحانه –، إلا أنه يتضمن أيضًا حقوق المخلوقين المذكورين، ورضا المرأة لا يُسقط حقّهم بحال، فهو ظلم وعدوان عليهم حتى ولو رضيت، فإذا كانت مغتصبة، كانت الجريمة أفظع وأفظع والعياذ بالله، وهذا من أعظم الزواجر عن ارتكاب هذه الفواحش، لمن كان في قلبه الإيمان بالله واليوم الآخر، يعلم أنه موقوف بين يدي الله غداً للحساب، ويقف خصومه الذين ظلمهم في عرضهم، يأخذون من حسناته حتى يرضوا، وما الظن في غيظ من انتُهك عرضه، هل يُبقي من حسنات خصمه شيئًا ؟! نسأل الله العافية .

وأمر **ثالث** : وهو شهود عدم فلاح الزاني ومرتكب الفاحشة ومقدماتها في مقاصده ﴿ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾، وهذه عقوبة إلهية في الدنيا والآخرة، يتولاها – عز وجل – بقضائه وقدره بين العباد، حتى لو لم يلتزموا إقامة الحدود والحقوق وضيّعوها، فالظالمون – ومنهم الزناة والزواني – لا يفلحون ولا ينجحون في مقاصدهم، ويبوءون بالفشل في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولذلك يحرص أعداء الإسلام على نشر الفواحش بين المسلمين، ليسهل الطريق عليهم في هزيمة المسلمين، فهزيمة الأمة أمام شهواتها، مقدمة لهزيمتها في معارك القتال، ولقد جرّب المسلمون عبر التاريخ، أثر انتشار الفواحش في مجتمعاتهم، في تسلط العدو عليهم، والعكس بالعكس، فانتشار العفة والطهارة، من أسباب النصر والتمكين، ولنتنبه أن آية التمكين هي في سورة النور : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ**

لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥]، فالفرد والأمة معلقٌ صلاحهم بتجنب الظلم والفواحش، نسأل الله أن يجنب أمتنا الفواحش والفتن، وأن ينصرها على عدوها، آمين .

استعمل يوسف عليه السلام في حواره مع المرأة أنواع التذكير والوعظ، عساها ترجع وتنزجر، ولكن أنّى لها التذكر والاتعاظ، والقلب خاوٍ من الإيمان وحلاوته، والعقل محجوب عن رؤية العواقب وخطرها، والنفس الأمارة بالسوء متربعةٌ على عرش القلب، والشهوة مسيطرة في هذه اللحظات الحرجة، مع إغلاق الأبواب، والخلوة المحرمة، والزينة الكاملة، والمعشوق غاية في الحسن والجمال، فهذه لحظات يبلغ الضعف الإنساني مداه، ولذا كان من ينتصر فيها على نفسه وشيطانه في ظل الله – عز وجل – كما قال رسول الله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : « **ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال اني أخاف الله . . .** » الحديث (١) .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٤٢٣) الزكاة ، ومسلم (١٠٣١) الزكاة ، والترمذي (٢٣٩١) الزهد ، والنسائي (٥٣٨٠) أداب القضاة ، وأحمد (٩٣٧٣) باقي مسند المكثرين ، ومالك (١٧٧٧) الموطأ .

عفة وإخلاص

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

قال – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ فأكد همّها بـ ﴿ قد ﴾ ولم يستثن، وهمّها مقترن بأخذ ما تقدر عليه من أسباب، ولذا كان عزمًا تحاسب عليه، لأن امتناع الفعل كان لأمرٍ خارجٍ عن ارادتها وقدرتها، وليس تركًا لله – عز وجل –، والأدلة قاضية بأن الإنسان إذا أراد شيئًا من خير أو شر، وعزم عليه، وأخذ ما يقدر عليه من أسباب، حوسب على هذه الإرادة، كما في قصة أصحاب الجنة : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ [القلم : ١٧] أي : ليقطعنّها ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ ، ﴿ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم : ١٨]، فعوقبوا على عزمهم عدم إعطاء المساكين قبل أن يتمكنوا من الجزاء، وفي الحديث الصحيح : « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال إنه كان حريصًا على قتل صاحبه** » (١) .

وفي الحديث الصحيح الآخر : « **ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علمًا** » الحديث، وفيه « **ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علمًا فيقول لو أن الله أعطاني مالاً لعملت فيه مثل ما يعمل فلان فهما في الوزر سواء** » (٢)، وإنما يتجاوز الله عن حديث النفس إذا كان بغير عمل – أيّ عمل – أو كلام، كقول النبي ﷺ : « **إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت بها أنفسها، ما لم تعمل به أو تكلم** » (٣) .

[رواه مسلم] .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣١، ٦٨٧٥) ، ومسلم (٢٨٨٨) إلى قوله « **في النار** » فقط .
(٢) صحيح : رواه ابن ماجة (٤٢٢٨) الزهد ، والترمذي (٢٣٢٥) ، وأحمد (١٧٥٦٣) مسند الشاميين ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤) .
(٣) متفق عليه : رواه البخاري (٥٢٦٩) ، ومسلم (١٢٧) واللفظ له .

فامرأة العزيز نظرت وأحبت، وأرادت وتزينت، وراودت وغلقت الأبواب، ودعت وتكلمت، وجذبت ثم هددت وتوعدت، ونفذت وعيدها، فكيف لا تكون ملومة مذمومة على مثل هذا الهمّ؟! وأمّا همّ يوسف عليه السلام فقد قال تعالى: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾، وأصح الأقوال فيه ؛ أنه حديث النفس الذي تركه يوسف عليه السلام لله عز وجل، ومن جرائه فهو مثاب على ذلك، وهو من الجهاد، جهاد النفس، لله عز وجل الذي تحصل به الهداية ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩]، وتأمّل أولاً أن همّها قد أُكّد، وهمّه لم يؤكد، وهمّها كان مقترنًا بالأعمال التي ذكرناها، وهمّه كان مقترنًا بالفرار من المعصية، والاستعاذة بالله، والتحذير من الظلم، وهمّها كان بلا استثناء، وهمّه كان معه الاستثناء ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾، وهي تُركت ووُكلت إلى نفسها، ويوسف عصمه الله وصرف عنه السوء والفحشاء، وهي ذُكرت بالمراودة والتزين ونفسها الأمارة بالسوء وخطيئتها، ويوسف عليه السلام ذكر بالإخلاص، فشتّان ما بين الهمّين، وقد اختلف العلماء هنا اختلافًا كثيرًا حول همّه عليه السلام، والبرهان الذي رآه.

قال ابن كثير – رحمه الله – : « اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد رُوى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف في ذلك، ما رواه ابن جرير وغيره والله أعلم، وقيل : المراد بهمّه ؛ خطرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي هنا حديث عبد الرزاق عن معمر عن هشام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يقول الله –تعالى– إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من جرّائي فإن عملها فاكتبوها بمثلها** » (١)، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين،

(١) **متفق عليه** : السند سند رواه مسلم والمتن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **قال الله – عز وجل – إذا تحدث عبدي بأن يعمل الحسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها** » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**قالت الملائكة : ربي ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة – وهو أبصر به – فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوه لها بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من جرائي** » ، ومذكور بالفاظ متقاربة في البخاري (٧٥٠١) ، والترمذي (٣٠٧٣) .

وله ألفاظ كثيرة هذا منها، وقيل : همّ بضربها وقيل : تمناها زوجة، وقيل : ﴿ هَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِۦ ﴾ أي : فلم يهم بها وفي هذا القول نظر من حيث العربية، حكاه ابن جرير وغيره . » أ.هـ.

وقد أحسن ابن كثير – رحمه الله – في إعراضه عن ذكر تفاصيل ما روي عن بعض السلف، في همّه بها من نحو حلّ السروايل وغير ذلك، مما هو مأخوذ عن أهل الكتاب، وهم مولعون بذكر تفاصيل هذه المواقف، إذ هذا نصيبهم من القصص، وهو من أكثر المواضع إثارة وتشويقًا للنفوس المريضة بالشهوات، والإنسان يقف في هذا الموقف أمام عظمة القرآن، وسُموّه عن قصص أهل الكتاب، وعن القصص البشري، الحقيقي منه والخيالي، فإن الناس في هذا المقام، لو كان هناك حقيقة لوقفوا أمامها طويلاً طويلاً، للتلذذ بالشهوة سماعًا واستحضارًا وفي وسائل إعلامنا المعاصرة مشاهدة ورؤية، ولو لم تكن هناك حقيقة، لتخيلوا وزادوا من عند أنفسهم، وقد صاغ بعض المنحطين الزنادقة منهم قصة يوسف عليه السلام، مع تغيير الأسماء هروبًا من رقابة الأزهر والهيئات الدينية، ومعلوم كيف يكون تركيز القوم على هذه اللحظات، ومعلوم أن قصصهم كله قائم على تصوير هذه المشاهد، كتابة وسماعًا ومشاهدةً، والعياذ بالله .

وأما أهل الكتاب، فكأنهم يتلذذون بنسبة النقائص إلى الأنبياء، ليبرروا بذلك انحرافهم هم وانحطاطهم، فإنه إذا كان الأنبياء قد فعلوا الفواحش، فلا لوم إذن على غيرهم، والعياذ بالله، فيقف الإنسان مبهوراً أمام القرآن العظيم، الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، كيف ذكر هذه اللحظات بهذا السمو وهذه الطهارة، والفوائد الإيمانية والتوجيهات التربوية، المؤدبة لعباد الله المؤمنين، مع الوضوح والتبيين – لمن تأمّله وتدبّره –، ليظل القلب يرفرف عاليًا قريبًا من الله تعالى، لا تجره إلى أسفل تخيل كيفية

تحصيل الشهوة، والعبارات التي توقظ أمراض النفس الأرضية، وأي سُموّ تجده أرفع من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾، فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا .

وأمّا ما ذكره ابن كثير من القول بأنه همّ بها ليضربها فضعيف، فإن الله سبحانه أخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وضربها ليس سوءًا ولا فحشاء في هذا المقام، والتعليل بأنه من عباد الله المخلصين، لا يتناسب مع تفسير همّه بضربها، وأمّا قول من قال: لم يهم بها لأنه رأى برهان ربّه فضعيف، كما ضعّفه ابن كثير - رحمه الله - من جهة اللغة، لأن القرآن أثبت همّه أولاً، ثم ذكر ﴿ لَوْلَا ﴾ بعد ذلك، ولو كان الأمر على ما ذكروا، لكان الكلام: ولولا أن رأى برهان ربه لهَمّ بها، والآية ليست كذلك، فالصحيح أن جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ محذوف تقديره (لفعل)، ولكن صرف الله عنه الفعل - وهو السوء والفحشاء - لأنه من عباد الله المخلصين، وقد أطنب الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في رد الإسرائيليات المروية في ذلك وأحسن - جزاه الله خيرًا - ورجّح أنه لم يهمّ، وهذا ليس بصحيح، بل الصحيح - إن شاء الله - ما ذكره البغوي - رحمه الله - مائلاً إليه، من أنه حديث النفس الذي تركه من جراء الله أي: لأجله سبحانه، فهو مما يثاب عليه ويكتب في الحسنات الكاملة .

وأما برهان ربه الذي رآه فقد قال ابن كثير - رحمه الله - : « ففيه أيضًا أقوال، فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك وعمر بن إسحاق وغيرهم: رأى صورة يعقوب عليه السلام عاضًا على إصبعه بفمه، وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف، وقال العوفي عن ابن عباس: رأى خيال الملك يعني سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال قطفير سيده حين دنا

من الباب، وروى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فإذا كتاب في حائط البيت ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وروى عبد الله بن وهب عن القرظي يقول في البرهان الذي رآه يوسف: ثلاث آيات من كتاب الله ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ [الانفطار: ١٠]، وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا... ﴾ الآية [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣]، قال نافع سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي وزاد آية رابعة ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال الأوزاعي: رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك، قال ابن جرير: «والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان همّ به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبًا من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى، قال: وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ أي: كما أريناه برهانًا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي: المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار - صلوات الله وسلامه عليهم - » أ.هـ.

وما رجحه ابن جرير - رحمه الله - من إطلاق ما أطلقه القرآن من البرهان دون تحديد، وأن التحديدات إنما هي من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، ولا حاجة بنا إليها، هو الراجح، ويكفينا أن الله - سبحانه - قد أخبر أن يوسف رأى دليلاً وآية من عند الله - سبحانه -، لذا أضافها الله إلى اسم الربوبية، وأضاف اسم الربوبية إلى الضمير العائد على يوسف، للدلالة على رعايته وحفظه - عز وجل - وتدبيره لأمره، فقال: ﴿ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فالله هو الذي أصلحه وحفظه بربوبيته، وقد بالغ البعض في إنكار ذكر الآيات، التي ذكر من ذكر أنه رآها

مكتوبة، وليس المقصود قطعًا نص الآيات بالعربية كما هي في القرآن، فيوسف لم يكن عربيًا ولا يتكلم العربية، ولكن ما المانع أن تكون معاني الآيات متكررة في الكتب السابقة، ولها نظائرها مثلاً في صحف إبراهيم، وليس هذا ترجيحًا منا لهذا القول، ولكن بيانًا لوجه من قال به، وأنه في دائرة « **حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج** » [١]، وليس أنه كلامٌ باطلٌ يجب رده مطلقًا، والراجح كما ذكرنا الاكتفاء بإطلاق القرآن، فقد رأى يوسف آية ودليلاً، أرشده للامتناع عن السوء والفحشاء، صرفه الله به عن همه الذي همه، لأنه من عباده المخلصين، وقد سبق بيان القراءتين في ذلك، وفائدة كل منهما .

والذي يظهر - والله أعلم - في لفظ السوء : أنه المقدمات المحرمة، وأن الفحشاء : هي الزنا، لأن السوء هو ما يسوء العبد أو تسوء عاقبته، فالسيئة سميت سيئة لأن عاقبتها تسوء العبد، والفاحشة والفحشاء - أي الفعلة الفحشاء - التي تعاظم قبحها، فهي في هذا الموطن - بل وفي أكثر المواضع في القرآن بمعنى الزنا، وفي بيان القرآن أن الله صرف عن يوسف كلا الأمرين السوء والفحشاء - ردٌّ على من زعم أنه فعل شيئًا من المقدمات المحرمة للزنا، وفسر همّ يوسف به، فالإسرائيليّات الواردة في ذلك من كونه حلّ السراويل، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، مخالفة لكتاب الله - عز وجل - فيجب ردها، لأنها بلا شك محرمات، فهي سيئات، وقد أخبر الله أنه صرف عنه السوء، فيجب اعتقاد ذلك وأنه لم يفعل ما يسوء، أي لم يفعل معصية لله - عز وجل - في مقامه هذا، وقد تأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ وإبليس قد أخبر أنه لا يغوي عباد الله المخلصين فقال : ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص : ٨٢-٨٣] وما ذكروه هو من الغواية، فيجب نفيه عن يوسف، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، والله أعلم .

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) ، وأبو داود (٣٦٦٢) ، والنسائي (٥٨٤٨١) الكبرى .

الفرار من المعصية

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾ .

شَرَعَ يوسف عليه السلام في الهرب من هذا المكان، الذي حضره شيطان المرأة قطعًا للخلوة المحرمة، وتخلصًا من هذه المراودة الخطيرة، والفرار من أماكن السوء، من أعظم أسباب النجاة من السوء، ومفارقة أهل الفساد من أعظم أسباب الوقاية من الفساد، والمكان والصحبة من أخطر أسباب وقوع كثير من الناس في الجرائم والمعاصي، وهذه هي الفائدة التربوية العظيمة، لكل شاب يجد من أنواع الشهوات معروضًا أمامه، بل أحيانًا طالبًا له مراودًا له عن نفسه، كمراودة امرأة العزيز ليوسف، فلابد أن يبتعد عن أماكن الفساد، ويسابق إلى الباب هروبًا وفرارًا، كما فرّ يوسف بنفسه ودينه، وأن يفارق أهل المعاصي ولا يصحبهم، بل يجعلهم وراءه ظهريًا، ولا ينظر في وجوههم كما فعل يوسف، فأعطى ظهره للمرأة، حتى اضطرت أن تشق قميصه من الخلف حين جذبته إليها، والنظر في وجوه أهل السوء والفحشاء بلاء وعذاب، حتى ولو كان الإنسان مضطرًا كارهًا، كما دعت أم جريج عليه لما أهمل إجابتها فقالت : « **اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات** »(١)، فاستجاب الله دعاءها، فاضطر إلى النظر في وجه البغي من بغايا بني إسرائيل، التي أرادت إغواءه فعجزت، فأمكنت نفسها من راعي غنم حتى حملت منه سفاحًا، وولدت وادّعت أن جريج هو الذي وقع بها،

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٢٤٨٢) المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٥٠) الصلاة، وأحمد (٨٠١٠) باقي مسند المكثرين مسند أبي هريرة .

فكان نظره إليها لتبرئة نفسه من هذه الجريمة الشنيعة، وقد برأه الله بإنطاق الصبيّ الرضيع بأن أباه الراعي فلان، فإذا كان عقوبةً للعبد أن ينظر في وجوه أهل الفساد مضطراً كارهًا، فكيف بمن يقبل على ذلك محبًا راغبًا مختارًا، كما ينظر الناظرون إلى وسائل الإفساد من سينما ومسرح وتلفاز وفيديو ومجلات، إن هذا النظر ينبت مرض الشهوة المحرمة في قلب العبد، وصحبته لهؤلاء – ولو على صفحات المجلات أو شاشات السينما والتلفاز – لهو من أعظم أسباب مواقعة الفواحش . فاستبق – أيها الشاب – إلى الباب خارجًا عن هذه الأماكن، واجعل أهلها وراءك ظهريًا، ولو جذبوك من قميصك، وانج بنفسك كما نجا يوسف ﷺ، وفر منهم فرارك من الأسد، فهم والله شرٌ من المجذوم، الذي أمرك نبيك ﷺ « **أن تفر منه فرارك من الأسد** »(١) .

وتأمل في جذب المرأة قميص يوسف من خلفه، حتى قدّته – أي: شقته وقطعته –، تحاول شدّه إليها لتنال الشهوة المحرمة، كيف أعمتها الشهوة إلى هذا الحدّ من الطلب، مع أن فطرة المرأة تأبى مثل هذا لو كانت سوية، ولكن كما قيل: حبك الشيء يُعمي ويُصم، وتمزيق القميص دليل على أنها جذبة شديدة جداً، فقد فقدت المرأة صوابها، وغاب عنها عقلها، بل وحسها، فإن زوجها قد كان بالباب، ولا شك أن دخول عزيز مصر إلى قصره، يكون معه الجلبة المعهودة في دخول العظماء والكبراء إلى قصورهم، ومع ذلك لم تشعر بشيء من مقدمات وصوله، لأن الشهوة كانت مسيطرة .

فعلى العاقل أن لا يترك نفسه إلى هذا الحد، الذي يزول معه العقل والحس، ويرتكب ما يُخالف الفطرة السوية، والحق أن العشق داء عضال، يوصل إلى هذا الخلل، وعلاجه إنما هو بمنع مقدماته، التي أولها النظر، ثم الخواطر، ثم الكلام،

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، وساق حديث عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ « **لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الأسد** »، وأحمد (٩٤٢٩) المسند .

ثم الخلوة، ثم ما بعد ذلك، فإن منع المقدمات والخواطر أيسر بكثير من منع ما بعدها، فإن هذا الداء أشبه بفرس يركضها صاحبها، أو إن شئت مثلاً من واقع حياتنا، سيارة يحركها قائدها من سكونها، وهي في أول حركتها وبطء سيرها، يستطيع استعمال (الفرامل) بسهولة فتقف، أما إذا أجراها على أقصى سرعتها، ثم أراد أن يوقفها فجأة، لم يستطع ولم تقف، وربما انقلبت رأساً على عقب .

فالعشق فناء - باصطلاح الصوفية - يفنى فيه عقل العاشق وعواطفه الأخرى، وربما غاب عنه حسه كما غاب عن هذه المرأة، وهي لا تشعر بمدى قوة جذبها ليوسف، ولا تشعر بأصوات ومقدمات دخول زوجها، وكما حصل أيضاً للنسوة اللاتي قطعن أيديهن، غاب عنهن حسهن بأنفسهن حين نظرن إلى يوسف، فقطعن أيديهن، وقلّما يفيق العاشق من عشقه، إلا أن يتداركه الله برحمته، والمقصود أن علاج البدايات أيسر من علاج النهايات، والله المستعان .

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ** ﴾، سمى الزوج سيداً لعظيم حقه على المرأة « **فأعظم الناس حقًا على المرأة زوجها** » (١) كما قال رسول الله ﷺ، كما أن المرأة أسيرة رقيقة عند الرجل، كما قال النبي ﷺ : « **فإنهن عوان عندكم** » (٢) أي : أسيرات، فلابد أن تقابل المرأة زوجها بهذا القدر من الإحترام والتوقير ليظل البيت مستقراً مطمئناً على الفطرة .

ذهلت المرأة من وجود زوجها، وهي التي غلقت الأبواب، وفوجيء الزوج بالمنظر ؛ قميص يوسف ممزق، والمرأة في زينتها، إذن في الأمر خطر، وهناك مقاومة وعنف من أحد الطرفين، وبسرعة ضحت المرأة الظالمة بحبها، وذبحت

---

(١) **صحيح** : رواه الترمذي (١١٥٩) الرضاع ، وابن ماجة (١٨٥٢) النكاح ، وأحمد (١٢٢٠٣) المسند عن معاذ ، والدارمي (١٤٦٤) ، والحاكم عن بريدة ، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٤) .

(٢) **صحيح** : رواه الترمذي (١١٦٣) الرضاع بلفظ « **فإنما هن عوان عندكم** » ، وابن ماجة (١٨٥١) النكاح، و حسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٠) .

عشقها، حفظًا لجاهها عند زوجها، ثم عند مجتمعها، تلك الطبقة المترفة الماجنة، ما أقبح هذا الحب الكاذب إنما هو إرادة دنيئة، لنيل الشهوة المحرمة، إرضاءً لحاجة الجسد الهائج، والنفس الأمارة بالسوء، التي في الحقيقة لا تحب إلا نفسها وذاتها، لو كان هذا حبًا حقيقيًا، لما ضحت به بهذه السهولة، عند أول مقاومة .

نفس مهينة حقيرة، تلك هي نفس عاشق الصور – أو عاشقة الصور والأشكال –، فيها الجبن والهلع والحرص، والاستعداد للتضحية بالحبيب، أجد شبهًا بين هذه الشخصية المقززة في خسة الموقف، وبين شخصية الإسرائيلي الذي وشى بموسى، ودل على أنه الذي قتل الفرعوني بالأمس نصرةً له، الجامع بين الشخصيتين : حب النفس وسرعة التلون في المواقف، المرأة منذ لحظة تقول : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾، وتجذبه حتى تمزق قميصه، ثم في اللحظة التالية تتهمه بمحاولة اغتصابها، وتسعى إلى أن يسجن أو يعذب عذابًا أليمًا، فعلاً شخصية منفرة مقززة، حتى لو كانت ذات جمال ظاهر، لكنها ذات قبح باطن، كذب وخيانة وجبن وفجور، وإرادة منحطة نجسة، هكذا كل عابد عاشق للصور أو عاشقة، فالهرب منهم نجاة للعبد في دينه ودنياه .

يوسف المبتلى بالحب الزائف، يجد نفسه في موضع تهمة، وهو الأمين على عرض الرجل، يعرف له فضله، ولا يجحد له حقه، يجد نفسه مضطرًا إلى الدفاع عن نفسه ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾، يقولها بسلامة نية وصدق لهجة، لكن للأسف هذه الطبقة المترفة، وهذا المجتمع المتردي في سفالة الإرادات ونجاسة الشهوات، لا يعترف بسلامة النية، ولا يعرف فضيلة الصدق، حتى لو قبلها مؤقتًا، لكن سرعان ما تطغى المقاييس المادية والضغوط الإجتماعية، ولذلك نجد أن ما قالته المرأة من السجن، هو الذي آل الأمر بيوسف إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، رغم الشهادة التي شهدها الشاهد من أهلها، بادئًا باحتمال صدقها

وكذبه، قبل احتمال كذبها وصدقه، وهو مما يرجح كونه رجلاً لا طفلاً رضيعًا، كما ورد بذلك الحديث الضعيف : « **أنه أحد أربعة تكلموا في المهد** »(١) (ضعفه الألباني في ضعيف الجامع)، والسند الصحيح عن ابن عباس أنه كان رجلاً، والسياق يرجّح ذلك كما ذكرنا، لأن فيه تعاطفًا مع المرأة بذكر صدقها أولاً، ثم إن التعليل المذكور معقول المعنى ليس خرقًا للعادة، فإن تمزيق القميص من الأمام، دليل على أنه يحاول الإعتداء عليها، وهي تدفعه عن نفسها، وتمزيق القميص من الخلف، دليل على هروبه منها، وأنها هي التي تطلبه وتجذبه حتى تمزق قميصه، والشاهد كان من أهلها، فليس هناك أدنى محاباة ليوسف عليه السلام، بل المحاباة لها، ومع تبين الحق وظهور الصدق، كانت النتيجة النهائية في هذا المجتمع الجائر، أن يسجن البريء حفاظًا على صورة المجرم أمام الناس، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

---

(١) **ضعيف** : رواه الحاكم عن أبي هريرة و ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٧٥٩) .

سلبية وضعف

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

تيقّن العزيز من صدق يوسف وكذب زوجته، برؤية القميص مشقوقًا من الخلف فقال لامرأته : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أي : مكر النسوة وتدبيرهن السيء، وذلك دليل على عظم شأن النساء في مثل هذا المجتمع، المتحلل من المثل والمعاني الإيمانية، القائم على اتباع الشهوات وتعظيمها، ويبدو أن الرجل قد وقع له من كيد النساء، ما جعل الأمر عنده قاعدة مستقرة ثابتة ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾، وقد ظن البعض إن الله هو الذي استعظم كيد النساء، والحق أن هذا من كلام العزيز، وإنما حكاه القرآن عنه، وليس يعظم كيد النساء في كل مجتمع، فالمجتمع المسلم الطاهر النظيف، الذي لم يُبْنَ على اتباع الشهوات، يضعف فيه مكر النساء وكيدهن، وإنما يعظم كيد النساء وتكون لهم الكلمة العليا، في المجتمع الجاهل المبني على الشهوات، لأن المرأة من أعظم الشهوات فيه، بل إن شئت فقل : مركز الشهوات فيه، فلابد أن تكون هي الحاكمة على طالبي الشهوة، وأن يكون الرجال في تمام الإستجابة لطلباتهن، ولا شك أن هذا من أعظم الضرر على المجتمع بأسره، فإن النساء ناقصات عقل ودين، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال : « **وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن** » (١)، فعلى المؤمن أن لا يغلبه كيد النساء بالخضوع للشهوة، وليس يلزم من ذلك عدم قبول شيء منهن، بل الحق يقبل من كل

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٢٩٨) الحيض، ومسلم (٧٩) الإيمان، وابن خزيمة (١٠٠٠) الصلاة، وابن حبان (٥٧٤٤) الحظر والإباحة، وأبو داود (٤٦٧٩) السنة .

من جاء به كائنًا من كان، وقد قبل النبي ﷺ نصيحة أم سلمة في الحديبية : « في أن يخرج ولا يكلم أحداً منهم حتى يحلق رأسه وينحر هديه » (١) ففعل ﷺ، ففعلوا بعد أن كانوا ممتنعين، لكن المقصود أن لا تكون القوامة للنساء، فهذا هو الخلل والضرر العظيم .

ومع تأكد العزيز من وجود الخلل عند المرأة، وضعفها أمام شهوتها الجارفة، وعدم قدرتها على مقاومة نفسها الأمارة بالسوء، مع شدة جمال يوسف، وكثرة غيابه وانشغاله عنها، فقد كان همه الأكبر ليس في إصلاح الخلل، وتغيير الأوضاع حتى يقطع أسباب الفتنة، وإنما كان همه عدم انتشار الحديث، الذي لو حدث وانتشر، لتعرضت صورة السيد للاهتزاز في أعين الناس، فكان أمره ليوسف : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أي : لا تذكره لأحد، فهذا هو الأمر المهم عند هذه الطبقة، بل عند أكثر الناس (كلام الناس)،فلو لم يتكلموا فالأمر هين .

ولذلك لم يغير من الأمر شيئاً، بل سمح أن تكرر الخلوة والمراودة مرات عدة، بل ويزيد الأمر مع المراودة، تهديداً ووعيداً وضغوطاً شديدة، ليس فقط من زوجته، بل من نسوة غيرها كما سيأتي، ولم يزد على أن طلب من المرأة الاستغفار : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ، والحقيقة أن الاستغفار المشروع إنما هو المقرون بالتوبة، والتوبة تقتضي ترك المعاصي ومقدماتها، فالخلوة معصية هي مقدمة الفاحشة، والتبرج معصية، والحديث المحرم معصية، فبقاء هذه الأمور مستمرة في البيت مع الغياب الدائم للزوج، لا يكفي معه طلب الاستغفار، ولكن ظاهر أن الرجل كان فيه نوع دياثة، والاستسلام أمام امرأته، وعدم قدرته على إيقاف رغبتها عند حد، فرد الفعل كان ضعيفًا مهينًا، بل إن

---

(١) رواه البخاري(٢٧٣٤) الشروط ، وهو جزء من حديث طويل (فقالت أم سلمة يا نبي الله أتحب ذلك أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعوا حالقك فيحلقن فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك) ، وأحمد(١٨٤٤٩) أول مسند الكوفيين .

شئت فقل لم يكن هناك رد فعل، بل عند التأمل نجد أنه قد استجاب لطلبها بسجن يوسف، يبدو أنها أقنعته بأن المصلحة في ذلك أمام الناس، وفي الحقيقة أنها كانت إنما تعاقب يوسف على عدم استجابته، فقد وضح إذن أنه رغم أنه يخبرها أنها كانت من الخاطئين، إلا إنه مستجيب لطلباتها ولا يستطيع أن يمنعها من المنكر .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عليه » أ.هـ.، والعجب أن يسمي هذا عذراً، إلا أن هذه النوعية من الرجال التي لا تعظم هذه الحرمة، يمكن بالفعل أن ترى في جمال الصورة وقوة الشباب وشدة الشهوة، مبرراً للفواحش، وعذراً في مواقعتها .

وكم تسمع عن آباء وأمهات، وربما أزواج، يقولون لمن يقع في الفواحش أو مقدماتها « أليسوا شباباً ؟ دعوهم يعيشون أيامهم !! إذا كبروا عقلوا !! » ونحو هذه العبارات، وكأن الصبر عن الشهوات إنما يكلف به الشيوخ وحدهم، ومن ضعفت شهوته، أما من كانت شهوته قوية فمعذور، والعياذ بالله من رؤية هذا عذراً، فإن الله لم يعذر أحداً في فعل الفواحش، وإن كان جرم الشيخ إذا وقع فيها أشد، لكن ليس الشباب عذراً ولا مبرراً للفواحش بحال من الأحوال، والتساهل في مثل هذا، نوعٌ من الدياثة كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية عن عزيز مصر زوج هذه المرأة، وقد قال النبي ﷺ : « **لا يدخل الجنة ديوث** »(١)، وهو الذي يقر الفحش على أهله، فالذي يترك امرأته متبرجة تتزين لغيره من الرجال، أو تراودهم بفعلها أو قولها أو حالها، وكذا من يترك ابنته أو أخته أو من له سلطان عليها، فهو فيه هذا القدر من الدياثة، حتى لو غلّف حاله بالدعوة إلى الاستغفار والإقرار بالخطيئة .

---

(١) **صحيح** : رواه النسائي (٢٥٦٢)، والحاكم (٢٤٤)، وأحمد (٥٣٤٩) مسند المكثرين من الصحابة عن ابن عمر بلفظ « **ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والمنافق ، والديوث الذي يقر في أهله الخبث** »، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥٢) .

وفائدة مهمة في هذا الكلام من العزيز، وهو أن طلب الاستغفار من امرأته دليل على وجود قدر من المعرفة بالله، لأن الاستغفار – وهو طلب المغفرة وذكر الخطيئة – دليل على قدر من المعرفة بالثواب والعقاب، ويؤكد ذلك قول المرأة في آخر قصتها: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فهو ظاهر الدلاة على وجود قدر من الإيمان والمعرفة، وإن كنا لا ندري هل تحقق به أصل الإيمان أم لا ؟ والذي يظهر أن هذا أثر من آثار مخالطة يوسف عليه السلام، فإنه قد جاءهم بالبينات كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ﴾ [غافر : ٣٤]، وقد قال يوسف أول ما دعته المرأة إلى نفسها: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ، ولا شك أن يوسف لا بد أن يكون دعاهم إلى الله سبحانه، كيف لا وهو يدعو في السجن، فلا شك أنه يدعو مع التمكين أكثر ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١]، ويوسف عليه السلام مُمَكَّنٌ من ساعة حضوره إلى قصر العزيز، الذي قال لامرأته أكرمي مثواه، وقد قال – عز وجل – : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ ، فلا شك أنه دعاهم إلى الله عز وجل، وبيَّن لهم صفاته ووحدانيته عز وجل، ومن هنا ظهر أن الاستغفار ومعرفة الخطيئة، وتنزيه الله في الكلام مثل : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ ، ومعرفة الملائكة ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وهذا يدلنا على أن الدعوة إلى الله لا يجوز أن تتوقف بحال من الأحوال، أو أن ينتظر بها كمال التمكين، فلا شك أن التمكين الأول وهو فتى العزيز، ليس كالتمكين الثاني وهو على خزائن الأرض، ولكن أي قدر من التمكين يجب أن يكون معه القدر الممكن من الدعوة إلى الله – عز وجل –، وهي تثمر ثمارها حتى في الطبقات الحاكمة للمجتمع، حتى ولو كان الداعي – في ظنهم – من العابدين الخاضعين لهم، فالحق له سلطان وهيبة يقوى به الضعيف ويعز به

الذليل، فبآيات الله يغلب من تمسك بها ومن تبعه، وبالإيمان يعلو من حققه، وبكلام الله يحق - سبحانه - الحق ويعز أهله، ويبطل الباطل ويذل أهله .

فلا تضعف أيها الداعي صاحب الحق، بما معك من آيات الله من الوحي المنزل، حتى ولو كنت مستضعفًا، فأنت معك السلطان الذي لا يغلب ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠]، وعليك باستغلال كل قدر متاح من التمكين، للعمل لدين الله وإعلاء كلمته، ولا تكلف إلا وسعك، وإذا عملت بما تقدر عليه - على مكانتك -، فسوف يقدرك الله على ما لا تقدر عليه، ويزداد تمكينك في الأرض بإذن الله والقيام بأمره، كما أن من عمل بما علم، رزقه الله علم ما لم يعلم، فكذلك من عمل بما قدر عليه، رزقه الله القدرة على ما لا يقدر عليه الآن، فاستعن بالله ولا تعجز، وسرْ فالباب مفتوح، والقوة لله جميعًا ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

كيد نسائي

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾ .

مجتمع الطبقة المترفة له اهتماماته المعروفة، من تتبع أخبار النساء خاصة زوجات الكبراء والأمراء، وقصص الحب والعشق في مركز هذه الاهتمامات، والأخبار في هذا المجال تنتشر انتشار النار في الهشيم، وكلام النساء في مجالسهن وعن بعضهن، وهن يتنافسن في فضح بعضهن، والغيبة والنميمة من الخصائص المعهودة المتكررة لمثل هذه المجتمعات، يتعجب المرء من وحدة السمات لهذه الطبقات الاجتماعية، رغم تباعد الأزمنة وتفاوت مظاهر الحياة تفاوتًا هائلاً، ومع ذلك تجد القرآن كأنه يصف مجتمعًا من مجتمعاتنا اليوم، التي تدندن حول نوع معين من الحب، وإذا أطلق الحب فهم لا يعرفون غيره، وهو حب الرجل المرأة والمرأة الرجل، وغالبًا ما يكون المقصود هو الحب المحرم بغير رابطة الزوجية .

فلو سألك سائل اليوم في مجتمعاتنا عن رأيك في الحب مثلاً، أو عن

حكمه، لعلمت قطعًا أنه إنما يتكلم عن هذا الحب، فنجد اهتمامات هذه الطبقة – طبقة زوجات الأمراء والكبراء – واحدة، كأنها من لوازم الحياة بهذه الطريقة المترفة، وهذا الحب عندهم عصب حياتهم، وأسمى مشاعرهم، وحق لهم أن يكون كذلك، فإن مشاعرهم في الحضيض الأسفل، وانحرافات الأحاسيس والسلوك وأمراض القلوب والنفوس هي أعظم انتشاراً، فيكون هذا الحب المنحط في الحقيقة، هو الأسمى لدى القلوب المريضة أو الميتة والعياذ بالله، فهي قلوب لم تَذُق حب الله – عز وجل – وحب عبادته والقرب منه، فصارت حاجات الجسد هي الحياة، والهوى هو الإله المعبود ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** ﴾[الفرقان : ٤٣]، واللذة الجنسية مقدمة على كل اللذات .

ونقِّل طرفك في مجتمعات الغرب والشرق، لتجد هذه الحقيقة المرة، التي يحيا بها الناس من أجل نصفهم الأسفل، البطون والفروج، وتحرم الأرواح بالكلية من قوتها وغذائها حتى تموت، وتخرج من الدنيا ولم تذق حقيقة الحب الذي خلقت من أجله، والذي ينبغي إذا أطلقت كلمة (الحب) أن تنصرف إليه الأذهان والأفئدة مباشرة، ألا وهو حب الله – سبحانه –، والحب فيه ولأجله، ولا شك أن الحُبَّيْن لا يجتمعان، أعني حب الله – عز وجل – والحب المحرم، فإذا وجد أحدهما طُرد الآخر، ونقول عن هذا الحب حب محرم، لأنه مرتبط دائمًا بتجاوز الحدود الشرعية، فهو لا يحصل بدون رابطة الزوجية إلا بالنظر المحرم، وهو المتكرر المتتابع، ولو اكتفى بالنظرة الأولى وصرف الفكر والخواطر عما نظر إليه، لما وقع في شَرَك العشق، ثم هو لابد وأن يرتبط بمحاولة الحصول على الشهوة بأي طريقة، ويعجز صاحبه عن إيقافه عند حد، فيحصل « **زنا القلب بالتمني والخواطر المستحضرة في أوقات الخلوة، وزنا اللسان بالكلام، وزنا العين بالنظر، وزنا الأذن بالسمع، وزنا اليد باللمس، وزنا الرجل بالمشي، وزنا**

الفم بالقُبُل، ويبقى تصديق الفرج أو تكذيبه بالفعل والترك » (١)، وهذا الحب الذي تمكن من القلب، شغل على الإنسان حياته كلها فأصبح لا يعرف لها معنى، ولا يدرك لها غاية إلا بنيل الشهوة من المحبوب، فتضيع عبودية الله – عز وجل –، بل لو كان العشق بين رجل وامرأته في الحلال، قد تجاوز الحد حتى تعلق القلب بها – أو به –، حتى يكون أشد من حب الله لكان حبًا محرمًا، لقول النبي ﷺ : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ...** » الحديث (٢)، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة : ٢٤]، فكيف إذا كان حبًا من غير نكاح، ولا شك أن النكاح الحلال في هذه الحالة، هو أفضل وسائل العلاج لقول النبي ﷺ : « **لم يُرَ للمتحابين مثل النكاح** » (٣) حديث حسن، لكن لا بد من تقويم المشاعر، وتصحيح أحوال القلوب، حتى لا تتعطل بسبب هذا الحب عن أعظم ما خلقت من أجله، وأعظم ما تتنعم به، وهو حب الله – سبحانه وتعالى –، والمؤمن الحق متوازن في مشاعره، ليس جافًا غليظ القلب لا يعرف الود والرحمة، ولا هائمًا سكران قد فرغ فؤاده لمحبوب مخلوق، لكنه متوازن الأحاسيس يحقق قول الله – عز وجل – : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ [الروم : ٢١]، ويملأ قلبه حب إلهه ومولاه الحق

---

(١) هذا مأخوذ من الحديث المتفق عليه الذي رواه البخاري (٦٢٤٣) الاستئذان و(٦٦١٢) القدر، ومسلم (٢٦٥٧) القدر، وأبو داود (٥١٥٢) النكاح، وأحمد (٧٦٦٢) المسند.

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١٦) الإيمان، مسلم (٤٣) بلفظ « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله ... »، والترمذي (٢٦٢٤) الإيمان، والنسائي (٤٩٨٧) الإيمان والشريعة، وابن ماجة (٤٠٣٣) الفتن، وأحمد (١١٥٩١).

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة (١٨٤٧) النكاح، والبيهقي (١٣٢٣٠) الكبرى، والحاكم (٢٦٧٧) عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٠) واللفظ له.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥]، فلا يغلب على قلبه حب لا يستغنى عنه لحظة ولا طرفة عين، إلا حب ربه وإلهه ومعبوده – سبحانه وتعالى –، ولا يقع في الحب المحرم الذي يؤدي إلى ترك الواجب أو فعل الحرام، وقد يصل هذا الحب المحرم أحيانًا إلى الكفر، والعياذ بالله، إذا أدى به أن يبيع دينه وإيمانه من أجله، فهذا عبد الهوى ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٣]، فمن أحب مخلوقًا بحيث لو أمره بالكفر لكفر، كان حبه شركيًا مخرجًا له عن الملة، ولو كان بحيث لو أمره بالمعصية لعصى، كان حبًا محرمًا، وإن كان لأهله من غير أن يشغله أو يغلب على قلبه، أو يبعده عن حب ربه وطاعته، كان حبًا مباحًا، وربما صار عبادة بالنية الصالحة من طلب العفة والإعفاف للغير، وغير ذلك من النيات الصالحة .

الغرض المقصود أن النسوة في المجتمع المصري القديم، قد تحدثن كثيراً في مجالس الغيبة والنميمة والفسوق والعصيان – فيما يشبه ما تصنعه مجلات الفن والفنانات وملتقياتهم في زماننا –، عن حب امرأة العزيز لفتاها يوسف ومراودتها له عن نفسه، ووصفوا حبها بأنه قد بلغ شغاف القلب ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾، والشغاف : هو الغلاف الذي على القلب، ويقصد بهذا اللفظ شدة المحبة المتخللة للقلب، وجزمت النسوة بأنها في ضلال مبين، وما ذاك عندهن لأن هذا الحب مذموم عندهن، بل كلهن يبحثن عنه ويطلبنه، ولكن المشكلة لديهن في التفاوت الاجتماعي، فهي تراود ﴿ فَتَاهَا ﴾ عبدها، فلو كانت المراودة لرجلٍ (كبير في القوم)، لكان أمرًا عاديًا مقبولاً عند هذه النوعية، فالضلال الواضح عندهن أنها تراود فتاها، الذي لا يتناسب مع الوضع الاجتماعي له أن تقع منها هذه المراودة، والذي يظهر أن كلام النسوة إنما كان كيداً ومكرًا، يردن التوصل به إلى رؤية هذا الفتى العبراني فائق الجمال .

كما قال ابن إسحاق - رحمه الله - : « بل بلغهن حسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته » أ.هـ.، نقلاً عن ابن كثير(١).

فهن يظهرن تضليل امرأة العزيز في حبها ليوسف، للتفاوت الاجتماعي، ويضمرن تمني رؤية يوسف عليه السلام، لأن حاجة الجسد في الحقيقة، لا تعرف هذه الفروق الطبقية والفواصل الاجتماعية، وليس عندهن من نور الإيمان وبصيرة التقوى، ما يحجز عن تمني الحرام ولا فعله، بدليل أنهن كلهن صار لهن كيد بيوسف بعد رؤيته، بل ومراودة صريحة كما قال تعالى عن الملك في آخر الأمر: ﴿**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ**﴾، فهو صريح في اشتراكهن في المراودة وقال يوسف عليه السلام: ﴿**وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ**﴾، فلم يعد كيد امرأة العزيز وحدها بل ﴿**كَيْدَهُنَّ**﴾، ولم يعد المطلوب أن يميل إلى امرأة العزيز وحدها، بل أن « يصبوا إليهن » جميعًا، فدل ذلك على أن كان الغرض عندهن الوصول إلى التمتع بالصورة، وتحصيل حاجة الجسد الدنيئة المنحطة، ولو في الحرام، والعياذ بالله .

سمعت امرأة العزيز بمكرهن بها، وعلمت حقيقة رغبتهن، وعلمت قبل ذلك أنهن مثلها في قلة الصبر عن مثل هذا الجمال الباهر، لأنها تعلم طبيعة نساء طبقتها وطريقة تفكيرهن، فأعدت لهن مجلسًا فيه الأرائك والمخاد والوسائد، وأعدت فيه أنواع الفواكه التي تقطع بالسكاكين، وآتت كل واحدة منهن سكينًا، تريد أن توقع بهن إذا رأين يوسف، لشدة الفناء في حب الصور عندهن، ثم قالت ليوسف : ﴿**اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ**﴾، فمن وقع المفاجأة بالجمال

---

(١) ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح في قول النبي ﷺ لنسائه في شأن إمامة أبي بكر للناس في مرض موته ﷺ ، حين قالت عائشة : إن أبا بكر رجل أسيف - أي كثير البكاء - فقال : « **إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس** » أي : تشبهن صواحب يوسف في إظهار شيء وإضمار غيره ، إذ أضمرت عائشة كراهة أن يبغض الناس أباها إذا قام مقام النبي ﷺ ، وأظهرت أنها تحرص على سماع الناس القراءة حديث متفق عليه .

الهائل، وهن بلا وقاية إيمانية ولا حصانة من تقوى الله - عز وجل -، جعلن ينظرن إلى من أوتي شطر الحسن عليه السلام، ويكررن النظر حتى حصل لهن سكر تام، وذهاب الإحساس بالنفس بالكلية، فجعلن يقطعن أيديهن كأنهن يقطعن الفاكهة التي أعدت لهن، دهشًا من رؤية يوسف، قال زيد ابن أسلم : « أنها قالت لهن بعد ما أكلن، وطابت أنفسهم، ثم وضعت بين أيديهن أُتْرُجًّا، وآتت كل واحدة منهن سكينًا : هل لكن في النظر إلى يوسف ؟ قلن : نعم، فبعثت إليه تأمره أن أخرج عليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن، فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا، فكيف أُلام أنا ؟! » أ.هـ. نقلاً عن ابن كثير .

وفي ما فعلت النسوة، دليل على مدى ما تصنعه الشهوة بعقل الإنسان وقلبه وإحساسه، فكما غابت عن امرأة العزيز حسها، بمقدمات دخول زوجها، وغاب عنها إدراكها، بما ينبغي أن يكون فيه مقامها حتى شقت قميص يوسف، كذلك غاب عن النسوة إدراكهن بالألم ابتداءً، من شدة الانبهار بجمال يوسف، فيحصل للإنسان نوع من السُكْر كما قال تعالى عن قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢]، فإذا كان يمكن أن تصل الشهوة المحرمة بالإنسان إلى هذا الحال، فبالأولى يمكن أن يصل الحب الحقيقي الذي فطر القلب عليه، بل خلق له أصلاً وجعل محلاً له، أعني حب الله - سبحانه - والشوق إليه، إلى زوال شعور الإنسان بألم البدن عند الإنشغال في العبادة والذكر، كما كان النبي ﷺ يقوم حتى ترم قدماه ويقول : « **أفلا أكون عبداً شكوراً** » (١)، وكان ابن الزبير رضي الله عنهما يصلي وأتاه حجر من حجارة المنجنيق المحماة، التي كان

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) ، والترمذي (٤١٢) ، والنسائي (١٦٤٤) ، وابن ماجة (١٤١٩) ، وأحمد (١٧٧٣٣) المسند .

يلقيها الحجاج عليه أثناء الحصار، فأحرق بعض ثوبه فلم ينفتل من صلاته ولم يلتفت، ولما أراد الأطباء قطع رجل عروة بن الزبير رضي الله عنه، وأرادوا سقيه دواء يزول به عقله أبى، وقال : دعوني أصلي، فإذا دخلت في الصلاة، فاقطعوها، ففعلوا . فهذا وأمثاله لا تستبعده، فليس ببعيد وانشغال الإنسان بأمر يشغله عن غيره بلا شك، وتتفاوت درجة الانشغال تفاوتًا عظيمًا، وليس المقصود من هذا مدح مقام الفناء الذي يدندن حوله الصوفية، لأن الممدوح من ذلك فناء مخصوص، وهو الذهول عن كل ما يشغل عن الله، والفناء عن إرادة ما سوى الله، وما يحبه ويرضاه .

وأما الفناء عن الشعور بوجود النفس، والعالم وأفعال الخلق وغير ذلك، فأين في الكتاب والسنة مدح ذلك ؟ وأقصى ما يقال في ذلك : أن صاحبه معذور لقوة الوارد وضعف المورود عليه، وليس هذا الفناء بمقام محمود، أو منزل من منازل الصراط المستقيم، بل هو حال ناقص قد يعرض للبعض، فيعذر فيه أو لا يعذر، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي : عظّمنه، أي : أعظمن شأنه ووقع في قلوبهن هيبة له وإجلال، والله – سبحانه – يكرم عباده الصالحين بما شاء، فيلقي في قلوب الخلق تعظيمهم ومحبتهم وتقديرهم، حتى لو آذوهم لما يريد سبحانه من حفظ أوليائه، وإقامة الحجة بهم على خلقه، وقولهن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ قال مجاهد وغيره : « معاذ الله »، وهذه الكلمة تستعمل بمعنى التسبيح والتنزيه لله عن النقص والسوء، ولا شك أن ذكر الله بالتنزيه، وذكر الملك ووصفه بالكرم من النسوة، دليل على انتشار العقائد الإيمانية في وسط المجتمع المصري في ذلك الوقت، وإن كان لا يلزم أن أكثر الناس قبلوها، لكن الذي يظهر – والله أعلم – أن ذلك أثر من آثار وجود يوسف عليه السلام بينهم، وحالهم إجمالاً وُصف في القرآن

بأوصاف، أقل سوءاً بكثير من أوصاف فرعون وملإه، من ذلك ما ذكرنا قبل من ذكر الاستغفار، وهنا التنزيه لله وذكر الملائكة بالوصف الكريم، ثم ذكر النفس الأمارة بالسوء وذكر الرب بالمغفرة والرحمة في قول امرأة العزيز: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وذكر الملك بوصف الملك لا الفرعون، فإن فرعون كل من ملك مصر كافراً، فقد يكون في هذا إشارة إلى ما قال مجاهد: أن الملك الكبير كان مسلماً، وهذا ليس بمستبعد مع تعظيمه ليوسف وطاعته لأمره، وقد ذهب بعض الأفاضل لأجل هذا أن يقول: أن هؤلاء ليسوا من المصريين القدماء الفراعنة، بل إنهم من الهكسوس الذين ذُكِرَ في التاريخ أنهم احتلوا مصر مدة من الزمن، وهذا ليس بظاهر، بل الظاهر أنهم أهل مصر القدماء المعروفين، لقول الله تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ [غافر: ٣٤]، وهذه الآية دليل على عدم استجابتهم - في الجملة - لدعوة يوسف، ولا يمنع أن يكون بعضهم، بل وحتى بعض الملوك قد أسلم، فإن العبرة بالأعم والأغلب، فهؤلاء كانوا في شك مما جاءهم به يوسف من البينات، ورغم أن النسوة قد نزهن الله - سبحانه -، إلا أن ذلك لا يمنع استمرار الكيد والمكر لنيل الفاحشة، فلا تغتر لمجرد صدور كلمات طيبة من البعض، أو وجود ذكر الله - سبحانه -، أو بعض المعرفة بالأسماء والصفات وبعض أمور الدين، فالالتزام أمر وراء ذلك، وإنما هو علم وعمل وسلوك، وكم ترى في زماننا من فاجرٍ أثيم، يمسك المسبحة ويدندن ببعض كلمات الذكر، وهو على عتوه وفجوره، بل ربما سمعنا في زماننا عن حج الراقصة الفلانية، ونفقة الفنانة الفلانية للفقراء، وحضور الظالم العاتي الفلاني مجالس الذكر، وسماعه كلمات الوعظ، ومواظبة المجرم المعتدي الفلاني على صوم الإثنين والخميس أو صلاة الضحى، وهم

في ذلك كله مواظبون مستمرون على فسادهم، فهو من جنس ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ التي بدأ النسوة بها كلامهم، في كل مرة ورد في القرآن ذكر كلامهن، هنا وعند سؤال الملك لهن عن مراودتهن ليوسف عن نفسه، وهن مع التسبيح والذكر على المكر والكيد والمراودة ليوسف، وقبول عذر امرأة العزيز غير المقبول عند الله – سبحانه –، وإنما هو مقبول عند الجاهلين، وهذا وأضعافه من الإنفصال بين معاني الإيمان والمعرفة والذكر، وبين حقائق العمل والسلوك، هذا الانفصال المدمر المحبط لأنواع كثيرة من الخير، هذا الانفصال الذي لو تقرر في النفوس كما يزعمون « هذه نكرة وهذه نكرة »، ربما أدى إلى استحلال المعاصي وإباء امتثال الشريعة – والعياذ بالله – بزعم أن الشرع له مجاله، والحياة لها مجالها، فيزول الإيمان بالكلية، ويحصل الكفر والعياذ بالله، فعند القوم (ليس كل ما يُحَرّم يُجَرّم)، وهذه زندقة ونفاق أكبر لا يبقى معه أصل الدين، وقد لا يصل الأمر إلى الاستحلال، لكن يبقى الإصرار والتكرار، وهو وإن لم يحبط أصل الإيمان، إلا أن صاحبه على خطر عظيم، ويكفي فيه إنه لا صغيرة مع الإصرار، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فلا يغترن أحد ببعض مظاهر الطاعة والذكر، وإن كانت خيراً في نفسها بلا شك، وأفضل من عدمها، لكنها ليست علامة على النجاة، ولا كافية في تحصيلها على أي حال .

وقول النسوة : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ ، مبالغة منهن في وصف جمال يوسف، وأنه لا يحصل في البشر، وإنما يتصور – في ظنهن – في الملائكة الكرام، لأن الإنسان وإن كان لا يرى الملائكة، إلا أنه يعلم كرمهم وحسن خلقتهم، فهو يتصور صورتهم في أحسن صورة، تفوق ما يُعلم عن جمال البشر، وقرأ بعضهم ما هذا بِشرًى، أي : بمشتري شراء، وهذا بعيد لمخالفته الرسم، فإنه كان ينبغي لو كان كذلك أن يكتب بالياء لا بالألف، والله أعلم .

هنا اعترفت امرأة العزيز، وجهرت بفضيحتها أمام قريناتها فقالت: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾، وقد يتعجب المرء من هذه الجرأة وقلة الحياء، أن تقول أمام يوسف وأمام النسوة مؤكدة ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾، ولربما استحيت المرأة العفيفة أن تراود زوجها، فضلاً عن أن تقول أمام غيرها، وخصوصاً النساء أنها تراود الرجل عن نفسه، فكيف بمراودة في الحرام .

كيف يضيع الحياء إلى هذا الحد ؟ لكنها البيئة الدنيئة التي لا تعرف إلا الشهوات، وتقدسها وتقدمها وتعظمها، فأهل الفساد مع بعضهم يجهرون بمنكراتهم، وهذه معصية إضافية على معصية الفساد نفسه، كما قال تعالى عن لوط عليه السلام في إنكاره على قومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل : ٥٤]، وقال : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩]، فالفاحشة عظيمة، وأعظم منها أنهم يأتونها في ناديهم ومجتمعهم، أمام بعضهم وهم يبصرون مثل أهل الفواحش من زماننا، لم يكتفوا بفعلهم للفواحش، حتى صوروا أنفسهم في أفلام السينما والتلفزيون والفيديو، وعلى صفحات الجرائد لكي يراهم الناس، ليس فقط في نواديهم بالعشرات، بل يراهم العالم كله بالملايين، أي انتكاس في الفطرة يمكن أن يصل إليه الإنسان باتباع الشهوة ؟ بل إن الأمر قد يزداد ويصل إلى المفاخرة بالإثم وفعل الفاحشة، وهذا أغلظ في العقوبة، وقد قال النبي ﷺ : « **كل أمتي معافى إلا المجاهرين** » (١)، فكيف بالمفاخرين؟ وإن كان لزاماً علينا أن نفرق هنا أيضاً بين هذه الافتخار، وبين الاستحلال، فإن البعض جعل مجرد فعل الفواحش تباهياً بذلك في مجالس الفسوق، كفراً ناقلاً عن الملة بزعم أنه استحلال،وليس كذلك، فهو نوع غليظ من المجاهرة والاستخفاف بالمحرمات، وإنما الاستحلال إعتقاد حل المعصية، أو إباء قبول الشرع والانقياد له، أما ذكر المعاصي تباهياً، فهي معصية

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٦٠٦٩) الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) الزهد .

إضافية تقترب بصاحبها من خطر الاستحلال، ويخشى عليه من الوقوع في الكفر، فإن المعاصي بريد الكفر فكيف بالمجاهرة ؟! فكيف بالمفاخرة ؟! ولا أعلم أحداً من أهل العلم من أهل السنة والجماعة، جعل ذكر العصاة لمعاصيهم أمام بعضهم على سبيل التباهي بها، استحلالاً ناقلاً عن الملة، والله أعلم .

وتأمل في عاقبة قول امرأة العزيز مجاهرة بفجورها هنا أمام النسوة، ثم في ذلها وهوانها في اعترافها بفضيحتها، أمام الملك وملئه والنسوة أيضًا بعد سنوات، وهي تقول : ﴿ **الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾، والله إنه لذل عظيم أن تضطر المرأة أن تقول بحضرة الرجال والنساء والملأ، أنها راودت الرجل عن نفسه، وأنها تسببت في سجنه ظلمًا وعدوانًا، لكنها عاقبة المعصية وشؤمها، وعَدْلُ الله – سبحانه – في خلقه .

وانظر في عز يوسف عليه السلام كيف كان ﴿ **فَاسْتَعْصَمَ** ﴾ في هذا المقام، جريمة يتوعد عليها بالسجن والصغار، ثم صار بعد سنوات سببًا للنصر والتمكين، فالعز كل العز في طاعة الله، والذل كل الذل في معصيته، أبى الله إلا أن يذل من عصاه، فهم والله وإن هملجت بهم البغال، وطقطقت بهم البراذين، أوقل في زماننا، هم والله وإن سارت بهم المواكب، وتعالت لهم الهتافات، وارتفعت لهم بالمديح والثناء الأصوات، إن ذل المعصية لفي رقابهم، كما قال الحسن البصري – رحمه الله –، قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ** ﴾ [فاطر : ١٠] .

انظر كيف بار مكر امرأة العزيز، أرادت سجن يوسف، فكان خطوة إلى السعة والتمكين التي لاسعة بعدها، وأرادت أن يكون من الصاغرين، فأذلها الله هي، وجعلها من الصاغرين أعظم الصغار، وإذا رأيت هذا فتذكر دائمًا إذا رغبت إلى معصية الله، وترك طاعته تذكر : ﴿ **فَاسْتَعْصَمَ** ﴾ ، فإن طلب العصمة إنما يكون من

الله، والاعتصام يكون به – عز وجل –، فهو مقلب القلوب والأبصار ومصرفها، فاستعصم بالله – عز وجل – ينجيك الله من كيد العبيد .

أخي إن كنت بالله مستعصمًا فماذا يضيرك كيد العبيد

وما أقبح قول امرأة العزيز : ﴿ **وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ** ﴾، إنه والله غير مقبول في أي فطرة سليمة، أو شرع متبع، كيف تكون المعاشرة بأمر، ومن مَن ؟ من المرأة ؟ كيف تكون الرجولة إذن ! فضلاً عن الديانة والتقوى ؟ لو تصورنا استجابة مستجيب لهذا الداعي المحرم، كيف تكون صورته وحاله ؟ يصبح كالتيس أو الثور المعد للضراب، بل والله أحقر وأذل من ذلك، خاصة أن النسوة الأخريات في الانتظار، حاش لله أن يستجيب يوسف عليه السلام، بل من هو أدنى من يوسف من عباد الله الصالحين لمثل هذا الداعي، كما قال النبي ﷺ : « **سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه** »(١) أخرجه البخاري ومسلم .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « قال بعضهم لما رأين جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال . » أ.هـ. وهذا الكلام ضعيف جداً، فإن هذه النوعية من النساء لا تعجبهن هذه العفة، ولا يستحسنّ هذه الصفة، فهي عندهنّ تخلف ورجعية، وتزمت وتشدد وتطرف، فأنى يكون ذلك إخباراً عن الصفات الحسنة الباطنة، بل هو عند القوم جريمة لابد لها من عقاب، إذا لم تقع منها توبة ورجوع، ولذا قالت تتوعده : ﴿ **وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾.

---

(١) متفق عليه : سبق تخريجه ص (٦٦) .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن، و ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أي: من الفاحشة، ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي: إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعًا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان فلا تكلني إلى نفسي ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه مع شبابه وجماله وكماله، تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك، خوفًا من الله ورجاء ثوابه . » أ.هـ.

وظاهر جداً من الآيات أن النسوة شاركن امرأة العزيز في المراودة، كما نص على ذلك القرآن في قول الملك للنسوة : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ فهن مراودات مع امرأة العزيز كل واحدة تريد لها دوراً، والعياذ بالله، وكذا في قول يوسف عليه السلام : ﴿ يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ فهي ليست واحدة فقط تدعو إلى الفاحشة بل جملة النسوة يدعونه، وكذا في قوله : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ فهن كلهن يكدن، وكذا في قوله : ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي : أميل إليهن، إذن كلهن كن يطلبن ويردن يوسف أن يميل إليهن، ضغط هائل ومحنة شديدة وبلاء عظيم واجهه يوسف بالاعتصام بالله والتقوى والصبر، فكانت العاقبة خير عاقبة من التثبيت والتوفيق والإعانة والحفظ ورفع الدرجات، ثم التمكين في الأرض بفضل الله – سبحانه – .

قال القرطبي – رحمه الله – (٤ / ٣٤١٦) : « أُكْرِهَ يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام خمسة أعوام وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريف

قدره، ولو أكره رجل بالسجن على الزنا ما جاز له إجماعًا، فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء، والصحيح أنه إن كان فادحًا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحَدَّه، وقد قال بعض علمائنا إنه لا يسقط عنه الحد، وهو ضعيف، فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين، ولا يصرفه بين بلاءين، فإنه من أعظم الحرج في الدين قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] » أ.هـ.

وهذا الذي ذكره – رحمه الله – من الخلاف في كون الضرب الفادح إكراهًا على الزنا، ينبغي أن يقيد بما إذا كانت المرأة هي المكرِهة الطالبة للفاحشة أو كانت غير معصومة كالحربية، أما إذا كانت هي مُكْرَهَة يريدون انتهاك حرمتها بفعل الفاحشة بها من قبل المكرَه، فلا ينبغي أن يُختلف في ذلك، فلربما كان انتهاك العرض أغلظ من القتل عندها، وقد قال القرطبي– رحمه الله – (٥ / ٣٧٩٩) : أجمع العلماء على أن من أُكْرِهَ على قتل غيره، أنه لا يجوز له الإقدام على قتله، ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره، ويسأل الله العافية في الدنيا والأخرة » أ.هـ.

وهذا الإجماع الذي ذكره في أنه لا يصح الإكراه في انتهاك حرمة البدن بقتل أو جلد أو غيره، يشمل الزنا واللواط فإنه أغلظ من الجلد بلا شك، بل ربما كما ذكرنا كان أشد على النفس من القتل، والجلد يتعلق به حق المجلود، والزنا يتعلق به حق المزني بها وأهلها من زوج وأب وولد وغيرهم، وكذا في اللواط فلا ينبغي أن يكون في ذلك اختلاف، والله أعلم . ثم قال القرطبي –رحمه الله– : « واختلف في الزنا، فقال مطرف وأصبغ ابن الحكم وابن الماجشون : لا يفعل أحد ذلك وإن قتل لم يفعله، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحد، وبه قال أبو ثور والحسن، قال ابن العربي : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنا، ولا حد عليه خلافًا لمن ألزمه ذلك . » أ.هـ.

وهذا الذي صححه ابن العربي هو الصحيح بالقيد الذي ذكرنا من كون المرأة غير معصومة أو هي التي تكرهه، وذلك لعموم أدلة الإكراه ولقوله تعالى: ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٣٣]، والمرأة والرجل في حكم الزنا سواء خاصة في الإكراه غير الملجيء (١)، لأنه هو المتصور في حق الرجل، أما المرأة فيتصور في حقها الإكراه الملجيء باغتصابها رغمًا عنها، وهذا يسقط التكليف بالكلية، ولا توصف بالزنا لأنها لم تفعل شيئًا، ويتصور الإكراه غير الملجيء بالضرب والتعذيب، وهو لا يسقط التكليف بالكلية لكن يسقط التحريم والإثم والحد على الصحيح، وهذا النوع من الإكراه هو سبب نزول الآية، فإنها نزلت في إكراه عبد الله بن أبي بن سلول جاريتين له على البغاء بالضرب والتعذيب (٢)، فإذا غفر الله لهن الزنا لهذا الإكراه فالرجل مثل المرأة فيه،، والذي يختلف فيه الرجل عن المرأة هو أن الإكراه الملجيء غير متصور في حق الرجل لأنه لابد أن ينتشر، ولا ينتشر (أي لا ينتصب ذكره) إلا بالشهوة والإرادة، ومن هنا قال من قال من العلماء لا يكره الرجل على الزنا.

قال القرطبي – رحمه الله –: « قال ابن خويزمنداد في أحكامه: اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنا، فقال بعضهم: عليه الحد لأنه إنما يفعل ذلك باختياره، وقال بعضهم: لا حد عليه، قال: وهو الصحيح، وقال أبو حنيفة: إن أكرهه غير السلطان حُدَّ، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحد، ولكن أستحسن أن لا يحد، وخالفه صاحباه فقالا: لا حد عليه في الوجهين (أي سواء كان

---

(١) الإكراه غير الملجيء المقصود به: الإكراه الذي يبقى معه للمكلف قدرة وإرادة، وهو يفعل الفعل بإرادته لكنه أراد الفعل تخلصًا من ألم الضرب أو التعذيب أو الحبس، أو دفعًا لخطر القتل ونحوه، وأما الملجيء فهو: الذي لا يبقى معه أي قدرة للمكلف بل يصير كالآلة في يد المكره، كمن قُيد ثم أُلقي على غيره فقتله، أو قيدت المرأة واغتصبت وهي عاجزة عن الدفع، أما إذا عذبت على أن تسلم نفسها ففعلت، فهذا غير الملجيء.

(٢) رواه مسلم (٣٠٩٢).

السلطان هو المكرِه أو غيره) ولم يراعوا الانتشار، وقالوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنا جاز أن ينتشر، قال ابن المنذر : لا حد عليه ولا فرق بين السلطان في ذلك وغير السلطان . » أ.هـ.

والمقصود أن استجابة من يكره على الزنا بالسجن غير مقبول إتفاقًا، وإن كان الخلاف في ما إذا كان الإكراه بالقتل أو التعذيب، وقد بيّنا ذلك والراجح فيه إن شاء الله .

وأما قول امرأة العزيز : ﴿**وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**﴾، فهو خلل في موازين العزة والصغار، وما أعظمه لدى عباد الشهوات والمترفين، ذلك أن السجن في هذه الحالة هو العز والشرف والكرامة، والاستجابة لمطلبها الفاجر هو الذل والصغار والهوان والضياع والجهل والحسرات، ولذا كان الجواب من يوسف عليه السلام واضحًا بلا مساومة ولا تردد : ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ و ﴿**أَحَبُّ**﴾ هنا ليست على بأنها من أفعل التفضيل، لكن المقصود أن السجن في طاعة الله يكون محبوبًا، والحرية في معصية الله تكون مكروهة، وهي كذلك بلا شك عند كل ذي عقل ولب، فإن السجن وإن كان حبسًا للبدن عن الانطلاق، إلا أنه إذا كان في سبيل الله كان سببًا لانطلاق الروح من أسر العادات والتقاليد والعلاقات الأرضية كلها، ليرتبط الإنسان بربه سبحانه بعلاقة العبودية على ما يحب المرء أو يكره، في السراء والضراء في العسر واليسر، والحرية في المعصية هي للبدن، لكن الروح والقلب يكون أسيرًا محبوسًا في ذل اتباع الهوى، فالمأسور من أسره هواه، والمحبوس من حبسه قلبه عن ربه، فأي الحريتين يختار العاقل ؟ وأكثر الخلق من الجاهلين يختارون حرية البدن وحبس الروح، فلا يسعدون بتلك الحرية، بل يجدون من أنواع الشقاء والنكد ما لا يدرون ما وجهه ولا من أين يأتيهم، وأهل العلم والإيمان يختارون حرية الروح ولو بحبس البدن الذي سرعان ما يزول أثره،

فالإنسان إذا تعود على نمط معين من الحياة مهما كان قاسيًا، سهل عليه تحمله، وسرعان ما تزول حقيقة هذا الحبس أيضًا بأسباب من عند الله - عز وجل -، وأعظمها التوفيق للدعاء والتضرع إلى الله سبحانه، فيجمع الله لعبده المؤمن كل خير ويرجع الجاهلون بالصفقة الخاسرة، نسأل الله أن يفك أسر المأسورين من المسلمين في كل مكان .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

يذكر الله منته على يوسف باستجابة دعائه، وصرف كيد النسوة الفاجرات وعلى رأسهن امرأة العزيز عنه، وبَيَّنَ سبحانه أن ذلك مقتضى أسمائه وصفاته، فهو السميع لدعاء عباده وكلامهم، العليم بما في قلوبهم وجميع أحوالهم، وهو - عز وجل - القريب المجيب يجيب دعاء الداعي إذا دعاه، وهو الحفي بعباده المؤمنين عَوَّدهم الإجابة وأنه لا يضيعهم، بل يختصهم بفضله والله ذو الفضل العظيم، ويجعل مع العسر يسرين، ثم يجعل بعده يسرًا كما قال سبحانه : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥-٦] فهذان يسران مع العسر وقال : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] فهذا يسر بعد العسر، فأي رحمة أعظم من رحمة أرحم الراحمين بعباده المؤمنين ؟ كان دخول السجن استجابة دعوة لأنه تضمن صرف الكيد بالمعصية، كان فيما يبدو للناس صغارًا، لكن في الحقيقة كان عزًا وسبيلاً إلى العز ظاهرًا، كان فيما يبدو للناس ضيقًا، فجعله الله سبيلاً إلى السعة، ومقدمة للتمكين الأتم، والملك الأعظم، والتحرر من أسر الرق بعد التحرر من أسر الهوى والشهوة، الذي رمى بامرأة العزيز في الذل والهوان، والحمد لله على قسمته العادلة ونعمته السابغة وفضله العظيم .

حكم جائر وقرار ظالم

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

مجتمع ظالم معتد، وطبقة حاكمة جائرة، تلك التي تعرف الظالم وتكافئه، وتعرف المظلوم وتعاقبه، تظهر لها أدلة براءة البريء وتوقن بأدلة بل باعتراف جرم المجرم، ثم يكون الحكم الجائر هو نفوذ داعي الشهوة وامتثال أوامر النساء، والمحافظة على ظاهر وجاهة الوجهاء، ولو على حساب أعراض المظلومين، قرروا سجن يوسف إيهامًا للعامة أنه هو الذي راود امرأة العزيز، وأنهم سجنوه لذلك، ولئلا يشيع ما كان منها في حقه ويبرأ عرضه، فتفتضح كما قال ذلك السدي – رحمه الله –، وظنوا أن المصلحة في ذلك، ولا شك أن التي أوهمتهم بذلك امرأة العزيز لتنتصر لنفسها عن إهانة يوسف لها بعدم الاستجابة لها، وما أقبح هذا الظن، بل كان مفسدةً محضةً في حقهم جميعًا : العزيز والمرأة والنسوة، فالعاقبة لمن تأمل العواقب كانت زوال ملك العزيز ووزارته، وانتقال ذلك إلى يوسف، بل صار إلى عز أعظم من عز العزيز، لأن الملك الأكبر كانت طاعته ليوسف وتسليمه أمره وظنه به أعظم بكثير مما كان للعزيز، والمرأة افتضحت هي والنسوة أعظم فضيحة، فأي مفسدة أشد من هذا، فالحمد لله الذي جعل صلاح الدنيا والآخرة في طاعته ورضاه، وجعل فساد الدنيا والآخرة في معصيته وسخطه .

والسجن من العقوبات القديمة، وهو عريق في مصر خصوصًا فأنت تجد قوم نوح هددوه بالرجم، وقوم لوط هددوه بالإخراج، وقوم إبراهيم أرادوا إحراقه، ولم نسمع بأمة قبل المصريين القدماء تهدد وتعاقب بالسجن فسجنوا يوسف،

وقال فرعون لموسى : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] والسجن الطويل عقوبة فظيعة مدمرة، لذا لم يرد لها ذكر في الحدود الشرعية في الإسلام، وإنما كان في فترة مؤقتة عقوبة للزواني، ولم يكن حبسًا في سجن بل في البيوت، قال تعالى : ﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ [النساء : ١٥]، ونسخ ذلك بالجلد والرجم كما قال النبي ﷺ : « **خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مئة والرجم** »(١) رواه مسلم، ولم يرد في الإسلام حبس طويل « **وإنما حَبَسَ رسول الله ﷺ في تهمة** »(٢)، والظاهر أنها مدة وجيزة واتخذ عمر سجنًا بمكة، لكن لم يعرف عنه قط حبسٌ لمدة طويلة كالسنوات المؤبدة ومدى الحياة، تلك العقوبات الجائرة التي اخترعها الغرب وجعلها عمدة تشريعاته العقابية الكافرة الظالمة، ويزعم أنها مراعاة لحقوق الإنسان، وهي الجائرة على حقوق الإنسان التي شرعها الله له، وهذا السجن غير الشرعي لا يزيد الأمر إلا سوءًا بالنسبة لأهل الإجرام، ولا يغير سلوكهم بل يزدادون تفننًا في الإجرام في داخل السجون، فتزداد المشاكل وتتعقد الأمور، ولو أنهم كانوا يفقهون لعلموا أن حدود الشرع هي العقاب والعلاج والشفاء لأمراض الأفراد والمجتمعات .

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٠) الحدود ، والترمذي (١٤٣٤) الحدود ، وأبو داود (٤٤١٥) الحدود ، وابن ماجة (٢٥٥٠) الحدود ، وأحمد (١٥٤٨٠) المسند ، والدارمي (٢٣٢٧) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي (١٤١٧) الأحكام ، والنسائي (٤٨٧٥) قطع السارق ، وأبو داود (٣٦٣٠) الأقضية ، وأحمد (٥ / ٢) في مسنده ، والبيهقي (١١٠٧٣) الكبرى .

يوسف عليه السلام في منحة المحنة

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ .

يقدر الله البلاء ويقدر معه أسباب الفرج، فالإنسان في دخوله السجن لا يختار من يدخل معه، بل كل واحد له قصة في دخوله تختلف عن قصة صاحبه، لكن يقع الاقتران في توقيت الدخول، فقدر الله أن يدخل السجن مع يوسف عليه السلام من يكون سببًا في يوم من الأيام لخروجه من السجن ووصول خبره للملك حتى يطلبه ويبحث أمره، ثم يأمر بالإتيان به ويسمع منه ويعجب به، ثم يوليه خزائن الأرض، فسبحان من يدبر الأمر بعلمه وحكمته، و يسر ليوسف سبب الفرج والخروج يوم الضيق والدخول للسجن، فقدر دخول فتيين السجن مع يوسف، وأن يرى كل منهما رؤيا يبحث عن تأويلها، أحدهم فيما ذكر قتادة: ساقي الملك، والآخر : خبازه، قال السدي : « كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة - صلوات الله عليه وسلامه -، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حبًا شديداً، وقالا له : والله لقد أحببناك حبًا زائداً . » أ.هـ. نقلاً عن ابن كثير رحمه الله .

ويشهد لما ذكره السدي - رحمه الله - قوله تعالى عن الفتيين : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فكل من يرى يوسف يلحظ إحسانه وجوده وكرمه وحسن خلقه كما قال له إخوته وهم لا يعرفونه : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ

أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهكذا ينبغي أن يكون المؤمن والداعية خصوصًا حيثما حل وفي أي وضعٍ كان، فقد رأى الفتيان يوسف من المحسنين وهو معهما مسجون، ورآه إخوته من المحسنين وهو العزيز في ملكه وسلطانه، فهو يسع الناس بخلقه الحسن وسمته وعطفه وشفقته قبل أن يسعهم بعطائه، بل ولربما كان الجود والإحسان بالكلمة الطيبة أعظم أثرًا من الجود بالمال، ولربما كان عطاء المال مع شح النفس بالخير والشفقةِ والنصحِ أو مع المن والأذى يتمنى الآخذ معه رد العطية، ولو كان مكانها كلمة طيبة لكان خيراً له، فلا تظنن أنك لو كنت فقيراً لا تستطيع أن تكون محسنًا، بل الجود بالخلق والإحسان بالمعاملة أعمق أثرًا في نفوس الخلق من عطاء المال والجاه .

ولقد كان يوسف الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم في المحل الأعلى في الكرم والجود في سجنه وفي ملكه، وعلى الإنسان أن يعلم واجب الوقت ويعمل به، فقد دخل يوسف السجن فلم يستسلم لهمٍ ولا لحزنٍ ولا كثرة فكرٍ وحديثٍ في الظلم الذي وقع عليه، وإنما انشغل بالعبادة، وهي الإحسان فيما بينه وبين الله، وحسن معاملة رفقائه في السجن، والصدق والأمانة وعيادة المرضى والقيام بمواساتهم والتخفيف عنهم وتعبير مناماتهم ـ وما أكثرها في السجون ـ وهذا هو الإحسان فيما بينه وبين الناس وللعبادة أثر عظيم في تحصيل الإحسان للناس وحبهم وتآلفهم، فإن الإحسان للخلق هو ثمرة الإحسان بعبادة الله ، لأن القلب يحصل له غنى لا يشبهه غنى بعبودية الله – عز وجل – ، فيفيض على من حوله من آثار هذا الغنى بالله – سبحانه – في كف الأذى عنهم وتحمل أذاهم والسماحة معهم، حتى لو قصروا في حق من حقوقه سامح ولم يستوف حقه جودًا وكرمًا وحبًا للعطاء، وكل من تقرب إلى الله – عز وجل – حصل له بمقدار قربه نصيب من ذلك بحسبه، وهذا الإحسان بنوعيه من أعظم

أسباب نجاح الدعوة إلى الله، والداعي إلى الله ينبغي أن يكون حريصًا على تحصيل الإحسان لتصل دعوته إلى القلوب، وتحصل محبته في نفوس الخلق، وذلك أدعى إلى قبول قوله، فالدعوة بالسلوك مقدمة الدعوة بالكلام، ولا يمكن أن تنجح دعوة داعي لا يحسن عبادة ربه – عز وجل –، فكيف يقبل الناس على من ليس في وجهه نور السجود، **فإن للعبادة نوراً في الوجه ومحبة في قلوب الخلق** (١)، وكذلك كيف يقبل الناس على من لا يحسن معاملتهم ويكرمهم ويشفق عليهم، حتى لو حَسُن كلامه، وبَلَغت خُطْبَته، وقَويَ علمه، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وكثيراً من الدعاة قد يهمل أحد هذين الأمرين في دعوته أو كليهما، فلا تثمر الدعوة ثمرتها في القلوب، حتى لو كثر السامعين وأعجب بالكلام المعجبين، إن ثمرة الدعوة إلى الله إنما تكون بحسب حال قلب الداعي وامتلائه بحب الله وعبوديته والغنى به، قبل أن تكون بقوة المنطق وبلاغة الألفاظ، وكان يوسف عليه السلام في ذلك الأسوة الحسنة، مستغلاً أثر الإحسان إلى الناس في أسر نفوسهم وحب قلوبهم في دعوتهم إلى التوحيد ودين الله – عز وجل – .

رأى أحد الفتيين وهو الساقي على ما ذكروا أنه يعصر عنبًا، وهكذا هي في قراءة ابن مسعود، ورأى الثاني وهو الخباز أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، وما ذكر عن ابن مسعود أنهما إنما تحالما ليجربا على يوسف ليس عليه دليل، وهو خلاف ظاهر القرآن والأكثرون على خلافه، والرؤى في السجن لها شأن عجيب يعرفه من جرب هذا وشهد وسمع تجربة الآخرين، فالسجن تجربة فريدة،

---

(١) قال ابن عباس : « إن للحسنة نوراً في القلب ، وضياءً في الوجه ، وقوة في البدن ، وزيادة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً في الوجه ، وظلمه في القلب ، ووهنًا في البدن ، ونقصًا في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق » .

وانتقال للروح والبدن، ومرحلة خاصة في حياة الإنسان، ومن رحمة الله بخلقه – مؤمنهم وكافرهم – أنه يؤنس وحشة قلوبهم في السجن بما يرون من رؤى، كأن الأرواح تقفز بها خارج الجدران الضيقة وتتجاوز حدود المكان إلى أفق الحياة الأوسع، وكما ذكرنا أن الحرية حريتان والحبس حبسان، حرية للروح والبدن، وحبس للروح والبدن، فلو قَدَرَ الناس على حبس البدن، فلا يقدرون على حبس الروح، ومع الإيمان والصدق يكون للرؤى شأن آخر مع أن الرؤيا قد يراها كافر، وتكون صادقة لكن مع الإيمان الشأن يختلف، وفي آخر الزمان لا تكاد تخطىء رؤيا المؤمن الصادق، كما في حديث أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ : « **إذا تقارب الزمان لم تكد تخطيء رؤيا المؤمن** » (١)، وهذا من الرحمة الخاصة بعباد الله المؤمنين، وهو سبحانه أرحم الراحمين .

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٧٠١٧) التعبير ، ومسلم (٢٢٦٣) الرؤيا ، والترمذي (٢٢٧٠) الرؤيا ، وأبو داود (٥٠١٩) الأدب ، وابن ماجة (٣٩١٧) تعبير الرؤيا ، وأحمد (٧٥٨٦) المسند .

دعوة إلى الله في كل مكان

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ .

الداعي إلى الله يستغل حاجة الناس إليه في دنياهم لدعوتهم إلى الله سبحانه – من غير منّ ولا أذى –، ولكن بكمال الشفقة والبحث عن مصلحة دينهم قبل مصلحة دنياهم، ويجعل الدنيا مدخلاً للدين، ويذكر ما علّمه الله إياه وما أقدره عليه من قضاء حاجات الناس مع نسبة الفضل لله – عز وجل – والنعمة له سبحانه، وأن هذا الفضل وهذه النعمة إنما هي بسبب فضل أعظم ونعمة أتم هي نعمة اتباع الدين الحق وترك الأديان الباطلة، فإن هذا الأسلوب من أعظم ما ينبه القلوب الغافلة ويوقظ الفطرة المستكنة التي سترتها ضلالات الشرك وغطتها غشاوات التقليد الأعمى، وينبغي أن يراعى في التقديم والتأخير في هذا المقام أعني هل يقدم دعوتهم على قضاء حاجتهم، أم يقدم قضاء حاجتهم ثم يدعوهم بعد ذلك، أم يشارطهم أصلاً فلا يسعى في قضاء حاجتهم إلا إذا استجابوا للحق، ينبغي أن يراعي أحوال الناس ونوعيتهم وشدة حاجتهم والمصلحة والمفسدة في ذلك، فقد قدم يوسف مع صاحبيه في السجن دعوتهم قبل قضاء

حاجتهم بتأويل الرؤيا، وأما مع الملك فقدم تأويل الرؤيا مجانًا بل وزادهم ما ينبغي عمله وبشارة إضافية ليست في الرؤيا بالفرج بعد الشدة كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وغلام أصحاب الإخدود كان يشارط الناس ومنهم جليس الملك الأعمى فقال له : إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله – تعالى –، فإن شئت آمنت بالله، فدعوت الله لك فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله – تعالى –، وهذا والله هو المناسب مع كل منهم، فإن الملوك والكبراء لو شارطهم الداعية مع عدم شعورهم بشدة الحاجة لربما كان سببًا في رفضهم الدعوة وإظهار العناد وعدم الحاجة إلى المصلحة الدينية والدنيوية، بخلاف حاجة المريض المتألم، شديد الحاجة مثل من عمي بعد بصره، فإنه لن يظهر مثل هذا العناد فيناسبه المشارطة، وأما مثل حاجة سجين في تأويل رؤيا، فهو متشوق متطلع إلى معرفة مآله ووقت خروجه من السجن، فناسبه أن يُدعى أولاً وهو متشوق ثم تقضي حاجتة دون مشارطة .

فالذي فعله يوسف عليه السلام فقه عظيم ينبغي على الداعي إلى الله أن يقتدي به فيه، ويجعل ما أقامه الله فيه من مصالح الناس في دنياهم سببًا لإرشادهم لصلاح دينهم وأخراهم، ولا يقتصر في الدعوة على رسوم معينة وصور خاصة كدرسٍ أو خطبةٍ أو محاضرةٍ، بل إن دعوة الناس أثناء قضاء حوائجهم ربما كان أكبر أثرًا في نفوسهم من سماع خطبة أو محاضرة فإن الإنسان أسير الإحسان، وتأمل كيف كان « **مَنُّ رسول الله ﷺ على ثمامة بن أثال** » (١) من غير فداء ولا حتى مشارطة سببًا في هدايته، وفي ثلاثة أيام تحول التحول الهائل فقال والله ما كان من دينٍ أبغض إليّ من دينك، فأصبح أحب الدين إليّ، وما كان من وجهٍ أبغض إليّ من وجهك، فأصبح أحب الوجوه إليّ، وما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح أحب البلاد إليّ، وإن الداعي إلى الله ليكتسب بكونه في موضع حاجة

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٤٣٧٢) ، ومسلم (١٧٦٤) .

الناس وبمخالطتهم لهم في حياتهم ما لا يمكن تحصيله بوسائل الدعوة المباشرة .

ولا مانع في هذا المقام أن يذكر الداعي – مع الاجتهاد في تخليص نيته لله سبحانه – ما خصه الله من فضل وما أنعم عليه من الصفات علماً وعملاً، ليرغب الناس فيه وفي دعوته، ليس لحظ النفس والوجاهة في قلوب الخلق، بل حبًا لانقيادهم للحق وحرصًا على إقبالهم على العلم ورغبة في استجابتهم للدعوة، كما قال يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن : ﴿ **لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ** ﴾ ، أي : في المنام كما قال مجاهد والسدي، ﴿ **إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي** ﴾ فذكر ما خصه الله من علم تأويل الحديث، وكذا قال للملك : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ ، ومن هذا الباب قول عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن بعض شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « على الخبير سقطت » (١)، وقول ابن مسعود رضي الله عنه : « والله لو أعلم أحداً أعلم منّي بكتاب الله تضرب إليه أكباد الإبل لفعلت » (٢)، ونحو هذا مما ليس من باب تزكية النفس المذمومة، بل من باب الدلالة على الخير والحرص على انتفاع الناس بما عنده، ومن هذا الباب جاز لأصحاب المهن والصناعات أن يذكروا للناس ويكتبوا على أبوابهم الأنواع التي يتقنون صنعها، ويمدحون صناعتهم وخبرتهم وكذا ذكر الشهادات التي حصلوا عليها، ولكن كما ذكرنا لابد من بذل الجهد في تخليص النية فإنه مقام تزل فيه الأقدام، والفرق بين الحق المأذون فيه والمأمور به، وبين الباطل المنهي عنه من الفخر والخيلاء والعُجْب أدق من الشعرة وأحد من السيف، والله المستعان، وهو أعلم بما في القلوب والضمائر، ونسأله – عز وجل – أن يجعل أعمالنا كلها صالحة وأن يجعلها لوجهه خالصة لا يجعل لأحد فيها شيئًا .

---

(١) رواه مسلم(٣٤٩) ، ابن خزيمة(٢٢٧) ، وأبو عوانة(٨٢٧) مسنده ، والبيهقي(٧٤٤) الكبرى ، موقوفًا على عائشة رضي الله عنها.

(٢) متفق عليه : رواه البخاري(٤٧١٥) ، ومسلم(٢٤٦٣) ، والبيهقي(٢٢٧٠) شعب الإيمان .

وقول يوسف عليه السلام : ﴿ **ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي** ﴾ أي : هذا بتعليم الله إياي لم أكتسبه من قبل نفسي، ففيه نسبة النعمة إلى مسبغها على العبد، وهذا أثر من أثار التربية الإيمانية التي تلقاها في صغره حيث علمه أبوه أن النعمة من الله سبحان : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** ﴾، وتأمل كيف ذكر ربه باسم الربوبية المضاف إلى ضمير المتكلم ﴿ **رَبِّ** ﴾ لأنها نعمة خاصة وتعليم خاص وإصلاح خاص بمنه وكرمه سبحانه، ثم علل هذه النعمة الخاصة والتعليم بأنه ترك ﴿ **مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾، وهذا التعليل ﴿ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ** ﴾ يدل السامع على أن هذه النعمة والفضل له سبب من اكتساب العدل، وهو أيضًا من فضل الله عز وجل(١)، وهي دعوة واضحة مع تلطف لكي يتركوا الملة الباطلة التي هم عليها وقومهم من عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا التلطف في البداية يمنع نفرة النفوس لأول وهلة، فهو يريد هدم الباطل في قلوبهم، ولو قال لهم أنتم على ملة باطلة لا تؤمنون بالله وباليوم الأخر، لربما كان سببًا لنفرتهم فأخبرهم عن نفسه، فقال : ﴿ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾ وسوف يصرح لهم بعد لحظة بأنهم يعبدون الآلهة الباطلة ولكن بدأ بهذا الإسلوب الرائع اللطيف الذي لا تنفر منه النفوس، وفي نفس الوقت يكون مبينًا واضحًا في إبطال الباطل دون مجاملة ولا مداهنة، ومثل هذا الأسلوب تلحظه في مؤمن آل ياسين حيث قال لقومه : ﴿ **وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)** ﴾ [يس : ٢٢-٢٤] .

فهذا بلا شك أهون عليهم وأخف من أن يقول أنتم في ضلال مبين،

---

(١) وفيه فائدة أخرى هي أن البراءة من الشرك وأهله واتباع الحق وأهله سبب لتعليم الله لعبده ما لا يعلمه .

فالداعي إلى الله حين يذكر مسائل الإيمان بما في ذلك الكفر بالطاغوت على لسان نفسه وفي وصف حاله وما يجد من النعم بسبب ذلك، فإنه بذلك يدخل إلى النفوس من أقصر طريق وألين أسلوب مع نصاعة الحق ووضوح البيان .

ولابد أن نهتم في دعوتنا بأسس الإيمان وهي الإيمان بالله واليوم الآخر، فهما أعظم القضايا التي ركز في فطرة البشر البحث عنها وقبول الحق فيها، وفيها الإجابة على الأسئلة التي تواجه كل إنسان من نفسه : مَنْ خلقنا ؟ ولماذا خلقنا؟ وإلي أين المصير ؟، فالإيمان بالله يجيب على السؤالين الأوليين، فالله الخالق وهو المعبود هو خلقنا لنعبده، والإيمان باليوم الآخر يجيب على السؤال الثالث، فالمصير إلى الله والموت آت لا محالة وبعده البعث والنشور والثواب والعقاب، فالدنيا بأسرها يوم والآخرة اليوم الآخر، وهذه المسائل يشترك في البحث عنها الملوك والمماليك، والأغنياء والفقراء، والكبراء والحقراء، فلابد أن تبدأ الدعوة بها والتحذير من كل ملة ليس فيها الإيمان بالله واليوم الآخر، وتأمل في قوله ﴿ **مِلَّةَ قَوْمٍ** ﴾ منكرة ولم يقل ملة قومكم في أول الأمر من جنس قول النبي ﷺ : « **ما بال أقوام** » (١) مع وضوح المقصد، ولكنها مراعاة للنفوس الجاهلة التي تعاند دفاعًا عن قومها وتقليدًا لأشياخها .

ثم بعد بيان الإيمان بالله واليوم الآخر، شرع في بيان النبوة ومتابعته لملة الأنبياء آبائه، فهو تَرك الباطل وتَبِعَ الحق، هَدَم الجاهلية وسَلَك سبيل المرسلين فقال : ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ ، قال ابن كثير – رحمه الله– : يقول هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه

(١) رواه البخاري (٢٥٨٤) الأدب ، ومسلم (١٤٠١) ، وأبو داود (٩١٣) ، النسائي (٩٤٧) ، وابن ماجة (١٤٠) ، وأحمد (١١٠٠١) ، والترمذي (٢١٢٤) .

ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إمامًا يُقتدى به في الخير وداعيًا إلى سبيل الرشاد، وفي هذا بيان أنه لا يتحقق اتباع ملة الحق إلا بترك ملة الباطل، وتجد في قوله : ﴿مِلَّةَ آبَائِي﴾ اعتزازًا بالآباء الكرماء الأشراف الذين أنعم الله بهم عليه وعلى الناس، وهذا بلا فخر بل مع نسبة الفضل إلى الله وشكره على نعمته كما قال مع ذلك من : ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ فالتوحيد والنبوات أعظم نعمة وفضل ينعم الله به على الخلق، فالله – عز وجل – حين فرض علينا عبادته وحرم علينا الشرك به أنعم علينا أعظم نعمة : حررنا من العبادة للعبيد، وأعتقنا من التزام الرق لمن له شكل ونديد، وحين وفقنا للعمل بهذا الذي افترض علينا من توحيده وعدم الشرك به فقد أتم علينا النعمة التي كان ابتداؤها منه بلا سبب منا، وعصمنا من السجود لغيره، وقد خذل أمثالنا في الأبدان والأسماع والأبصار والأفئدة الذين ما أغنت عنهم أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وكانوا بها يستهزئون، فعبدوا الشياطين من دون الله، وسولت لهم نفوسهم وعقولهم عبادة الأشجار والأحجار المنحوتة التي هم نحتوها، أو الأشخاص من البشر والجن والملائكة بل ما هو أدنى وأدنى، من عبادة العجول والأبقار والجعارين والحيات والفئران والحشرات والصلبان وكل ما يخطر بالبال وما لا يخطر، وهم في ذلك تامة عقولهم في معاشهم ودنياهم وتدبير مصالح أولادهم وأموالهم، ربما صنعوا الصواريخ والقنابل الذرية وهم يركعون للبقرة ولها يسجدون، وربما جيشوا الجيوش وجندوا الجنود وملكوا الأرضين وصعدوا في الفضاء وهم يعبدون صليبًا اعتقدوا موت الإله عليه وبصق الناس عليه ودق المسامير في يديه وهو يصرخ بصوت عظيم إلهي إلهي لم تركتني فلا يجد من يجيبه حتى يسلم الروح، عجبًا والله لهذه العقول وتبًا لهذه الأفكار .

إذا تأمل الإنسان عقائد العالم، علم فضل الله عليه بالتوحيد ونبذ الشرك، وكان أحرص شيئ على شكر هذه النعمة بالثبات عليها والدعوة إليها ومحاولة إخراج الناس من ظلمات الجاهلية، وبذل الجهد لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، ﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل ودعوتهم إلى التوحيد، بل بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار .

وفي قوله عليه السلام : ﴿**مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ**﴾ بيان أن المشرك لا يؤمن بالله حتى لو أقر بوجوده – سبحانه – وببعض صفاته – عز وجل –، ذلك أنه قال عن القوم الكافرين أولاً أنهم لا يؤمنون بالله ثم قال : ﴿**مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ**﴾، فالشرك ينافي أصل الإيمان، سواء كان الشرك في الربوبية بأنه يعتقد مع الله أو من دون الله خالقًا أو رازقًا أو مدبرًا أو مالكًا أو سيدًا آمرًا ناهيًا مشرعًا للناس، أو كان في الألوهية بصرف العبادة من ركوعٍ أو سجودٍ أو دعاءٍ أو استعاذةٍ أو استغاثةٍ أو ذبحٍ أو نذرٍ أو حب عبادةٍ أو خوف عبادةٍ أو حلفٍ أو غير ذلك، أو كان الشرك في الأسماء والصفات بأن يعتقد للمخلوقين صفة الخالق – عز وجل – كالسمع المحيط والعلم بالغيب والقدرة التامة، أو بنفي صفات الرب – سبحانه وتعالى – وتشبيهه بالجمادات أو المعدومات، فكل أنواع الشرك تنافي الإيمان بالله إذ أن كثيرًا من الناس يظن أن الإيمان هو اعتقاد وجود الله حتى لو عبد غيره وأشرك به، وهذا في الحقيقة قول غلاة الجهمية والمرجئة وهو من أفسد الاعتقاد .

وتأمل تأكيد نفي الشرك بقوله : ﴿**مِن شَيْءٍ**﴾ فشيء : نكرة في سياق النفي فيعم كل الأشياء التي تعبد من دون الله من حجر وشجر وقبر ووثن وإنس وجن وملك وشمس وقمر وكوكب وشياطين وغير ذلك، وأكّد هذا بـ ﴿**مِن**﴾

حتى لا يتطرق إلى الجملة احتمال التخصيص بأي نوع من أنواع التخصيص لأي شيء في الوجود سوى الله سبحانه .

وفي قول يوسف عليه السلام : ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ كان ابن عباس رضي الله عنهما يجعل الجدّ أبًا في الميراث فيحجب به الإخوة، ويقول : والله من شاء لاعنته عند الحجر، ما ذكر الله جداً ولا جدة، قال الله تعالى – يعني إخباراً عن يوسف – : ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ رواه ابن أبي حاتم، يعني ما جعل الأجداد إلا آباء، وفي ذكر يوسف عليه السلام لأجداده – عليهم السلام – بلفظ الآباء لطيفة جميلة وهي الشعور بالقرب منهم، فشعور الإنسان بأبيه حبًا وتعلقًا أكبر بكثير من شعوره بأجداده، خصوصًا إذا تباعد الزمن فلربما لا يكون لأجداده الأبعدين تعلق على الإطلاق إلا مجرد حمل الاسم ودعوة صالحة، ندر في الناس من يرعى حق القرابة البعيدة، إلا إذا كان في الجد من الصفات الحسنة والمنازل العالية ما يظل الحفيد ذاكرًا لجده، أمّا إذا ذكره بلفظ الأب، فكأنّ الفارق الزمني قد طُوِيَ وشعر بالقرب الشديد والحب والمتابعة عن قرب، ومثل هذا المعنى تجده في قول الله تعالى للمؤمنين : ﴿ **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الحج : ٧٨] فهو حث على متابعة الإسلام لأنه دين إبراهيم وهو أبو المؤمنين الذي يحبونه أعظم الحب فكيف يخالفون ملته .

وتأمل كيف كان تعلق أبي طالب بأبيه عبد المطلب وتركه للإسلام وإبائه أن يقول لا إله إلا الله لقول أبي جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب، مع علمه بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وأن دينه هو أحسن الدين، ولكن قال : « يا ابن أخي ملة الأشياخ » (١)، فإذا استشعر الإنسان الأبوة كان أحرص شيء

---

(١) متفق عليه : قصة عدم إسلام أبي طالب انظر البخاري (١٣٦٠، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢) ، ومسلم (٢٤) ، والنسائي (٢٠٣٥) ، وأبو داود (٢٤١٢) بلفظ « هو على ملة عبد المطلب » وأما لفظ « يا ابن أخي ملة الأشياخ » ذكرها الطبري (٢٠/ ٩٣) ، وذكرها الحافظ في فتح الباري عن مجاهد ، وكذا ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٠١) .

على الاتباع، فإذا كانوا على الحق كان ذلك أعظم وأعظم في الاتباع، وتجد قريبًا من هذا المعنى في قول الناس يوم القيامة في أمر الشفاعة « **اذهبوا إلى أبيكم آدم** » وقول آدم عليه السلام: « **اذهبوا إلى أبيكم بعد أبيكم اذهبوا إلى نوح** » (١)، ففرق كبير بين أن نقول جدنا الأعلى البعيد آدم أو نوح، وبين أن نقول أبونا آدم وأبونا نوح – عليهما السلام –، فشرفٌ لنا كبير أن يكونوا آباءنا، وقول النبي ﷺ عن الحسن: « **إن ابني هذا سيد** » (٢)، وقوله: « **ولد الليلة لي غلام سميته باسم أبي إبراهيم** » (٣)، تلمس فيه حبًا وتقديرًا يختلف كثيرًا عما لو قيل حفيدي أو جدي وقول أبي هريرة عن هاجر: « فتلك أمكم يا بني ماء السماء » (٤) بدل جدتكم، والله أعلم .

وقول يوسف عليه السلام: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ ذكر الصحبة التي تقتضي قربًا وبرًا وإحسانًا، وذكر السجن لأن صحبة السجن لها خصوصية في الاشتراك بالشعور بالألم والضيق مما يجلب شفقة وحرصًا على الخير وترقيقًا للقلوب، وهذا أمر يعرفه من جرب صحبة السجن، وخصوصًا مع الإحسان، فيوسف عليه السلام يتلطف في دعوتهم إلى توحيد الله ونبذ الشرك الذي هم عليه بكل طريق: ببيان الحجج العقلية، ومراعاة الأحوال القلبية، واستعمال المؤثرات النفسية والمواقف الأخلاقية والسلوكية والعملية التي تفتح إلى القلب طرقًا مغلقة وأبوابًا مؤصدة .

وتأمل حسن هذا الأسلوب في المقارنة بين الأرباب والآلهة الباطلة وبين الله عز وجل، وذكر صفات النقص في الآلهة الباطلة: ﴿**أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ**﴾ وذكر

---

(١) **متفق عليه**: حديث ذهاب أهل الموقف إلى الأنبياء، رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٥)، والترمذي (٢٤٣٤) بلفظ « **أبوكم آدم –أو– فيأتون آدم** » وكذلك « **ولكن إذهبوا إلى نوح** »، وأما اللفظ المذكور فرواه ابن حبان (٦٤٧٦)، وأحمد (١٥)، وأبو عوانة (٤٤٣).

(٢) رواه البخاري (٣٧٠٤)، والترمذي (٣٧٧٣)، والنسائي (١٤١٠)، وأبو داود (٤٦٦٢).

(٣) رواه مسلم (٢٣١٥).

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، موقوفًا على أبي هريرة .

صفات الكمال لله – عز وجل – : ﴿ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وذكر صفة الوحدانية وصفة القهر في هذا الموطن الذي لا يجد العبد فيه ملجأً إلا إلى الله الواحد ، ففي السجن تنقطع السبل وتنعدم الأسباب، وشعور الإنسان بقهر غيره له لا يهونه إلا استحضاره أن هذا الذي قهره وأذله بالحبس هو مقهور ذليل لله – عز وجل –، الذي ملك الموت والحياة، والنفع والضر، والإعزاز والإذلال، فعند شعور السجين بقهر الله للملوك بالموت والمرض وغير ذلك من أنواع القهر، يصغرون في عينه ويهون عليه ما يصنعون به، ويجد في اللجوء إلى الله الواحد القهار خير ملجأ ومعاذ، فما أحسن ذكر هذين الاسمين في هذا الموطن .

وبعد التلميح والتعريض، انتقل يوسف في الدعوة إلى التصريح والتوضيح فقال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾، فصار الخطاب لهم مباشرة حتى لا يظنوا أنه يقصد آخرين بقوله : ﴿ مِلَّةَ قَوْمٍ ﴾ بل أنتم وقومكم المقصودون، أنتم تعبدون آلهة باطلة سميتموها آلهة بالجهل والتقليد الأعمى للآباء، وليس عندكم في ذلك حجة ولا برهان ولا عقل ولا نقل، فما أنزل الله من سلطان أي : حجة عقلية أو نقلية على عبادة غيره، بل نصب الأدلة العقلية والنقلية على وحدانيته وقهره واستحقاقه وحده الألوهية .

وذكر الآباء في هذا الموطن هدم لأعظم شبهة عند المشركين وهي التقليد الأعمى للآباء، وكثيرًا ما يكون سببه ظنه أنه لابد عند الآباء من دليل ربما خفي على الأبناء، فإذا صرّح لهم بأن الآباء أيضًا ليس عندهم حجة وليس إلا مجرد التسمية الباطلة، كان ذلك كالصدمة التي تدعوهم إلى التفكير والمراجعة في هذه المسألة العظيمة، ثم قرر عليه السلام القاعدة الكلية : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ وهو هنا يشمل الحكم الكوني القدري، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي

لا معقب لحكمه – عز وجل –، ويشمل كذلك الحكم الشرعي الديني، بل هذا أظهر في الدخول في العموم إن لم يكن هو المقصود أصلاً لقوله عقب ذلك : ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ فهذا حكمه – عز وجل – الشرعي، لم يشرع قط أن يُعبَد غيره، وأيضًا لأن القوم كانوا متبعين لأوامر وأحكام ملوكهم مقلدين لهم في مللهم الباطلة، وما عُلِم قومٌ استُخِفُّوا أو استخفتهم ملوكهم في تلوين عقائدهم وتعبيدهم لما تهواه الملوك مثل الفراعنة، فتراهم يأمرهم أحدهم بعبادة الشمس، وتارة يأمرهم أخر بعبادة العجول والحيات، وآخرون بعبادة الأصنام والتماثيل، ووجد فرعون نفسه أولى من العجول والثعابين فنادى فيهم : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨]، وقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤]، فناسب هذا أن يجهر يوسف بهذه القاعدة الكلية : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ فالذي له الأمر هو الله – عز وجل –، وهو أمر ألا تعبدوا إلا إياه، وهذه الآية دليل واضح على وجوب إفراد الله – عز وجل – بالحكم والتشريع، وأن هذا مقتضى عبادته دلت على ذلك آيات القرآن المتعددة التي تكرر وتقرر هذا المعنى ليستقر في النفوس كما قال تعالى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] وقال تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢١] وقال تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ١٠]، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] (١) وغير ذلك من الآيات كثير .

---

(١) راجع فضل الغني الحميد : باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ، النوع الثالث من أنواع الشرك : الشرك في الحكم ، ص (١٥٦-١٧٦) طبعة دار الإيمان – إسكندرية .

وقول يوسف عليه السلام : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي : هذا الذي أدعوكم إليه من ترك الملل الباطلة ونبذ الآلهة الباطلة وإفراد الله بالحكم وإخلاص العبادة لله – عز وجل – دون كل ما سواه هو الدين المستقيم الحق، وقال : ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي هو اسم إشارة للبعيد للبون الشاسع والارتفاع الهائل لهذا الدين على ما هم فيه من الملل والأديان الباطلة، وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا انتباه عظيم الأهمية إلى شبهة خطيرة لابد من هدمها في النفوس، وهي أن أكثر الناس ليسوا على هذا الدين، والنفوس الجاهلة مائلة إلى اتباع الأكثرية، فكان وصفها بعدم العلم منفراً للعاقل عن اتباعهم وتقليدهم، فلا تزهدوا في القلة ولا تغتروا بالكثرة، والحق يعرف بالدليل لا بكثرة التابعين، فالزم طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « وقد قال ابن جرير : إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا لأنه عرف أنها ضارة لأحدهم، فأحب أن يشغلهم بغير ذلك لئلا يعاودوه فيها، فعاودوه فأعاد عليهم الموعظة . وفي هذا الذي قاله نظر، لأنه وعدهما أولاً بتعبيره ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام، وصلةً وسببًا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال . » أ.هـ.

وهذا الذي اختاره ابن كثير هو الصحيح بلا شك، فإن ما ذكره ابن جرير فيه هضم للسياق حقه، بل وهضم لاهتمامات الأنبياء وشغلهم الشاغل، فهل ترى يوسف يشغلهما عن الضرر الدنيوي بذكر الإيمان بالله واليوم الأخر كأن المقصود الأصلي هو التسلية عن هذا الضرر ؟ أم أن المقصود الأصلي هو الدعوة إلى الله وتوحيده والإيمان به، لا شك أن هذا مقصود الأنبياء الأعظم وشفقتهم على الخلق به أعظم من شفقتهم عليهم في فساد دنياهم، والله أعلم

تأويل رؤيا الفتيين

قوله تعالى : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « يقول لهما : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ وهو الذي رآه يعصر خمراً ولكنه لم يُعَيِّنه لئلا يحزنه ذلك، ولهذا أبهمه في قوله : ﴿ وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾، وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه وهو واقع لا محالة، لأن **الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت** » (١) أ.هـ.

انتظار البلاء بلاء قبل البلاء، وتوقع المصائب ربما كان أشد على النفس من وقوعها، وربما طالت مدة الانتظار فيكون عذابًا للمنتظر، ولذا كان من كمال الشفقة – ما أمكن – أن لا يواجَه بما ينتظره من بلاء، خصوصًا إذا كان ضعيف الإيمان لا يحسن أن يحتسب في المصائب ويصبر عليها، ولذا قال يوسف لصاحبيه مجتمعين : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ – دون تعيين – ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾، وإن كان ظاهرًا أنه الذي رأى في منامه أنه يعصر عنبًا وهو الساقي، ﴿ وَأَمَّا الآخَرُ ﴾ – دون تعيين أيضًا – ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾، وإن كان الظاهر أنه الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه وهو الخباز، وهو الذي يظهر عليه التهمة بقتل الملك، وأما إخبار يوسف عليه السلام لهما بأنه قضي الأمر الذي فيه يستفتيان فقد ذكر ابن كثير : أن ذلك لأجل « **أن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت** » (٢) .

---

(١)، (٢) صحيح : سبق تخريجه ص (٢٣) .

لكن ينبغي أن يقيد ذلك بأنه الأغلب، فقد يخطيء المُعَبِّر كما قال النبي ﷺ للصديق لما عبر رؤيا بعض الصحابة: « **أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا** » [١]، فلا يلزم إذن أن يقع التعبير الخطأ، بل إذا عبرت الرؤيا تعبيراً صحيحًا وقعت إن شاء الله، وأما تأويل الأنبياء فمعصوم، ولذا قال يوسف قضي الأمر، وليس لغير الأنبياء أن يجزم في تأويله بأنه قد قضي الأمر به، فإنه يخطيء ويصيب، وأما حديث أنس مرفوعًا : « **الرؤيا لأول عابر** » [٢] فهو حديث ضعيف لضعف يزيد الرقاش الراوي عن أنس، وقد ذكر ابن كثير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا : ما رأينا شيئًا، فقال قضي الأمر الذي فيه تستفتيان، وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، وحاصله أن من تحلم بباطل وفُسِّر فإنه يلزم بتأويله، والله أعلم » أ.هـ .

وقد ورد ما يدل على التغليظ فيمن تحلم بما لم يره، فقد روي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا : « **من تحلم بحلم لم يره، كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل** » [٣]، وعنه أيضًا روى الترمذي مرفوعًا : « **من تحلم كاذبًا، كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ولن يعقد بينهما** » [٤]، ورواه أبو داود بلفظ : « **من تحلم كلف أن يعقد شعيرة** » [٥]، وزاد ابن ماجة عليه : « **ويعذب على ذلك** » [٦] .

---

(١) **متفق عليه** : سبق تخريجه ص (٢٢) .
(٢) **ضعيف** : رواه ابن ماجة (٣٩١٥) تعبير الرؤيا ، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجة (٨٤٩) .
(٣) رواه البخاري (٧٠٤٢) .
(٤) **صحيح** : رواه الترمذي (٢٢٨٣) الرؤيا ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٣٩) .
(٥) **صحيح** : رواه أبو داود (٥٠٢٤) الرؤيا ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٧٠) .
(٦) **صحيح** : رواه ابن ماجة (٣٩١٦) تعبير الرؤيا ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١١٥) .

الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ .

الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، والسعي في إزالة الظلم لا ينافي التسليم لقضاء الله، فإن التسليم الواجب هو التسليم لحكم الله وقضائه الشرعي الديني، أما القضاء والحكم القدري الكوني فإنه ثلاثة أنواع :-

القسم الأول : الحكم الكوني الذي لا قدرة للإنسان فيه على أخذ الأسباب أو دفعها، مثل كونه وُلِدَ بصفةٍ معينةٍ أو في زمنٍ معينٍ أو لأبوين معينين، ومثل كونه ذكرًا أو أنثى، ومثل موت بعض أحبابه وأقاربه، ومثل مرضه مرضًا لا يعرف له دواء ولا يرجى منه شفاء، فهذا قدر لابد فيه من التسليم المحض وعدم المنازعة وعدم الفرار منه، إذ لا سبيل إلى ذلك، وترك التسليم ووجود المنازعة إنما هو السخط والشك والاعتراض على الربوبية وجرأة الإقدام ووقاحة الاقتراح بأنه كان ينبغي غير ما كان والعياذ بالله .

القسم الثاني : الحكم الكوني الذي جعل الله للعباد على أخذ الأسباب أو دفعها قدرة وإرادة وكسبًا، وكونه - عز وجل - جعل لهم قدرة وإرادة تتعلق بالأسباب تكسبًا لا ينافي أنه إنما يوجبه حكمه الكوني، فليست إرادة العباد موجِبة، وقدرتهم في الحقيقة أثرها إنما هو من آثار قدرة الله - عز وجل -، فهو الذي شاء أن يشاءوا وهو الذي أقدرهم، فهذا النوع من الحكم القدري يشرع فيه وجوبًا واستحبابًا أخذ الأسباب المباحة والمشروعة، فمن ابتلاه الله بقدرٍ من الجوع دفعه بقدرٍ من الأكل، ومن ابتلاه الله بقدرٍ من العطش فرّ منه إلى قدرٍ من الشرب، ومن أصابه قدرٌ من المرض نازعه بقدرٍ من التداوي، مصداق ذلك قول النبي ﷺ

لما سئل عن الأدوية التي يتداوون بها : « **أترد من قدر الله شيئًا فقال : هي من قدر الله** »(١)، ومن ذلك قول عمر لأبي عبيدة : أتفرّ من قدر الله ؟ قال : نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله (٢)، ومن هذا ما فعله يوسف عليه السلام، فحين أصابه قدرٌ من الظلم والسجن شرع في دفعه بقدر طلب الشفاعة العادلة لدى الملك الذي أقدره الله على أن يرفع الظلم عنه، ويتأكد أخذ الأسباب في هذا النوع من الحكم الكوني القدري إذا كان في الذي تفر إليه طاعة لله وعبودية محبوبة له، وقد يكون واجبًا أن يأخذ بالأسباب، فمن ترك نفسه للجوع حتى هلك مع قدرته على الأكل كان آثمًا، ومن ترك أولاده بلا نفقة وهو قادر على الكسب بزعم التسليم بالقدر كان آثمًا، مصداق قول النبي ﷺ : « **كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت** »(٣) .

القسم الثالث : من الحكم الكوني، الحكم على العبد بالمعصية والخذلان، فهذا يجب عليه أن يفر منه وينازعه بقدرٍ من الطاعة والتوبة والإنابة والتضرع إلى الله أن يأخذ بناصيته إليه وأن يوفقه لما يحب ويرضى وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وبهذا يحقق العبد ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] وفي هذا النوع بعد تحقيق التوبة والإنابة والإصلاح ما استطاع يكون القدر بالنسبة إلى ما قد وقع في الماضي بالفعل ولا قدرة على تغيير هذا الماضي بل قدرته في إزالة آثاره وقد فعل، يكون القدر في هذه الحالة عذرًا للعبد وحجة يحتج بها كما « **حج آدم موسى بذلك** »(٤)، وكما قال كعب بن مالك رضي الله عنه بعد توبته وقبولها، « **فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتني فعلت غير أنه لم يقدر لي ذلك** »(٥)،

---

(١) صحيح : حسنه الألباني في مشكلة الفقر (١١) بلفظ « يا رسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟» قال : «**هي من قدر الله .** » ، أما اللفظ المذكور فضعيف ، والترمذي (٢١٤٨,٢٠٦٥) الطب ، وابن ماجة (٣٤٣٧) الطب ، وأحمد (١٥٠٤٦) المسند، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٣٥٩)، وضعيف ابن ماجة (٣٤٣٧) .
(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٥٣٩٧) ، ومسلم (٢٢١٩) ، وأخرجه البيهقي (١٤٠٢٠) الكبرى .
(٣) صحيح : رواه مسلم (٢٠٦٥ ، ٢١٤٨) بلفظ « **كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يقوت** » ، وأبو داود (١٦٩٢) الزكاة ، وأحمد (٦٤٥٩) في مسنده وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨١) .
(٤) متفق عليه : رواه البخاري (٣٤٠٩) ، ومسلم (٢٦٥٢) ، والترمذي (٢١٣٤) ، وأبو داود (٤٧٠١) .
(٥) رواه مسلم (٢٧٦٩) بلفظ « **ثم لم يقدر** » ، وأحمد (١٥٣٦٣) في المسند .

فهو باقي على ندمه على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ويتمنى أن لو كان لم يقع في الذنب، وهذا من كمال الندم، ولكنه يسلي نفسه ويعزيها بالقدر، كما أنه في النوع الثاني وهو الحكم الكوني الذي للعبد فيه قدرة على الأسباب يكون الاستسلام للقدر مأموراً بعد استفراغ الوسع في أخذ الأسباب، وقد لا تثمر ثمرتها ولا تؤتي نتيجتها، فقد نسى الرجل الساقي أن يذكر أمر يوسف للملك، فما كان من يوسف إلا التسليم والرضا بقضاء الله، فإن الأسباب كما ذكرنا ليست موجبة لنتائجها، فلا يحزن العبد ولا يغتم ولا يهتم فقد جعل الله الرَّوْحَ والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ والسخط، فلابد من التسليم والتفويض والتوكل على الله والثقة به – سبحانه وتعالى – .

أطلنا الكلام على هذه المسألة المهمة لأن البعض قد فسر الآية الكريمة على أن يوسف عليه السلام بطلبه من الذي علم أنه ناج من صاحبيه في السجن أن يذكره عند ربه، وأنه لو لم يفعل لما لبث في السجن ما لبث، ويجعل ذلك حجة في ترك الأسباب زاعمًا أنها منافية للتسليم والرضا بالقدر، ومعلوم أن هدي الأنبياء جميعًا وسنتهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، فإن جاء ما يعجز العبد وما لا قدرة له عليه وغلبه أمر قال قدر الله ما شاء فعل وسلم الأمر لله وقضائه، والصواب في تفسير الآية أن الذي نسى ذكر ربه هو صاحب يوسف في السجن ساقي الملك وليس يوسف عليه السلام، فإن الضمير يعود على أقرب مذكور، ثم إن القرآن يدل على ذلك بقوله تعالى بعد ذكر رؤيا الملك : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي تذكر بعد مدة فتبين بوضوح أنه هو الذي نسي ثم تذكر، وأما الحديث الذي رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعًا : « لو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قال ما لبث في السجن ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله » فهو ضعيف سندًا ومتنًا .

قال ابن كثير - رحمه الله - : « هذا الحديث ضعيف جداً لأن سفيان ابن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي أضعف منه أيضاً، وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كلٍ منهما، وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبلَ المرسل من حيث هذا في غير هذا الموطن، والله أعلم » أ.هـ.

وأما متناً فلأن طلب الشفاعة لأخذ الحق ليس ابتغاءً للفرج من عند غير الله، وإلا لما قال النبي ﷺ لأصحابه إذا أتاه صاحب حاجة : « **اشفعوا تؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما أراد** »(١)، فأخذ الأسباب ابتغاء الفرج من عند الله، ولو وقع إنسان في بئر مثلاً وكان يستطيع أن ينادي من بالطريق بجوار البئر ليخرجه لزمه ذلك، كما يلزمه إمساك الحبل لمن ألقاه إليه، خلافًا للمنقول عن بعض المتقدمين من تركه النداء حتى أرسل الله إليه من ألقى إليه الحبل، فهل كان ترك النداء توكلاً والإمساك بالحبل نقصاً في التوكل، فالمسألة واحدة في الأمرين، كلاهما سبب .

إذن فطلب الشفاعة في الحق أمر مشروع لا ينافي كمال التوكل مع ثقة القلب به وكمال توكله عليه، وهذا هو الظن الواجب بيوسف عليه السلام ، ونسبة نسيان ذكر الله إليه مخالفة للعصمة الثابتة في الأصل فلا تصح إلا بدليل صحيح ولا دليل، بل ظاهر الأدلة على خلافه كما ذكرنا أن الناسي هو الرجل الناجي ساقي الملك، وكان هذا من فعل الشيطان به، قال ابن كثير رحمه الله: « ولما ظنّ يوسف عليه السلام أن الساقي ناجٍ، قال له يوسف خفيةً عن الآخر - والله أعلم - لئلا يُشعره أنه المصلوب قال له : ﴿ **اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** ﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك وهو الملك، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله : ﴿ **فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** ﴾ عائد على

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري (١٤٣٢) بلفظ « **ما شاء** » بدل « **ما أراد** » ، ومسلم (٢٦٢٧) البر وآداب الصلة ، وأبو داود (٥١٣١) الأدب .

الناجي، كما قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد، ويقال إن الضمير عائد على يوسف، رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضًا وعكرمة وغيرهم» أ.هـ.

ثم ذكر الحديث المتقدم ذكره، وذكر تضعيفه كما سبق والذي صوّبه ابن كثير هو الصواب كما دل عليه القرآن، ثم إن حال الساقي هو الأولى بالنسيان من جهة مجتمع الخمر ومجلسها التي غرق فيها والتي تمتليء بالشياطين فهي بيئة بعيدة عن ذكر الله – عز وجل –، مكتظة بالمنكرات، فمعلوم أن سقي الخمر يكون معه – خاصة عند الملوك – المعازف والقينات (المغنيات) وأنواع الفتن الملهية المطغية، فأنّى يذكر الفتى ربه ؟ وأنّى بالأولى أن يذكر قصة يوسف المظلوم في غياهب السجون ؟

أما السجن فهو – لأهل الإيمان – مكانٌ فرغوا فيه لذكر الله وعبادته، وانقطعت فيه علائق الأسباب بغير ربهم، فهو وحده الذي يرجونه ويؤملونه ويتضرعون إليه ويعبدونه، يكاد الشيطان يتميز غيظًا عليهم لما يرى من رحمات الله عليهم وأفضاله النازلة إليهم، فأنى أن ينسيهم ذكر ربهم وليس لهم في سجنهم ملجأ ولا منجى إلا إليه ولا أنيس لهم سواه ؟ لأن ما يقدر الشيطان على إصابتهم بالأذى هو في أبدانهم بطول الحبس وألم البعد، لكن لا تسلط له على قلوبهم العامرة بذكر الله، فكيف بالكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم في ذكر الله في هذا الموطن، وأي الشخصين أولى بأن يُنْسِيَه الشيطان : الخمّار أم الشكّار الذكّار ؟ وأي البيئتين أولى بالشيطان : مجالس الفسوق والعصيان أم أماكن الخلوة بذكر الرحمن ؟ لا نشك أن نسيان الذكر أولى بالفتى، وهو أولى به من يوسف – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – .

﴿ **فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ قيل : سبعًا، وقيل : خمسًا، وقيل غير ذلك، والبضع : من ثلاثٍ إلى تسعٍ، والقرآن لم يبين ورسول الله ﷺ لم يبين كم

كانت المدة بالضبط، ولا فائدة في التحديد أكثر مما ذكر في القرآن، وفي هذا أعظم تسلية للمظلومين في السجون، فإن أكرم الناس بقى في السجن بضع سنين مع كرامته على الله ومنزلته عنده، فلو كان السجن إهانة - دائمًا - لما قدّره الله على نبيه الكريم يوسف - عليه الصلاة والتسليم -، بل كان السجن شرفًا ليوسف عليه السلام، وبه صار أسوةً لكل كريمٍ ابتلي بالسجن ظلمًا ليصبح السجن له كقشرة البيضة للفرخ بداخلها، قد يحسب الجاهل أنها سجن له، وإنما هي حمايةٌ ووقايةٌ حتى يكتمل نموه، فينقر القشرة نقرة أو نقرتين فإذا هو خلق جديد سميع بصير، حي متحرك في فضاء الدنيا بعد أن كان صفاراً وبياضًا، ولو كسرت القشرة قبل الموعد المقدر، لكان أعظم الضرر على الفرخ وكان فيه هلاكه إذ لم يستكمل نموه، فكذلك قلب المؤمن يحتاج إلى النماء - نماء حقائق الإيمان فيه -، والتزكية التي بعث من أجلها رسول الله ﷺ تتضمن معنى النماء ومعنى الطهارة، فالنفس تحتاج إلى طهارة وتنقية ربما لا تبلغها الأعمال، فيكون البلاء لقلب المؤمن ونفسه سببًا للنماء والطهارة حتى إذا جاء الأجل الذي قدره العليم الخبير العزيز الحكيم، خرج المؤمن بقلب جديد قد ولد من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن ضيق إرادة الشهوات واتباع العوائد وأسر التقاليد إلى سعة الإخلاص واتباع رضوان الله، ومن ذل عبودية العباد إلى عز العبودية لرب العباد، قد امتلأ حياةً وسمعًا وبصرًا وحركةً في فضاء التوحيد .

ووالله لقد كان السجن شرفًا وعزًا ليوسف عليه السلام، ازداد فيه إيمانًا وعلمًا وقربًا من ربه - عز وجل -، وازداد زهدًا في الدنيا واستهانة بها، فقد دخل السجن وهو أحب إليه مما يدعونه إليه، وكان في هذا قمةً عاليةً، وكان يسعى للخروج منه، وبعد السنوات التي قضاها انتقل إلى قمةٍ أعلى، أشار إليها النبي ﷺ بتواضعه العظيم حيث يقول : « **ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت**

الداعي »⁽¹⁾ رواه البخاري ومسلم، أي : داعي الملك الذي بلغه طلبه فقال له يوسف : ﴿ **ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ ، فقد صار عنده الأمر أقرب مما كان، السجن والمُلْك ليس الفرق بينهما كبيراً، طالما كانت الطاعة وطلب أجر الأخرة، وليس هذا بالأمر الهين أن يصل الإنسان إليه، وأن تكون الدنيا بسعتها وضيقها عنده ليست هي مبلغ العلم وأكبر الهم، لا ينافس في عزها ولا يجزع من ذلّها، صارت عنده كما هي عند الله سبحانه لا تساوي جناح بعوضة، كما قال رسول الله ﷺ : « **لو أن الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافر منها شربة ماء** »⁽²⁾ حديث حسن، أو كَجدي أسك - أي صغير الأذنين - ميت كما مر النبي ﷺ علي جدي أسك ميت فقال لأصحابه : « **أيكم يود أن له هذا بدرهم** »، قالوا : يا رسول الله لو كان حيًا كان عيبًا فيه أنه أسك، فكيف وهو ميت ؟ ما نود أنه لنا بشيء، قال : « **الدنيا على الله أهون من هذا عليكم** »⁽³⁾ .

صار يوسف عليه السلام لا يبالي كثيراً بالبقاء في سجنه لما نال فيه من أنواع القرب والحب والود والكرامة من ربه - عز وجل -، فصار عافيةً في حقه من جهات، وإن كان بلاءً من جهة، وكذلك المؤمن بثقته في جزاء المصيبة عند ربه الكريم الذي لا يخلف وعده للصابرين، وبانتظاره روح الفرج الذي يجد به من لذة حسن الظن بالله ورجاء فضله، وبشهوده نعم الله عليه حال نزول المصيبة، وما أبقى له من المنن السالفة وما جدّد من عطايا اليسر ما يجعله فعلاً قد عظمت عنده العافية وهانت عليه المصيبة، قد استغنى بالله وبقُرْبه وأنواع عبادته عن دنياهم، حتى استوى عنده قصر ملكهم وزنزانة حبسهم، لولا ما في الخارج من أنواع الطاعات الأخرى التي أُعِدَّ لها وهُيِّئَ، لما طلب الخروج، وهذا بلا شك حال

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) ، وابن ماجة (٤٠٢٦) .

(٢) **صحيح** : سبق تخريجه ص (١٧) .

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٧) الزهد والرقائق ، وأبو داود (١٨٦) الطهارة ، وأحمد (١٤٥١٣) ، واللفظ له .

كمال أكمل من الكمال الذي كان فيه قبل دخوله السجن .

ألا ترى إلى كمال رسول الله ﷺ وقد خيره ربه أن يكون عبداً رسولاً أو ملكًا نبيًا، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، كان الملك أمامه لو اختاره يمنن أو يمسك بغير حساب من ربه، فاختار أن يكون عبداً قاسمًا لا يفعل إلا ما يؤمر، يضع حيث أُمِر، يعطي لله ويمنع لله، لا لإرادة النفس، اختار أن يكون ﷺ عبداً يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويعتقل الشاة، ويكون في مهنة أهله، وليست هذه أفعال الملوك، أترى ملكاً يلبس ثوبًا مرقعًا ؟ فضلاً عن أن يكون هو الذي يرقع ثوبه بنفسه، ليس له من يرقعه ؟ وقد ورَّث النبي ﷺ أمَّته شيئًا من هذا الكمال، فكان خلفاؤه على شبه هذا الوصف، ليسوا ملوكًا، بل المُلْكُ في أمته نقص، كما قال ﷺ : « **تكون الخلافة فيكم ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً** » (١)، وقال : « **تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم تكون ملكًا عاضًا، ثم تكون ملكًا جبرياً، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة** » (٢)، فالخلافة هي الكمال والملك نقص، ولذا كان خلفاؤه كذلك يلبسون المرقّع من الثياب، ويخلع أحدهم – وهو عمر رضي الله عنه – خُفّه ويضعه على كتفه، ويخوض ببعيره المخاضة، تبدو صلعته للشمس، كل هذا وهو قادم لتَسَلُّم مفاتيح بيت المقدس، فيقول له أبو عبيدة رضي الله عنه : « ما يسرني أن القوم رأوك هكذا »، فيقول له أمير المؤمنين رضي الله عنه : « لو غيرك قالها أبا عبيدة، لجعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ، إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بهذا الدين، فمهما ابتغينا العزة في غيره، أذلنا الله » (٣) .

ليس لأحدهم بوابٌ ولا حرسٌ ولا حاشيةٌ، ينام في المسجد كما ينام آحاد

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٢٢٦) بلفظ « ثم ملك بعد ذلك » ، وأبو داود (٤٦٤٦) السنة بلفظ « ثم يؤتي الله الملك من يشاء » بدلاً من « ثم تكون ملكًا » ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٥٧) .

(٢) صحيح : رواه أحمد (١٧٩٣٩) وذكر هنا مختصراً ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥) .

(٣) صحيح : أخرجه الحاكم (٢٠٧) الإيمان ، وقال فيه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٩٣) .

الناس، هل ترون هذا ممكناً في الملوك ؟! والله لا يكون إلا في من هانت عليه الدنيا، بما فيها من غنىً وفقر، وعسرٍ ويسر، ونعومة عيشٍ أو خشونته، هذه قمةٌ لا يصل إليها إلا الأفذاذ، وصل إليها يوسف عليه السلام حين قال للرسول الذي جاءه : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ وظل متبوئًا لها في ملكه، متواضعًا لله – عز وجل – مشاهداً فضله ونعمته، مستحضراً كرمه ومنته، وإنما وصل إلى هذه القمة بسنوات السجن، التي كانت شرفًا وسببًا لمزيد من الشرف، وكانت عافيةً وسببًا لمزيد من العافية، وكانت عزًا وسببًا لمزيدٍ من العز .

كان يوسف فيما يبدو لمن سجنوه من الصاغرين، وفي حقيقة الأمر كان ينتصر عليهم، ويعز ويقهر باطلهم بإرادته وجه الله وطاعته، كان في ظنهم يضيع عليه نعيم القصور الذي كان فيه، ولكن في الحقيقة، كان يجتني نعيم القرب من الله سبحانه، بما لا يجده في قصورهم وحياتهم بأسرها، ومثلما كانت الحبال التي ألقاه بها إخوته في غيابة الجب، في حقيقة الأمر أسبابًا موصلة إلى علوه عليهم، كانت سنوات السجن أسبابًا إلى الكمال والزكاة والنماء والطهارة، ثم النصر والتمكين والملك والعز، على من أراد قهره وصغاره، وكل هذا من صنع الله بعبده المؤمن، وكيده له، وحفظه وتوفيقه، فهو عز وجل، العليم الحكيم، يكره مساءة عبده المؤمن، وما يقدر له إلا ما فيه كمال سروره وراحته، وصلاحه في دنياه وأخراه، نسأل الله – عز وجل – أن يلحقنا بالصالحين .

رؤيا الملك وبداية الفرج

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

الله سبحانه مقلب القلوب، آخذ بنواصي العباد، رب السماوات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم، ما من شئ إلا هو آخذ بناصيته، انقطعت الأسباب الظاهرة بيوسف عليه السلام، ونُسي في السجن سنوات، وانشغل الساقي بحياة الخمر، وانشغل العزيز وامرأته والنسوة بترفهم، ونسوا الحين الذي أرادوا حبس يوسف إليه، وهكذا يُترك المظلومون في سجون الظَلَمَة، الذين لا يشعرون بآلام البشر، ولا يشفقون على خلق الله، ولكن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، لا يضل ولا ينسى، هو الذي قدر على يوسف دخول السجن لمصلحته لا لمساءته، لنفعه لا لضرره، فحين جاء الأجل الذي قدره الله، ظهرت أسباب جديدة لم تكن تخطر بالبال، ولا في قدرة أحد غيره - عز وجل - أن يأتي بها.

فهل ترى أحداً من الخلق أن يُريَ نفسه أو غيره رؤيا ؟ بالقطع لا، قدر الله أن يرى الملك - الذي هو فوق العزيز - رؤيا أفزعته وأقلقته، وكم من رؤى يراها الملوك والناس، ولا يعبأون بها، ولا يبحثون عن تأويلها، ولكن خالق الأسباب ومصرف القلوب والأبصار، ومدبر الأمر أرى الملك رؤيا، وجعله يهتم بتأويلها

وتفسير ما رأى فيها، رأى : ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ عجاف أي : ضعيفات نحيفات، ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ يابسات أي : جافات، وسأل كبراء جلسائه : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ تعبرون أي : تؤولون وتفسرون، حاول الملأ كعادتهم صرف الملك عن التفكير والبحث في ما لا يحسنون، فهذا شئ يظهر جهلهم وعجزهم، وهم دائماً – على طبيعة ملأ الملوك وطريقتهم – أن كل ما يحتاج الملك إليه لديهم، لكي لا يبحث عن غيرهم، فسارعوا إلى الفتوى بالجهل فقالوا : ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أي : أخلاط أحلام، أحلام مختلطة بلا معنى، هذا الجواب أأمن عليهم وأسلم، لعل الملك ينسى هذا الحلم .

ولكن يبدو أن الملك لم يقنع بهذا الجواب، فالرؤيا واضحة المعالم، وليست بأخلاط، والعدد فيها واضحٌ ولا بد له من معنى، والفعل من البقرات واضحٌ ولا بد له من دلالة، فكان الجواب الثاني منهم اضطرارًا، ومراعاةً لقناعة الملك، فإنهم لا يستطيعون رد قناعة الملك، إن ما يراه الملوك دائمًا هو الصواب عند حاشيتهم، طالما أصروا عليه، فلا بد أن يرجع كل الملأ عن رأيهم إلى رأي الملك، فكان الجواب الثاني : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ ، عند ذلك تذكر الفتى الساقي الذي كان مع يوسف في السجن، وقد نجاه الله سبحانه ببشارة يوسف له بذلك، حين عبر له رؤياه، تذكر بعد أمَّة، أي : بعد مدَّة، أَمْر يوسف وقدرته على تعبير الرؤيا، وصدقه العظيم الذي لمسه منه في أمره كله، فقال : ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ .

تلمح في شخصية هذا الفتى، أثر الخمر ومجالسها في سلوك الإنسان وأخلاقه، هو شخصية وصولية، تبحث عن اللذة والمصلحة الذاتية، دون شعور بالآخرين يقول : ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم﴾ ، يحاول أن ينسب إلى نفسه تأويل الرؤيا،

ليصل بذلك إلى منزلة عند الملك والحاشية، كان العدل أن يقول : « أنا أعرف من يمكنه تأويل الرؤيا، فأرسلوا إليه فأخرجوه من السجن، وكرّموه واسألوه » .

كان الإنصاف ساعتها أن يذكر للملك قصة يوسف المظلوم، الذي دخل السجن لأجل عفّته وطهارته، لكنها الشخصية الانتهازية التي تحب أن تحمد بما ليس فيها، وبما لا تفعل، يريد أن يعرف هو تأويل الرؤيا ويقصها على الملك دون أن يذكر حتى اسم يوسف، إنه – في عُرْفه وظنّه – كنزٌ يمكن استغلاله قبل أن يصل إليه غيره، ويفوز هو بالعطايا من الملك على تأويل الرؤيا، ولذا حرص على أن يذهب إلى السجن ودون تفاصيل ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾، إلى من ؟ لم يخبرهم حتى باسم يوسف، أما هو فيكفيه كلمة طيبة ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾، أما المروءة، أما العدل، أما الإنصاف، أما رد الجميل لمن أحسن إليه، أما السعي لنصرة المظلوم، كل ذلك ذهب عن الرجل، وذهب هو عنه، ليس أهلاً له، ولا هو أهل له، الأعمال والأخلاق والأشخاص متناسبون، فـ﴿ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ [النور : ٢٦] من الأعمال والأقوال، و ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ [النور : ٢٦]، أيضاً من الأعمال والأقوال .

أرسلوا الرجل إلى السجن، ذهب إلى يوسف الذي يوقن بصدّيقيّته وإحسانه، يظهر لؤمه وقبحه مرة ثانية، لا يبادره باعتذار عن نسيانه إياه سنوات، لا يبادره حتى بوعدٍ جديدٍ أن يذكره عند الملك، بل يقول له مباشرة : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ حتى لم يخبره بأهمية الرؤيا ومن رآها، إنها رؤيا الملك، يخشى الساقي لو علم يوسف بذلك لاشترط، ولضاع عليه السبق الذي يتمناه لدى الملك، مثل إنسانٍ عَلِمَ أن في يد فقيرٍ جوهرةً غاليةً جداً، يظن أنه لا يعرف قيمتها، فيريد أن يأخذها منه بدون مقابل، ودون أن يخبره بقيمتها العظيمة حتى ينفرد هو بالتمتع بها وبقيمتها، الحقيقة أنه هو الفقير ويوسف كان الغني،

يقول الفتى : ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾، هذه حاجته، تعوَّد على أن يأخذ ولا يعطي، يريد أن يرجع هو إلى الناس، حتى لم يفكر أن يأخذ يوسف معه، حاجته أن يرجع إلى الناس، وحاجة الناس أن يعلموا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، لم يقل له « حتى أرجع إلى الملك » بل إلى الناس ليقضي حاجتهم في المعرفة، أين حاجة يوسف ؟ أين حق الصديق المظلوم ؟ أين حق الصحبة، وجزاء النعمة، ورد الجميل بالبشارة ؟ كل ذلك لا يهم، نسيها الخمار، ولله الحمد أن نسيها، ليظل يوسف أغنى بجميع المقاييس، ليس لأحدٍ عليه منّة، بل له المنّة عليهم بعد الله – عز وجل –، ليس لأحدٍ عند يوسف من نعمةٍ تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى، نعم والله سوف يرضى من أوسع الأبواب في الدنيا والآخرة .

تأويل رؤيا الملك

قوله تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

لم يعاتبه يوسف عليه السلام على ما قصّر في حقه، ونسي من مظلمته، لم يقل له من رأى هذه الرؤيا، وقد علم بلا شك من لهفة الرجل وشدة حرصه على معرفة التأويل، ليرجع به ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ أن هؤلاء الناس لهم شأن كبير، لم يشارطه على الخروج ولا حتى على الشفاعة عند الملك وذكر حاجته، كرم يليق بالكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، غِنَىً عن الخلق يليق بمن أغناه الله عمن سواه، رفعة تليق بمن رفعه الله درجات، حلم يليق بحفيد – أو قل ابن – الخليل الحليم الأواه المنيب .

ما أروع هذه الأخلاق، يتعجب منها رسول الله ﷺ ، روى عبد الرزاق بسندٍ صحيح عن عكرمة مرسلاً قال : قال رسول الله ﷺ : « **ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر** »(١)، ولنصفه الأخير شاهد من حديث أبي هريرة في الصحيحين ومسند أحمد قال : قال رسول الله ﷺ : « **نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى، ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما**

(١) صحيح : رواه عبد الرزاق عن عكرمة مرفوعًا ، والطبري (١٢ / ٢٣٥) التفسير ، وصححه الألباني في

لبث يوسف، لأجبت الداعي »(١)، وقد قاله النبي ﷺ تواضعًا، وإلا فهو سيد الناس ولا فخر، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

أجاب يوسف الفتى مباشرة : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي : فهذا تأويل البقرات السمان والسنبلات الخضر، ثم زاده النصيحة بما يلزم عمله، وهذا كرم زائد على مجرد التعبير فقال : ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ أي : ليكون أبقى له وأبعد عن الفساد، وقال : ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي : إلا المقدار الذي تأكلونه خلال هذه السنوات، ولكن ليكن أكلكم منه قليلاً، ولا تغتروا بكثرة الخصب، فتسرفوا، فلا يقوم لكم الأمر في السنوات الآتية، وقال : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ وهذه هي البقرات العجاف والسنبلات اليابسات، ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي : تدخرون، أي أن سنين الجدب سوف يؤكل فيها كل ما جمعوه في سنين الخصب، إلا قليلاً مما تدخرونه سوف يبقى، فلن يصل الأمر إلى المجاعة، فأرشدهم إلى الادخار، وهو أمرٌ زائدٌ على مجرد التعبير، فهو كرمٌ جديدٌ، ثم زادهم أمرًا ليس له في الرؤيا ما يدل عليه، والظاهر أن يوسف عرفه بالوحي فقال : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، فبشرهم بوجود الغيث .

قال ابن كثير : « هو المطر بعد السبع الشداد »، ولا مانع من صحة هذا التفسير، وإن كان المشهور أن النيل هو الذي قلّ إيراده حتى أصابهم الجدب، ثم زاد بعد السبع سنين الشداد، فحصل به الغوث، فإنه لا تعارض بين فيضان النيل، وبين أن الغوث هو المطر، فإن النيل إنما يفيض بنزول الغيث على منابعه، كما أنه لا مانع أن يكون مع الفيضان مطرًا، فتزداد غلّة البلاد، ويعصر الناس ما تعودوا على عصره من زيت، أي : زيتون وبذور غيره تعصر لاستخراج الزيت، وكذا عصر العنب لاتخاذ السَّكَر، وروى عن ابن عباس « يعصرون، أي : يحلبون »،

---

(١) متفق عليه : سبق تخريجه ص (١٢٧) .

فأدخل فيه حلب اللبن، ولا شك أن كثرة اللبن من لوازم كثرة الخصب، وكثرة الماء في الأنهار والأمطار، والله أعلم .

ظهر كرم يوسف المضاعف فيما أوّل به الرؤيا مجانًا، وما نصح به الخلق، رغم أن أكثرهم ليسوا مؤمنين، ولكن الأنبياء والأولياء تملأ قلوبهم الشفقة على خلق الله، والرحمة لهم، وإرادة الخير بهم، وهذه من أعظم أسباب حب الناس لهم، وقبول دعوتهم، وليست الدعوة بإبلاغٍ مجردٍ عن مشاعر الرحمة، وإرادة الخير للناس، بل المؤمنون خير الناس للناس في دينهم ودنياهم .

رجع الفتى فرحًا بالكنز الذي حصل عليه، ويُحدّث نفسه أن يكون الجزاء له وحده، ولكن الله المنّان الكريم، لا يضيع نبيّه ووليّه، بل هو الذي أرى الملك الرؤيا، وأهمّه بها من أجل يوسف، وهو سبحانه الذي يقدّر سنين الرخاء والجدب، ليعلم الناس فضل يوسف، الملك أذكى من أن يقبل أن الفتى الخمار، هو الذي يُنبئ بتأويل الرؤيا مثل هذا التأويل، ليس هذا من عقله ولا خلقه، ولا يناسبه هذا الجود والكرم، وهو الشخصية الانتهازية الوصولية، سأل الملك مَنْ أَوَّلَ هذه الرؤيا، أُجيب بأنه يوسف، فطلب الإتيان به .

ظهور البراءة

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ .

يختار العبد لنفسه أمراً، ويختار له ربه ما هو أفضل وأحسن، أراد يوسف عليه السلام أول ما دخل السجن أن يخرج منه بشفاعة ساقي الملك، فاختار الله له أن يخرج بطلبٍ من الملك له، بل ويُعزه أعظم من ذلك بأن يمتنع يوسف من الخروج حتى يعترفوا ببراءته وطهارته، وفرقٌ كبيرٌ بين أن يخرج الإنسان من السجن ممنونًا عليه بشفاعة، وبين أن يخرج وهو الذي يَمُنّ عليهم بإحسانه، ويتجاوز عن إساءتهم وظلمهم، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي ﴾ ، أُعجب الملك بتأويل الرؤيا، وألقى الله في قلبه اليقين بصحة التأويل وصدقه، وعرف علم يوسف وفضله وكرمه، ورجاحة عقله فيما نصح به أهل البلد مع أنهم أساءوا إليه وحبسوه، ولا شك أن نفس أي إنسان تقف مبهورة أمام هذا التصرف الرائع، بالإحسان إلى من أساء إليه، والترفع عن الإساءة، ويجد المرء في نفسه شعوراً بمدى غنى هذا المحسن، غنىً من نوع خاص، يقف الملوك أمامه فقراء، ويتمنى معه العيش في ظلال هذه النفس الغنية وبجوارها، ويسعى إلى لقائها .

طلب الملك لقاء يوسف، وأمر بإخراجه من السجن وحق له ذلك، فنحن والله على بعد الزمان نرجو لقاءه، ونتمنى لو طوي الزمان لنأتي نحن إليه، ونسأل الله

أن يرزقنا مرافقته، ومرافقة أنبيائه في الجنة، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، امتنع يوسف من الخروج، فليس السجن الآن يمثل ضيقًا وكربًا، إن الروح إذا ارتفعت بالقرب من الله – عز وجل – لم تعد أسوار الأرض وحواجزها تقف عقبةً أمام انطلاقها، قال يوسف لرسول الملك بصيغة الأمر : ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي : إلى سيّدك وملكك، ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، عرّض يوسف بالملك بهذا الأسلوب الرفيع الذي لا يجرح، فربُّكَ أيّها الرسول لا يعلم شيئًا عن أمر النسوة اللاتي قطّعن أيديهن، وهنّ شاهدات على مراودة امرأة العزيز ليوسف وبراءته، ورب يوسف – سبحانه وتعالى– ﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، ومعلومٌ أن الأمر بالسؤال للملك وهو لا يعلم شأن النسوة، سوف يقتضي بحثًا عن إجابةٍ وتحقيقًا وتحرّيًا .

تمّ بالفعل واختصره القرآن، وواضح ذكاء الملك وفطنته، فإنه ما واجه النسوة حتى أحاط بالمرء علماً فقال : ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾، فهو سؤال عالمٍ بالحال، وليس سؤال مستفسرٍ مستفهمٍ، بل مقررٍ مؤكدٍ، وقد تبين من قول يوسف عليه السلام : ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ مع قول الملك : ﴿رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ أن النسوة اشتركن جميعًا في المراودة والكيد، هذا هو ظاهر القرآن في مواضع عدة، ههنا وفي قول يوسف : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، وإن كان ابن كثير – رحمه الله – قد جعله من باب التعريض بامرأة العزيز دون التصريح باتهامها، فقال رحمه الله : « وقوله تعالى : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ إخبارٌ عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطّعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبًا لهن كلهن، وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن : ﴿مَا

خَطْبُكُنَّ﴾ أي : شأنكن وخبركن، ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ يعني : يوم الضيافة، ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي : قالت النسوة جوابًا للملك، حاش لله أن يكون يوسف متهمًا، والله ما علمنا عليه من سوءٍ، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد تقول : الآن تبين الحق وظهر وبرز، ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي في قوله : ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ » انتهى كلام ابن كثير.

والذي يظهر ما قدمناه من أن النسوة جميعًا اشتركن في الكيد والمراودة، لأنه ظاهر القرآن ولا دليل لصرفه عن ظاهره، ولأنه طبيعة هذه النوعية من النساء، وكان من البداية مكرهن، كما قال عز وجل عن امرأة العزيز : ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾، ثم إن الملك في هذا المقام مقام المحقق الذي اكتشف خللاً في مملكته، وتدبيرًا قد يُدبّر في الخفاء لظلم الأبرياء وتبرئة المجرمين، هذا المقام لا يقتضي إلا التصريح، ولذا واجه النسوة جميعًا بالتهمة الصريحة، التي هي شديدة الألم على نفس امرأة فقال : ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ ، فلم يعرّض .

وتأمّل كيف أن يوسف عليه السلام وهو في مقام الدفاع عن نفسه، لم يذكر حقيقة جريمة النسوة وهو المراودة، وإنما ذكر الشأن العجيب الذي بالبحث عن سببه، وما قادته من أحداث سوف يدل على الجريمة فقال : ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ولم يقل : « اللاتي راودنني عن نفسي »، وأشار إلى فعلتهن بقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، فهو يدفع الملك للبحث ومعرفة الحقيقة دون أن يصرّح هو بها، أدبًا عاليًا ورفعةً وحياءً، وقد تولّى الملك التصريح وفضح المجرم، فهذا كله يناسبه أن يكون التصريح الذي وقع على ظاهره، فليس المقام مقام تعريض والله أعلم .

عند ذلك اعترفت النسوة ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي : تنزيهًا لله وتسبيحًا له أن يكون يوسف متهمًا بسوء، ومعاذ الله أن نتهمه بما نعلم براءته منه، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ ، وانظر إلى هذه التبرئة المؤكدة : ﴿مِن سُوءٍ﴾ فهي تفيد تأكيد عموم النفي من أي سوء، وفي هذا دليل على أن القرائن القوية ينبغي اعتمادها لدفع المتهم إلى الاعتراف، وقد يحتج بها من يرى صحة أو وجوب اعتبار القرائن القوية كالبينات في إثبات الحقوق، كابن القيم – رحمه الله –، فإنه يبالغ في إثبات ذلك، والجمهور من المذاهب الأربعة على خلافه، فلا بد من البينات من شهادة العدول أو الاعتراف، وشهادة النساء وحدهن ليست ببينة، إنما هي قرينة، وكل ما احتج به ابن القيم – رحمه الله – في (الطرق الحكمية) و(إعلام الموقعين) فهو يدل على ما ذكرنا من دفع المتهم للاعتراف، وذلك باستعمال القرائن ومواجهته بها، أما أن يعتمد عليها ابتداءً، فلا دلالة فيه على ذلك والله أعلم .

وإن كانت التهمة هنا لا توجب حدًا، ولكنها جريمة أدت إلى سجن إنسان كريمٍ غاية الكرم ظلمًا وعدوانًا سنين طوال، حتى لو لم يصل الأمر إلى فعل الفاحشة إلا أنه أدى إلى ظلمٍ شديدٍ لنبيٍ كريمٍ في بدنه وعرضه، فلابد من تبرئته ببينة هي أوضح البينات، وليس بأمرٍ مشكوكٍ فيه محتمل وهو شهادة النسوة، ولا أوضح من الاعتراف، ولهذا واجه الملك الجميع بتحرياته ومعلوماته التي صارت عنده مؤكدة تضطر النسوة ثم امرأة العزيز إلى الاعتراف الصريح وقد كان؛ ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

ما أشد فضيحتها وهي تعترف أمام الملك وملإه – ومنهم زوجها بالطبع – أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه، إنه لأمرٌ تستحيي المرأة الحيية أن تقوله

لزوجها حكايةً عمّا يجري بينهما في غرفة مغلقة، فضلاً عن أن تقوله لغيره سرًا، فضلاً عن أن يكون حكايةً تقولها لغير زوجها، فضلاً عن أن يكون علنًا، وأي علن ؟ إنه أمام الملك وزوجها ورجال الدولة، والله إنها لعقوبة كفى بها عقوبةً وذلاً، وهوانًا وعارًا عليها وعلى النسوة معها، تَفَكَّر معي في موقف العزيز وأزواج النسوة الذين سمعوا مثل هذه الكلمات، وكيف أصابهم الخزي في هذا المقام، وحق لهم أن يخزوا وقد استجابوا وهم الرجال الممكنون المطاعون لكيد النساء حتى نفذوا مكرهن، فالذي أدخل يوسف السجن الرجال، وإن كان عن أمر النساء فلهم نصيب يستحقونه من الخزي والفضيحة أمام الملك وأمام الناس والملأ، فهذه عاقبة الظلم واتباع الشهوات والاستجابة للأهواء المنحطة، ثم يقدر الله الحكم العدل زوال هذا التمكين وتلك الرياسة التي استغلوها في غير ما وضعت في أعناقهم من أجله، فإنما جعلت في أعناقهم لإقامة الحق والعدل والأمر بالمعروف الذي أساسه توحيد الله والنهي عن المنكر الذي أعظمه الشرك بالله : ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [الحج : ٤١]، فجعلوها هم للإفساد في الأرض ونيل الشهوات المحرمة، وأعظم ذلك عبادة غير الله سبحانه والشرك به، ولذا كانت نهاية أمر العزيز وزوال ملكه عن عبرة لكل من لا يؤدي الأمانة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

قال تعالى : ﴿**قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ**﴾ أي : ظهر وبان، وقد كان ظاهرًا لها قبل ذلك، ولكنها إنما تعمى القلوب أو تتعامى تظن أن ظلمة الظلم تستمر إلى الأبد وأن شمس الحق لن تسطع، وهيهات أن يكون أمر النور والظلام بأيدي الخلق، فكما أن الليل والنهار ليس بأيديهم، وأن الشمس والقمر ليس بأيديهم، فكذلك تسطع شمس الحق رغمًا عنهم، وتضمحل ظلمة الظلمة

إضطراراً وقهراً عليهم، ولا ينتفعون بالحق عند ذلك إلا أن يتوبوا إلى الله سبحانه، إن مداولة أيام العز والذل والتمكين والاستضعاف والملك وزواله إنما هو بيد الله – عز وجل – ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] ، يجعل العبيد ملوكًا بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته، كما ينقل هذا من كلام امرأة العزيز إذ وقفت على الطريق حتى مر يوسف فقالت ذلك والله أعلم، وفي القرآن عن الإسرائيليات عينة، فإن عز يوسف ﷺ يسطع كالشمس من خلال هذه الآيات، وذل من سجنوه وآذوه يظهر جليًا بغير خفاء كذلك، والمتأمل لذكر القرآن لهذه المواقف وسردها بالتفصيل يدرك سرًا عظيماً من أسرار علاج القرآن للهم والحزن، وكونه لأهل الإيمان ربيع قلوبهم ونور صدورهم وجلاء أحزانهم وذهاب همومهم وغمومهم، وذلك أن الله سبحانه يذكر مواقف عز أوليائه وهزيمة أعدائه بتفصيل دقيق، يوقفك عند أجزائه ويشعرك بلذة الوقوف على تفاصيل النصر طويلاً، يأخذ ذكر ذلك مساحة واسعة من الآيات في حين تأخذ مواقف الإبتلاء مساحة أقل بكثير، إلا ما كان من معاني الإيمان وفوائد الدعوة والتربية فتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾، تجد أن مدة لبث يوسف في السجن ذكرت في خمس كلمات، ثم تأمل أن أيامًا معدودة لاح فيها عزه ونصره من ساعة ما قال الفتى : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ إثنا عشرة آية تقف مع كلماتها التي يشع منها نور العزة والتدبير والقدرة والتمكين ليوسف ﷺ، قد طوى زمن الابتلاء حتى صار صغيراً كأنه لحظة، وطال ذكر ساعة الإعزاز حتى يسعد كل مؤمن بها،

ويستحضر كأنه حاضر هذه المجالس سامع هذه الأقوال شاهد هذه الأفعال، فوالله إن ذلك ليزيل هم المهموم ويذهب كرب المكروب ويحيي رجاء من يحاول الشيطان تقنيطه وإضلاله، وتلحظ مثل هذا أيضًا في قصة موسى - عليه السلام -، فسنين طوال من تذبيح أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم تذكر في كلمات، ولحظات النصر والإعزاز يوم النصر على السحرة وسجودهم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧ - ١٢٢]، فلو أعطيت كل كلمة وكل آية حقها من التدبير لعشت مع موسى لحظات هذا النصر طويلة عزيزة كريمة، ذَلَّ فيها الباطل وصغر، وانتصر فيها الحق وظهر، تشفى صدور قوم مؤمنين، وتذهب غيظ قلوبهم، وتطوي عنهم سنين الألم حتى تمر كأنها لحظة، وكذلك في ذكر هلاك فرعون: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٦]، وكذا في سورة الأعراف وكذا نجد في قصص الأنبياء كثيرًا، تُذكر لحظات النصر باستفاضة وسنوات البلاء بإجمال، لتتضح العاقبة وتصبر النفوس وتوقن بوعد الله، وأما ما كان من الفوائد الإيمانية والدعوية والجهادية فتجدها بالتفصيل، فحوار يوسف مع صاحبيه في السجن ذكر بالتفصيل في ست آيات طويلة لما فيه

من الفوائد العظيمة، وهزيمة المسلمين في غزوة أحد ذكرت تفاصيلها في سورة آل عمران لتصحيح مسار الطائفة المؤمنة في زمن رسول الله ﷺ، ثم عبر التاريخ في كل المواقف المشابهة، فعلى المرء أن يبذل جهده ليعيش مع الأحداث التي يقصها علينا القرآن كأنه حاضرها ليزداد إيمانًا وعلمًا، ويحيى قلبه بشهود آثار الأسماء والصفات، ويستنير برؤية ملكوت السماوات والأرض، وينجلي عنه حزن آلام الاستضعاف ومرارة الظلم وطول البلاء، ويذهب عنه هم استبطاء الفرج والنصر والله المستعان يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وأما قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** (٥٢) **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ فإن ظاهر سياق القرآن أنه من كلام امرأة العزيز إذ لم يفصله عن كلامها، ولم يذكر (قال) أو نحوها ليدل على قطع كلامها، فيكون المعنى أن امرأة العزيز ذكرت ذلك أمام الملك والملأ ليعلم زوجها أنها لم تخنه بفاحشة الزنى في غيبته، وأنه إنما كان مراودة لم تزد على ذلك، وأن المحظور الأكبر لم يقع، ثم قررت ﴿ **أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾ ، وقد ذكر الله كلامها مقررًا لذلك دون إنكار، فهي قاعدة كلية في كل زمان ومكان وصالحة لكل واقعة، ﴿ **أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾ فكل خائنٍ للأمانة التي جعلها الله في عنقه سواء كانت بينه وبين الله كالتكاليف الشرعية، أو بينه وبين الناس كالولايات على أمور المسلمين العامة منها والخاصة وكالأمانات التي يستأمنه عليها الناس، فكل خائن لشيء من هذه الأمانات، مضيع لها فالله لا يهديه، ولا يتحقق له ما يريد وما يخطط له ويمكر له، بل يضل سعيه ويحبط عمله، وفي هذا بشارة لأهل الإيمان في صراعهم مع أهل الباطل الذين يكيدون بهم ويخونون أماناتهم، فسوف يضمحل كيدهم ويزهق باطلهم لأن الله من صفته اللائقة به – عز وجل – أنه لا يهدي كيد الخائنين، كما قال – عز وجل – : ﴿ **وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ**

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] وقال : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] فله الحمد – عز وجل – كفى المؤمنين كيد الكافرين والظالمين والخائنين، بأمر من عنده إذ هو مقتضى صفته – عز وجل –، فما بالنا نقلق إذن من كيدهم أو نجزع من مكرهم وقد تكفل الله لنا بهم ؟ ثم لما كان قول امرأة العزيز : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ متضمنًا نوعًا من تبرئة النفس وذكر العذر مع أن المقام مقام اعتراف بالذنب والخطيئة، بادرت باتهام نفسها فقالت : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد أجرى الله على لسانها كلمات حقٍ ينبغي أن تظل نصب عين كل واحد منا وهو يراقب نفسه ويسعى إلى تهذيبها وتزكيتها، فلابد من عدم تبرئة النفس، إذْ تبرئتها وعدم التفتيش عن عيوبها من أعظم أسباب ضياعها، وقد حذر الله سبحانه من تزكية النفس فقال : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم : ٣٢]، وبداية تزكية النفس ومدحها هو تبرئتها وعدم اتهامها، فالعاقل يعامل نفسه كالشريك الخوان الذي لابد من دوام مراقبته ومحاسبته وإلا ذهب برأس المال والربح معًا، وشهود أن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله من أسباب زوال العجب والكبر عن الإنسان، فالخير الذي فيه ليس من نفسه وإنما هو من الله – عز وجل – رحمةً منه سبحانه بعبده أن أعانه على نفسه كثيرة الأمر بالسوء ولم يكله إليه، وكان من دعاء النبي ﷺ : « **ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين** »(١)، وكان في خطبته ﷺ : « **ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا** »(٢) .

فالنفس الإنسانية ظالمة جاهلة أمارة بالسوء، هذه حقيقتها إلا أن يرحمها الله

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (٥٠٩٠) الأدب ، وأحمد (٢٧٨٩٨) المسند ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٨,٥٨٢٠) .

(٢) صحيح : رواه النسائي (١٤٠٤) الجمعة ، وأبو داود (١٠٩٧) الصلاة ، وابن ماجة (١٨٩٢) النكاح ، والترمذي (١١٠٥) النكاح ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (١٥٣٦) .

بالعدل والعلم، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها فهو خير من زكاها هو وليها ومولاها، فإذا زكاها جعلها مطمئنة مخبتة ساكنة إلى أمر الله سبحانه، تؤدي الحقوق بسماحة وسهولة ويسر وعدم منازعة للقلب الذي هو محل الإيمان والعلم، بل يصل إلى أن يصبح أداء الحقوق والعبادات لذة لها وراحة كما كان رسول الله ﷺ يقول عن الصلاة: « **أرحنا بها يا بلال** » (١)، وكان يقول: «**حبب إليّ من دنياك الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة**» (٢)، فعند ذلك يجد الإنسان ألم المعصية ولذة الطاعة وحلاوة الإيمان، فيعيش في نعيم قبل النعيم، ويدخل جنة الدنيا التي من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وكل هذا إنما حصل بتزكية نفسه الذي أصله أن يشهدها على حقيقتها: ﴿ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾، ونلحظ في قول امرأة العزيز: ﴿ **إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ التأثر الواضح بعقائد الإيمان التي دعا إليها يوسف عليه السلام وتعريفه الناس بربهم – عز وجل –، ولا شك أن هذه المعرفة بأسماء الله وصفاته خاصة الرب والغفور والرحيم من أسباب الخير للإنسان ومن علامات نجاته حتى مع ما سلف من التقصير، وذلك إذا قام الإنسان بعبودية هذه الأسماء، وهي تقتضي توبة صادقة له – عز وجل – فإنه لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى، وأمّا أن يكون الأمر مقتصرًا على تحريك اللسان مع ترك الجوارح تنطلق في المحرمات، وترك النفس على جهلها وظلمها والخراب يعشش فيها، فإذا ذكّر ما لله قال: «إن الله غفور رحيم»، فهذا من الأماني والغرور، وما أحسن ما قال الحسن – رحمه الله –: « الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، وكم أناس خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم يقولون نحسن الظن بالله، كذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل. » أ.هـ.

(١) صحيح: رواه أبو داود(٤٩٨٥) الأدب، وأحمد(٢٢٥٧٨) المسند وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٢) صحيح: رواه النسائي(٣٩٣٩) عشرة النساء بلفظ« **حبب إلي من الدنيا النساء والطيب** »، وأحمد (١١٨٨٤) المسند، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣١٢٤).

هذا الذي ذكرناه من أن هذا الكلام كله من كلام امرأة العزيز، وهو ظاهر الآيات، هو الذي رجحه ابن كثير، وانتصر له شيخ الإسلام ابن تيمية في تصنيفٍ له، وهو الذي حكاه الماوردي في تفسيره، والقول الثاني أن ذلك من كلام يوسف عليه السلام من قوله : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي : ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته حين غيابه، وأنه لما قال ذلك قال له جبريل عليه السلام: « ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ » وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبي الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدي وهو الذي لم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم وغيره .

قال ابن كثير منتصراً لقول الأول : « والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك . » أ.هـ.

وهذا الذي قوّاه هو الصحيح، ويؤيّده أن العزيز كان يعلم أن يوسف لم يخنه، وكان يعلم برائته بنص الآيات، قال الله – عز وجل – عنه : ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ فكان يعلم أنها الخاطئة وأن يوسف أمين كريم، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ، وقد سبق بيان أنها أيات برائته وصدقه وعفته ونزاهته، إذن فيوسف لا يحتاج إلى تبرئته عند العزيز، ثم إن ذكر ما قاله جبريل ليوسف : « ولا يوم هممت بما هممت به »، هو من الإسرائيليات التي دل القرآن على عدم صحتها، لأن الله برأ يوسف بقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، وحديث النفس الذي استعاذ الإنسان منه بالله وصرفه الله

عنه، وهو أمر جبليّ فطريّ يثاب الإنسان على تركه لله - عز وجل - لا يُلام عليه، وأي النفسين أولى بالذم وعدم التبرئة ؟ نفس يوسف الذي خاف الله واتقاه وأخلص له فأخلصه الله له وصرف عنه السوء والفحشاء، أم نفس امرأة العزيز التي فعلت وباشرت وكادت . وأي النفسين أولى بأن تكون أمارة بالسوء أي كثيرة الأمر به فهي مبالغة في ذلك ؟ نفس يوسف الذي أول ما دعي إلى الفاحشة : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾، واختار السجن على الإجابة لداعي الحرام، أم نفس امرأة العزيز التي بالفعل تكرر منها الأمر بالسوء مرة بعد مرة، ومقتضى هذا الأثر الإسرائيلي أنه كان لا ينبغي أن يكون هناك تبرئة ليوسف من الخيانة، فيكون المعنى أنه كان له نصيب من ذلك فإن فيه كما ذكره ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : « لما جمع النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه ؟، ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قال يوسف: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾، فقال جبريل عليه السلام: « ولا يوم هممت بما هممت به ؟ »، فقال : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فمقتضى هذا الكلام أنه كان هناك نوع من الخيانة للرجل بالهم الذي حدث، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن في المواطن المختلفة، فصاحب الشأن (العزيز) لم يتهم يوسف بالخيانة، والمرأة أقرت بجريمتها وبراءته، والنسوة قلن : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾، ونزهن الله في هذا المقام أن يكون قد اختار نبيًا من يقع منه خيانة من هذا النوع أو سوءًا بهذه الطريقة، والملك أثبت نزاهته، وإبليس قد أقر أنه لا يغوي عباد الله المخلصين، ويوسف بشهادة القرآن منهم، فماذا بعد ذلك البيان ؟ وماذا بعد شهادة الله له بأنه صرف عنه السوء والفحشاء ؟ فالذي نراه هو الصحيح في هذا المقام ما رجحه الأئمة ابن تيمية وابن كثير وغيرهما : أن الكلام كله في

سياق واحد من كلام امرأة العزيز، ليس شيء منه من كلام يوسف عليه السلام، وقد ذكرنا وجه ذكر المرأة لرحمة الله ومغفرته، ووصف نفسها بالأمارة بالسوء، وأن هذا من الحق الذي أجراه الله على لسانها، وهو من آثار دعوة يوسف عليه السلام فيهم، إذ كان لا يألو جهداً في الدعوة والبيان، وإذا كان قد دعا وهو في السجن فكيف بدعوته خارجه ؟ وكيف بدعوته وهومُمَكَّن ؟ وقد شهد الله بذلك في قوله عن مؤمن آل فرعون لقومه : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر : ٣٤]، فلا يُتعجب من كلام حقٍ تقوله امرأة العزيز في مثل هذا المقام، والله أعلم .

الابتلاء بالملك

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ .

أدرك الملك أن لديه رجلاً لا يوزن بالذهب ولا بالجواهر، ولا يقوم مقامه آلاف الرجال، لقد اكتشف كنزاً ثميناً، بل أغلى من الكنز بكثير، وعثر على جوهرةٍ غاليةٍ، بل أغلى من ذلك بكثير، كانت كلمته الثانية أبلغ بلا شك من الأولى، كانت الثانية : ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ عن علمٍ ويقينٍ، بعد أن كانت الأولى : ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ محتملةً للبحث والتنقيب والاستفصال، كانت الثانية بعد أن علم إحسانه وكرمه وجوده وصبره وحلمه، رغم أنهم الذين سجنوه ظلمًا وعدوانًا على غير تهمة ولا جريمة ولا جناية، بل على العفة والطهارة والأمانة، ما أحسن ما يصنعه الله لعبده المؤمن، وما أجمل هذا الخروج ليوسف معززًا مكرمًا، مرغوبًا في لقائه، معلومة براءته، مذكوراً بكل جميل من جميع الألسن، محسنًا إلى الناس لا ممنونًا عليه في الخروج، ووالله إنه لأكمل مرات ومرات مما لو خرج يوم قال لساقي الملك : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، وأكمل مما لو خرج يوم جاءه رسول الملك بعد تأويل الرؤيا، ووالله إنه لعجبٌ يُتعجب منه، من صبره وحلمه هذا الصبر والحلم العظيم، وحسن العاقبة التي جعلها الله لهذا الصبر والحلم، ما أقلّ صبرنا، وما أكثر استعجالنا، وما أقل علمنا حين لا نفوض الأمور للكريم المنان، الرحمن الرحيم الذي لا يضيع أجر المحسنين، اللهم لك الحمد على ما قضيت، ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت، نستغفرك ونتوب إليك .

أمر الملك بإحضار يوسف إليه ليستخلصه لنفسه، قال ابن كثير : «أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي»، أراد الملك القرب من يوسف وأن يكون له، وحق له ذلك، فلما كلمه عرف المزيد والمزيد من كرمه وفضله وإحسانه، ورأى ما هو

عليه من خُلُقٍ وخَلْقٍ وكمالٍ مبهرٍ، فقال له الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي : إنك عندنا اليوم ذو مكانة عظيمة وأمانة، ظهرت علامات التعظيم من الملك ليوسف، وبدت أمارات الطاعة والمتابعة، وعلم يوسف أن الرجل يسلم له في كل ما يطلبه منه فقال عليه السلام : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : حافظ لما يستودع من أمانات، عليم بما يصنع الناس في سني رخائهم وجدبهم، وحذف الجواب الصريح للعلم به أنه قد أجيب، فالملك لا يرد له طلباً، وقد ضمن هذا قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾، وههنا مسائل :

الأولى : حكم طلب الولاية .

والثانية : حكم العمل للكفار في شئ من ولايتهم .

والثالثة : حكم تزكية النفس في هذا المقام .

وكلها من أهم المسائل التي يكثر الاستدلال بقصة يوسف عليها، ولنبدأ بذكر الأولى :

حكم طلب الولاية والإمارة :

روى البخاري ومسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ : « **يا عبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة، أُعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة، وُكلت إليها** » (١)، وروى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **يا أبا ذر : إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم** »(٢)، وروي أيضاً عنه رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال : « **يا أبا ذر : إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه**

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٦٧٢٢) الأيمان والنذور، ومسلم (١٦٥٢) الأيمان، والترمذي (١٥٢٩) النذور والأيمان .

(٢) رواه مسلم (١٨٢٦) الإمارة، والنسائي (٣٦٦٧) الوصايا، وأبو داود (٢٨٦٨) الوصايا .

فيها » (١)، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة** » (٢) .

فهذه الأحاديث صريحة في النهي عن سؤال الولاية والإمارة، وإن من سألها تُرك ولم يُعَن، فيكون ذلك سببًا في خزيه وندامته يوم القيامة، وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **إنا لا نولي هذا الأمر أحدًا سأله** » (٣)، فالأصل في الإسلام أن لا يطلب الإنسان الولاية، ولا يرشّح نفسه لها، وهكذا كانت خلافة الخلفاء الأربعة الراشدين، فما طلب أحدٌ منهم الخلافة، بل قال أبو بكر رضي الله عنه يوم السقيفة : « وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين » (٤)، يعني : عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح، فقال له عمر : « يرضاك رسول الله لديننا، ولا نرضاك لدنيانا » فبايعه رضي الله عنه، وعمر رضي الله عنه استخلفه أبو بكر، وعثمان رضي الله عنه بايعه عبد الرحمن بن عوف لما جعل علي وعثمان الأمر إليه، وعلي رضي الله عنه بايعه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام، فلم يطلب واحد منهم الإمامة.

وأما وجه الجمع بين هذه الأدلة، وبين طلب يوسف عليه السلام الولاية فهو : أن الولاية إذا تعينت على شخصٍ لعدم صلاحية غيره لها، ولم يقدمه غيره لها، فالحاجة داعية إلى طلبها، فعند ذلك يجوز، وربما وجب عليه طلبها، إذا لم يكن هناك سبيل إلى تولية القوي الأمين إلا بذلك، والمجتمع الإسلامي الأصل فيه أن العلم والعمل هو الذي يبرز الكفاءات حتى يقدمها أهل الحل والعقد، ويوسف عليه السلام لم يكن في هذا المجتمعٍ المسلم، ولا يوجد من يقدمه، ولذا طلب الولاية، فلا ينبغي اعتماد هذا دليلاً على مشروعية نظام الترشيح والانتخاب الغربي في بلاد الإسلام، هذا النظام الذي يقوم على ذكر حسنات النفس وتزكيتها، وعيب الآخرين ونقصهم، ولا شك أن هذه الصورة ليست هي الصورة الصحيحة، ولا عرفها المسلمون عبر عصورهم المختلفة، فلا يجوز أن يقال أن الديمقراطية هي

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٥) الإمارة .

(٢) رواه البخاري (٧١٤٨) الأحكام، والنسائي (٤٢١١) البيعة بلفظ : « **وإنها ستكون ندامة وحسرة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة** » .

(٣) رواه البخاري (٧١٤٩) الأحكام بلفظ : « **إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه** » .

(٤) رواه البخاري (٦٨٣٠) .

الشورى في الإسلام، خصوصاً أن مرد الأمر عندهم إلى العامة والدهماء ممن لا يعرف صفات الولاة الواجبة ومن يستحقها، وإنما يعتمدون على العصبيات والقرابات والمصالح والأموال، فما أقبحها من صورة تضيع فيها الأمانات، ويوسد فيها الأمر إلى غير أهله، فلو اضطر بعض المسلمين إلى طلب الولاية بالشرط الذي ذكرنا من تعينها ووجود الحاجة إلى الطلب، فلا يجعل هذا أصلاً شرعياً يستمر عليه، أو يعتمده المسلمون كنظام لحياتهم ومجتمعهم ووظائفهم، والله أعلم (١) .

---

(١) قال النووي : - رحمه الله في شرح صحيح مسلم : باب كراهة الإمارة من غير ضرورة ، في شرح حديث أبي ذر « **يا أبا ذر إني أراك ضعيفا** .... »الحديث : « هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات ، لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية ، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً لها ، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها فيخزيه الله يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط ، وأما من كان أهلاً للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة كحديث : « **سبعة يظلهم الله** » والحديث المذكور عنا عقب هذا : « **إن المقسطين على منابر من نور** »وغير ذلك ، وإجماع المسلمين منعقد عليه ، ومع هذا فلكثرة الخطر فيها حذره ﷺ منها ، وكذا حذر العلماء ، وامتنع منها خلائق من السلف وصبروا على الأذى حين امتنعوا . » أ.هـ.

وقال الشوكاني في نيل الأوطار (١٠ / ٢٤٤) في فوائد حديث عبد الله بن سمرة «**لا تسأل الإمارة** ... »الحديث : « ويستفاد من هذا الحديث أن طلب ما يتعلق بالحكم مكروه ، فيدخل في الإمارة القضاء والحسبة ونحو ذلك ، وأن من حرص على ذلك لا يعان ، ويعارض ذلك في الظاهر حديث أبي هريرة المذكور في آخر الباب [يعني الحديث الذي رواه أبو داود مرفوعاً : « من طلب قضاء المسلمين حتى يناله ثم غلب عدله جوره فله الجنة ومن غلب جوره عدله فله النار » (*)] ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد حمل على ما إذا لم يوجد غيره ، قال الشوكاني وقال الحافظ : ويجمع بينهما أنه لا يلزم من كونه لا يعان بسبب طلبه ، أن لا يحصل منه العدل إذا ولى ، أو يحمل الطلب هنا على القصد وهناك على التولية ، وبالجملة فإذا كان الطالب مسلوب الإعانة تورط فيما دخل فيه وخسر الدنيا والآخرة ، فلا تحل تولية من كان كذلك ، وربما كان طالب الإمارة مريداً بها الظهور على الأعداء والتنكيل بهم فيكون في توليته مفسدة عظيمة ، قال ابن التين : محمول على الغالب وإلا فقد قال يوسف عليه السلام : ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض** ﴾ ، وقال سليمان عليه السلام : ﴿ **وهب لي ملكا** ﴾قال : ويحتمل أن يكون في غير الأنبياء عليهم السلام انتهى ، قلت : ذلك لوثوق الأنبياء من أنفسهم بسبب العصمة من الذنوب ، وأيضاً لا يعارض الثابت في شرعنا ما كان في شرع غيرنا ، فيمكن أن يكون الطلب في شرع يوسف عليه السلام سائغاً ، وأما سؤال سليمان فخارج عن محل النزاع ، إذ محله سؤال المخلوقين لا سؤال الخالق ، وسليمان عليه السلام إنما سأل الخالق . . » أ.هـ .

قال ابن حجر في الفتح (١٣ / ١٢٦) : « قال المهلب : الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها، حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد في الأرض بذلك ، قال : ويستثنى من ذلك مَن تعين عليه كان يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره ، وإذا لم يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع الأموال، قلت : وهذا لا يخالف ما فرض في الحديث الذي قبله من الحصول بالطلب أو بغير الطلب، بل في التعبير بالحرص إشارة إلى أن من قام بالأمر عند خشية الضياع يكون كمن أعطى بغير سؤال ، لفقد الحرص غالباً عمن هذا شانه ، وقد يغتفر الحرص في حق من تعين عليه لكونه يصير واجباً عليه » أ.هـ .

(*) قال الشوكاني لا مطعن في إسناده .

أما المسألة الثانية وهي تولي الولايات للكفار : وهل يجوز للمسلم أن يعمل للكفار والظلمة في الوظائف التي تستلزم ممارسة بعض الظلم وربما الكفر لمراعاة المصلحة ؟

فنقول أولاً : أن الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام على ذلك فيه نظر لعدة وجوه :-

الأول : أن ذلك واقعة عين محتملة، إذ يحتمل أن يكون الملك قد أسلم على يدي يوسف عليه السلام، ذكره مجاهد، يؤيده أن الله لم يصفه في كل المواضع بفرعون، ومعلومٌ أن فرعون لقب لكل من ملك مصر كافرًا، ويؤيده أيضًا أن الكلام بحضرته بالثناء على الله بأنه الرب الغفور الرحيم، وذكر تنزيهه -عز وجل-، مثل قول النسوة : ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾، وقول امرأة العزيز : ﴿**إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾، كل هذا يؤيد القول بإسلامه .

وقارن بين كلام فرعون لموسى، وعقائد الفراعنة المنقولة والمنحوتة على معابدهم، تجد فرقًا كبيرًا جداً بين هذا الملك وبين الفراعنة الكفار، ويؤيده أيضًا أنه قال عن يوسف : ﴿**أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**﴾، ثم قال له : ﴿**إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**﴾ أي : ذو مكانة، ثم هو مطيعٌ له فيما يطلبه منه، فاحتمال إسلامه احتمالٌ قويٌ، وعلى أي حال : فوقائع الأحوال إذا تطرق إليها الاحتمال، سقط بها الاستدلال، لما يبقى فيها من الإجمال.

وأما قوله تعالى : ﴿**مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ**﴾ أي : حكمه وشرعه كما سيأتي، فلا يلزم منه كفر الملك .

الوجه الثاني : أن شرع يوسف عليه السلام لم يكن شريعة عامة، تلزم جميع الناس في زمنه، وإنما هو ملتزم بها مع أبناء يعقوب، وإنما كانت دعوته لأهل مصر إلى التوحيد والإيمان، ولا دليل على وجود شريعةٍ ملزمةٍ، أُرسل بها يوسف إليهم،

وكانت لازمة لهم، فرَدُّوها ولم يعملوا بها، ولا يتم الاستدلال بجواز تولي الولايات للكفرة والظلمة، وممارسة الظلم فضلاً عن الكفر، إلا بإثبات ذلك، وإثبات أن يوسف بعد رَدِّهم للشريعة ظلّ يطبق فيهم شرعتهم الباطلة المخالفة لشرع الله، ولا سبيل إلى إثبات ذلك بوجه من الوجوه .

الوجه الثالث : أن الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام في هذه المسألة مبنيٌّ على أن : (شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه)، فلو سلّمنا أن يوسف كان يباشر مخالفة الشرع والظلم، وحاشاه من ذلك عليه السلام، – ونحن بحمد الله لا نسلمه ولا نقره –، لما كان في ذلك حجة، لأن شرعنا ورد بخلاف ذلك في مواطن مختلفة، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة : ٢]، وقوله تعالى : ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ** ﴾ [هود : ١١٣]، وقوله تعالى : ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ﴾ [القلم : ٩]، ومن ذلك قول النبي ﷺ : « **سيكون بعدي أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها، ويقرّبون شرار الناس، فمن أدرك ذلك، فلا يكونن لهم عريفًا ولا شرطيًا ولا خازنًا ولاجابيًا** » [(١)] رواه ابن حبان في صحيحه، وسكت عنه النووي، وصححه الألباني . فمنع من هذه الوظائف لما تشتمل عليه من ظلمٍ وعدوانٍ ومباشرةٍ للحرام، وامتناع السلف من تولي القضاء وغيره من الولايات للظلمة، كثير مشهور مذكور في فضائلهم، فشرعنا ينهى عن الإعانة على الظلم فضلاً عن مباشرة شئ من ذلك .

الوجه الرابع : أن الشريعة التي بعث بها محمد ﷺ شريعة عامة باقية للأحمر والأسود، والكفار مخاطبون بفروعها على الصحيح من أقوال العلماء، فلا يسع أحدًا الخروج على شئ منها، وهي شريعةٌ شاملةٌ لكل الأمور والمسائل،

(١) صحيح : رواه ابن حبان (٤٥٨٦) ، وسكت عنه المنذري ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٦٠) وأوله في صحيح مسلم : «كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها » .

لا يوجد أمر في دين أو دنيا ويخرج عن حكم من أحكامها، بخلاف ما سبقها من شرائع الأنبياء السابقين، فقد كان يسع البعض الذين لم يرسل إليهم النبي، أن يخرج عليها، ولم تكن شرائعهم شاملة لكل الأحكام، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ [آل عمران : ٩٣]، فليس هناك ما يدل على أن يوسف كان ملزمًا أن يحكم في أهل مصر بشريعة يعقوب عليه السلام أو غيرها، وليس هناك ما يدل على أن عمل يوسف عليه السلام على خزائن الأرض يتضمن مخالفة لشريعة يعقوب أو يوسف – عليهما السلام –، وليس هناك ما يدل على أن أهل مصر في ذلك الوقت كانوا مكلفين بفروع شريعة إلهية، زيادةً على ما أُمروا به من توحيد الله وعبادته، والله أعلم .

لهذه الوجوه نرى عدم صحة الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام على هذه المسألة أصلاً، ومثلها في عدم صحة الاستدلال قضية النجاشي، وأنه بقي في ملكه على مملكة الحبشة بعد إسلامه، مع بقائهم على دينهم وشريعتهم، وذلك لأنه ليس هناك ما يدل على بلوغ تفاصيل الشريعة للنجاشي خلال مدة حكمه، فمعلوم أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وأن أحكام الشريعة التفصيلية، إنما نزلت في المدينة بعد الهجرة، ولم يبلغ المسلمين في الحبشة ظهور النبي ﷺ، فضلاً عن تفاصيل الشرائع، إلا في السنة السابعة من الهجرة، حين قدم جعفر ومن معه رضي الله عنهم على رسول الله ﷺ وقد فتح خيبر، وأولى وأولى أن لا يصل إلى النجاشي تفاصيل الأحكام الشرعية، حتى يلزمه العمل بها فإن العمل يجب مع التمكن من العلم والقدرة على العمل، فإذا لم يتمكن من العلم، أو كان عاجزاً عن العمل، لم تجب عليه، والله المستعان .

أما عن حكم المسألة : فلا بد من التفصيل في نوع العمل الذي يتولاه،

فالوظائف التي تتضمن إقامة الكفر والباطل، كالإمامة (الملك أو رئاسة الدولة) مع لزوم إقامة أنظمتهم الكفرية، وكذا قيادة الجيوش، بل ومجرد المشاركة فيها، والمشاركة في الحروب التي غايتها إعلاء الكفر والشرك بالله والإعانة على ذلك، كل هذا من أعظم المحرمات، بل هي من الموالاة التي حكم الله على أصحابها بالكفر فقال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾[النساء : ٩٧] .

قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره (١ / ٥٤٣) : « ﴿ **ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ أي : بترك الهجرة، وقال : هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا بالإجماع، وبنص هذه الآية .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما **أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على أمر رسول الله ﷺ يأتي السهم فيرمي أحدهم فيقتله أو يضرب عنقه، فيقتل فأنزل الله هذه الآية** : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ** ﴾(١) .

وروى ابن جرير بسنده عن عكرمة في هذه الآية قال : « نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعه بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبي العاصي بن منبه بن الحجاج، وعلى بن أمية بن خلف، قال : لما خرج المشركون من قريش، وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب، وعير قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه، وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم نخلة ؛ خرجوا معهم بشباب كارهين، كانوا قد أسلموا، واجتمعوا ببدر على غير موعد، فقتلوا ببدر كفاراً، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين سميناهم » .

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٦)، والنسائي (١١١٩) في الكبرى .

وعن السدي في الآية قال : « لما أسر العباس، وعقيل، ونوفل قال رسول الله ﷺ : « افد نفسك، وابن أخيك، فقال : يا رسول الله، ألم نصل إلى قبلتك ونشهد شهادتك ؟ قال : يا عباس إنكم خاصمتم فَخُصِمْتُم، ثم تلا عليه هذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ » [النساء : ٩٧] (١) .

فوضح بما ذكرنا حكم من زعم الإسلام ثم خرج في صفوف الكافرين مقاتلاً للمسلمين فحكم المشركين يجري عليه في جميع هذه الأحوال، وهكذا عامل الرسول ﷺ، والمسلمون من خرج في بدر، ولو كانوا كارهين، وإنما آثروا مرضاة آبائهم، وأهليهم على الإسلام، والإيمان بالرسول ﷺ، ولا يصلح مثل هذا إكراهًا ليعذر صاحبه، والظاهر في سياق الآية، وما ذكرنا من الآثار في سبب النزول : أن حكم الكفر ينطبق عليهم في الآخرة أيضًا، لأن الله قد حكم أن لهم جهنم وساءت مصيراً، ولم يدل على خروجهم منها، بل وفي بعض الروايات عن ابن عباس : « فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء : ٩٧] . فدل عدم الاستغفار لهم على كونهم ماتوا على الكفر بسبب هذه الموالاة الشركية لأهل الشرك، ولو كانوا آبائهم أو أهليهم .

ويؤيد ذلك ما رواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ [النساء : ٨٨] . قال : « ذلك أن قومًا كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد ﷺ فليس علينا منهم بأس، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين :

---

(١) رواه ابن جرير (٥ / ٢٣٥) مرسلاً .

سبحان الله – أو كما قالوا – أتقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا، ويتركوا ديارهم، نستحل دمائهم، وأموالهم لذلك ؟ فكانوا فئتين، والرسول ﷺ عندهم لا ينهي واحدًا من الفريقين عن شيء، فنزلت : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين ... ﴾ » الآية (١) .

والشاهد منها قول المؤمنين : « فاقتلوهم ؛ فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم » ونزلت الآيات بموافقة هذه الطائفة من المؤمنين ؛ لقوله تعالى : ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا ﴾ .

[النساء : ٨٩] .

قال السدي : إذا أظهروا كفرهم ؛ فاقتلوهم حيث وجدتموهم . وهذا أقرب ما قيل في تفسير الآية موافقًا لسياقها كما قال ابن جرير بعد ذكر الاختلاف فيمن هم المقصودون بهذه الآية، والقول الآخر أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول، وأصحابه –الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة أحد، والسياق يدل على بُعده، كما ذكر ابن جرير والقرطبي وأبوالسعود وغيرهم . وأولى هذه الأقوال بالصواب : قول من قال : نزلت هذه الآية في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في قوم كانوا ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة .

وفي قول الله تعالى : ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا ﴾ أوضح الدليل على أنهم كانوا من غير أهل المدينة أ.هـ (٢) .

وأما تسميتهم بالمنافقين في التصريح بكفرهم، فإنما باعتبار حالهم السابق – كما ذكره أبوالسعود في تفسيره – وأما باعتبار تكلمهم بالإسلام، مع

---

(١) رواه ابن جرير (٥ / ١٩٢) ، وعزاه السيوطي (١ / ١٠١٠) الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم .
(١) تفسير ابن كثير (١ / ٥١٢) .

استمرارهم على ما يناقضه من موالاة الكفار بنصرتهم، ومظاهرتهم على المسلمين – وقد ذكرنا الآثر في ذلك – والمنافق الذي أظهر كفره، وجب قتله، وإن ظل ينتسب إلى الإسلام .

وهذا الأمر بقتل المنافقين – إذا أظهروا نفاقهم – معلق على المصلحه في قتله، أو المفسدة، فقد ترك رسول الله ﷺ قتل من علم نفاقه قطعًا منهم، « **وهو الذي قال له : اعدل** » (١) . لوجود مفسدة أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، في حين « **أمر بقتل الخوارج حين يخرجون** » (٢) ؛ لظهور مفسدة تركهم حينئذ، بسفك الدم الحرام، وانتهاك الحرمات وانتفاء مفسدة قتلهم، بانتشار الإسلام، وتأسس قواعده، وهذا « **ما فعله الخليفة الراشد علي بن أبي طالب** رضي الله عنه » (٣) وقد أمر الله بجهاد المنافقين مع الكفار، فقال تعالى : ﴿ يا أَيُّها النَّبيُّ جاهِد الْكُفّارَ وَالْمُنافِقينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم : ٩] .

ورجح ابن جرير إن قتالهم بالسيف إذا أظهروا نفاقهم، ومثله قوله تعالى : ﴿ لئن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ في الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ .

[الأحزاب : ٦٠–٦١] .

وعن قتادة قال : إذا هم أظهروا النفاق، فبناء الأمر في قتال المنافقين على المصلحة والمفسدة في ذلك، والله تعالى أعلم .

ولو كان هؤلاء المنافقون قد صرحوا بعدم انتسابهم للإسلام ؛ لما كان هناك معنى لاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فيهم حتى ينزل القرآن يبين صحة نفاق

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣١٣٨) ، ومسلم (١٠٦٣) ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه بلفظ « لقد شقيت إن لم أعدل » .

(٢) رواه مسلم (١٠٦٤)، وأبو داود (٤٦٦٧)، وأحمد (٣ / ٣٢)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه بلفظ « تمرق مارقة عند فرقة المسلمين » .

(٣) رواه البخاري (٦٩٢٢)، وأبو داود (٤٣٥١)، والترمذي (١٤٥٨)، والنسائي (٢ / ١٧٠) .

الذين اختلف المؤمنون في أمرهم ويحذر من دافع عنهم من الدفاع عنهم .

قال ابن حزم -رحمه الله- في المحلى (١١ / ١٩٩) : « من لحق بدار الكفر، والحرب مختاراً لمن يليه من المسلمين، فهو بهذا الفعل مرتد، له أحكام المرتد كلها من وجوب القتل عليه متى قدر عليه، وإباحة ماله، وانفساخ نكاحه، وغير ذلك » .

وقال أيضاً : « وكذلك من سكن بأرض الهند، والسند، والصين، والترك، والسودان، والروم من المسلمين، فإن كان لا يقدر على الخروج من هنالك، لثقل ظهر، أو لقلة مال، أو لضعف جسم، أو لامتناع طريق، فهو معذور، فإن كان هناك محارباً للمسلمين، معيناً للكفار بخدمة أو كتابة، فهو كافر، وإن كان إنما يقيم هنالك لدنيا يصيبها، وهو كالذمي لهم، وهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين وأرضهم، فما يبعد عن الكفر، وما نرى له عذراً، ونسأل الله العافية » .

قال : « وليس كذلك من سكن في طاعة أهل الكفر من الغالية (١)، ومن جرى مجراهم، كأهل مصر، والقيروان، وغيرهم، فالإسلام هو الظاهر، وولاتهم على ذلك، لا يجاهرون بالبراءة من الإسلام، بل إلى الإسلام ينتسبون، وإن كانوا في حقيقة أمرهم كفاراً (٢)، وقال أيضاً : وأما من سكن في بلد تظهر فيه بعض الأهواء المخرجة إلى الكفر، فهو ليس بكافر، لأن اسم الإسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد، والإقرار برسالة محمد ﷺ، والبراءة من كل دين غير الإسلام، وإقامة الصلاة، وصيام رمضان، وسائر الشرائع التي هي الإسلام، والإيمان، والحمد لله رب العالمين أ.هـ .

---

(١) يقصد غلاة الشيعة ، كالفاطميين الذين كانوا يحكمون مصر ، والقيروان ، وسائر أفريقيا ، بل والحرمين ، والشام كذلك .

(١) لابد من التنبيه لهذا الفرق المهم بين طاعة من يصرحون بالكفر ، وبين طاعة من ينتسبون إلى الإسلام ، وهم في حقيقة امرهم كفار ، فامر الطائفة الأخيرة يحتاج إلى نظر ، واجتهاد ، وليس معلوما قطعا من الدين كالأولين ، وموالاتهم وطاعتهم ، وإن كانت محرمة إلا انها ليست كفراً ينقل عن الملة ، مراعاة لهذا الفارق المهم ، ما لم يعلم كفرهم ، فتنبه .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - لما ذكر الأنواع التي يكفر بها الرجل - قال :

« النوع الرابع : من سلم من هذا كله، ولكن أهل بلده يصرون على عداوة التوحيد، وأهله واتباع أهل الشرك، وهو يعتذر إن ترك وطنه، يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده، ويجاهد بماله ونفسه، فهذا أيضًا كافر، فإنه لو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه، ولا يمكنه ترك ذلك إلا بمخالفتهم فعل، وموافقته لهم في الجهاد معهم بنفسه وماله، مع أنهم يريدون بذلك قطع دين الله ورسوله أكبر من ذلك بكثير، فهو أيضًا كافر، وهو ممن قال الله فيهم : ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء : ٩١] أ.هـ(١) .

ومما تقدم من الأدلة وأقوال العلماء، تعرف حكم من يخرج من جيوش الكافرين، المعلنين كفرهم في قتال المسلمين ؛ لأجل إسلامهم، كالشيوعيين الملحدين ونحوهم، وما يجب على المسلمين أن يعاملوهم به، وبالله التوفيق، ولابد لنا من التنبيه هنا على أن النصرة الواجبة للمؤمنين، إنما تجب في الدين، كما أمر الله بها ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وأما إن كانت انتصاراً لعصبية أو قومية أو وطنية دون معرفة الحق من الباطل، وإنما هي الطاعة العمياء لمن يرفع رايات الجاهلية، فهذه التي قال فيها النبي ﷺ : **«من قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة فقتل، فقتله جاهلية »**(٢) .

وقال ﷺ : **« والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان، لا يدري القاتل في أي شيء قتل، ولا يدري المقتول في أي شيء قتل »**(٣) .

---

(١) الدفاع لابن عتيق ص (١٠-١٢) نقلاً عن الولاء والبراء ص (٢٧٤) .

(٢) رواه مسلم (١٨٤٨)، والنسائي (٣٥٧٩) الكبرى، وأحمد (٢/٢٩٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم (٢٩٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وعن أبي بكرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار** » فقلت : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « **إنه كان حريصًا على قتل صاحبه** » (١) .

وكذا تولي القضاء الذي فيه الحكم بغير ما أنزل الله، **ويعلق الشيخ أحمد محمد شاكر –رحمه الله– في «عمدة التفسير» (٤ / ١٧٣) قائلاً** : « أقول : أفيجوز – مع هذا – في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبسٍ عن تشريعات أوروبا الوثنية الملحدة ؟ بل بتشريعٍ تدخله الأهواء، والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟ .

إن المسلمين لم يبلوا بهذا قط – فيما نعلم من تاريخهم – إلا في ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته، وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم، وأن هذا الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم، فما أسرع ما زال أثره .

أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير – في القرن الثامن – لذلك القانون الوضعي، الذي صنعه عدو الإسلام « جنكيز خان » ؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر ؟ إلا في فرقٍ واحد، أشرنا إليه آنفًا : أن ذلك كان في طبقةٍ خاصةٍ من الحكام، أتى عليها الزمان سريعًا، فاندمجت في الأمة الإسلامية، وزال أثر ما صنعت .

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً، وأشد ظلمًا وظلامًا منهم ؛ لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري(٣١) ، ومسلم(٤٨٨٨) ، وابو داود(٤٢٦٨) ، والنسائي(٧ / ١١٤) ، واحمد(٥ / ٤٣ ، ٥١) .

شيء بذلك «الياسق» الذي اصطنعه رجل كافر، ظاهر الكفر، هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، يفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقي هذا «الياسق العصري» ! ويحقرون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم، وشريعتهم «رجعيًا وجامدًا» إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة .

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي، يريدون تحويله إلى «ياسقهم الجديد» بالهوينا واللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبما ملكت أيديهم من السلطان تارة، ويصرحون – ولا يستحيون – بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين . !!!

أفيجوز إذن – مع هذا – لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد، أعني التشريع الجديد !! أو يجوز أن يرسل أبناءه لتعلم هذا، واعتناقه، واعتقاده، والعمل به، عالمًا كان الأب أو جاهلاً ؟! .

أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا (الياسق العصري) وأن يعمل به، ويعرض عن شريعته البينة ؟ ما أظن رجلاً مسلمًا، يعرف دينه، ويؤمن به جملة وتفصيلاً، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله، كتابًا محكمًا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به واجبة، قطعية الوجوب في كل حال – ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متأول، بأن ولاية القضاء في هذا الحال باطلة بطلانًا أصليًا، لا يلحقه التصحيح، ولا الإجازة .

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداراة، ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام – كائنًا من كان – في العمل بها، أو الخضوع لها، أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرئ حسيب نفسه .

ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه غير موانين، ولا مقصرين .

سيقول عني عبيد هذا (الياسق العصري) وناصروه، أني جامد، وأني رجعي، وما إلى ذلك من الأقاويل، ألا فليقولوا ما شاؤوا، فما عبأت يومًا ما بما يقال عني، ولكني قلت ما يجب أن أقول » أ.هـ.

وقال الأستاذ محمود شاكر - رحمه الله - في عمدة التفسير (٤ / ١٥٦) عند قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة وبعد، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدوا للكلام في زماننا هذا قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله، وفي القضاء في الدماء والأعراض، والأموال بغير شريعة الله التي أنزل في كتابه، وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام، فلما وقف على هذين الخبرين - قول ابن عباس رضي الله عنهما : كفر دون كفر، وأثر أبي مجلز - اتخذهما رأيا يرى به صواب القضاء في الأموال، والأعراض، والدماء، بغير ما أنزل الله، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها، والعامل عليها، والناظر في هذين الخبرين لا محيص له من معرفة السائل والمسئول، فأبو مجلز (لاحق بن حميد السدوسي) تابعي ثقة، وكان يحب عليًا رضي الله عنه، وكان قوم أبي مجلز - هم بنو شيبان - من شيعة علي يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين، واعتزلت الخوارج، كان فيمن خرج على عليّ رضي الله عنه طائفة من بني شيبان، ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل . هؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس، وهم نفر من الأباضية، والأباضية من جماعة الخوارج الحرورية، هم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي، وهم يقولون بمقالة سائر الخوارج في التحكيم، وفي تكفير علي رضي الله عنه إذ حكم الحكمين، وأن عليًا لم

يحكم بما أنزل الله في أمر التحكيم، ثم إن عبد الله بن إباض قال : إن من خالف الخوارج كافر، ليس بمشرك، فخالف أصحابه، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجري على من خالفهم . ثم افترقت الإباضية بعد عبد الله بن إباض الإمام افتراقًا، لا ندري معه - في أمر هذين الخبرين - من أي الفريقين كان هؤلاء السائلون، بيد أن الإباضية كلها تقول : إن دُور مخالفيهم دُور توحيد إلا معسكر السلطان، فإنه دار كفر عندهم، ثم قالوا أيضًا : إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان، وإن كل كبيرة فهي كفر نعمة، لا كفر شرك، وأن مرتكبي الكبائر في النار خالدون، مخلدون فيها .

ومن البيّن : أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء، لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما عصوا، أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه، ولذلك قال لهم في الخبر الأول : « فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبًا »، وقال لهم في الخبر الثاني : « إنهم يعملون بما يعملون، ويعلمون أنه ذنب »، وإذن لم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء في الأموال، والأعراض، والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، وبالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله -سبحانه وتعالى-، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه .

والذي نحن فيه اليوم - هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه، وسنة نبيه ﷺ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة،

وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعلل، وأسباب انقضت ؛ فسقطت الأحكام كلها بانقضائها، فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس ؟!!.

ولو كان الأمر على ما ظنوا من خبر أبي مجلز - أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة - فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكمًا، وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها . هذه واحدة . وأخرى : أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه : إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة، وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية، فهذا ذنب تناله التوبة، وتلحقه المغفرة . وإما أن يكون حكم به متأولاً حكمًا خالف به سائر العلماء، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب وسنة رسول الله ﷺ، وإما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر جاحداً لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثرًا لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط . فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه . فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابها وصرفهما لغير معناهما ؛ رغبة في نصرة سلطان، أو احتيالاً على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله، وفرضه على عباده فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله أن يستتاب، فإن أصر، أو كابر، أو جحد حكم الله، ورضي بتبديل الأحكام، فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين. وكتبه محمود محمد شاكر .» أ.هـ.

فكل هذه الولايات مهما كان فيها من المصالح، فلن تقاوم المفسدة الأعظم التي هي الكفر، والعياذ بالله، فإن الترجيح بين المصالح والمفاسد لا بد أن يكون بميزان الشريعة، وقد دلت الأدلة على أن هذه الأعمال من الكفر، وهو أعظم

المفاسد، ولم يبحه الشرع إلا عند الإكراه، وليس هناك إكراه في تولي الولايات للكفار .

ولا يصح الإكراه على قتال المسلمين . .

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسيره (٥ / ٣٧٩٩) : « أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره، أنه لا يجوز له الإقدام على قتله، ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة .

ومن الوظائف المحرمة : تولي أخذ الربا وعطائه وحسابه وكتابته وإقامة النظام الاقتصادي عليه، ومنه تولي إقامة أماكن الفساد والفجور وأدواته ووسائله والدعوة إليه والإعلام به من كتابات وفنون وغيرها، ومنها تولي إقامة العصبية الجاهلية والحزبية القائمة على خلاف الدين، وسياسة أمور الناس بخلاف الشرع، ومنها جباية الأموال ظلمًا وجمعها عدوانًا بما لم يأذن فيه الشرع، إلا ما كان صاحب هذا الأمر ناويًا التخفيف عن المسلمين في أمر لا بد واقع بهم، وقادراً على ذلك، فيكون في المسألة اجتهاد في الجواز والمنع، والذي ينبغي الترجيح به مدى القدرة على التخفيف عن المسلمين، ومدى الضرر الواقع على الشخص في مخالطته للظلمة ومباشرته للظلم، أما إذا لم يكن ناويًا التخفيف عن المسلمين، أو كان عاجزًا عن التخفيف عنهم، لم يسع الخلاف في المنع من تولى هذه الولايات والوظائف .

أما الوظائف والولايات التي لا تتضمن إقامة كفرٍ أو ظلمٍ أو معصيةٍ، كالأنظمة الإدارية التي يراد بها ضبط الأعمال وإقامة مصالح الناس المباحة والمشروعة، لحفظ أموالهم وإقامة طرقهم ومصانعهم ومستشفياتهم وزراعاتهم وصناعاتهم وتجاراتهم، وتوزيع ما يحتاجون من غذاء وكساء ودواء، ونحو ذلك

فتوليه للكفار من الإجارة المباحة، وتوليه للمسلمين وإن كان القائم عليهم ظالمًا أو منافقًا، مع النية الصالحة في رعاية مصالح المسلمين على أفضل ما يمكن، طاعة وقربة لله – عز وجل –، قال تعالى عن شعيب : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [هود : ٨٨] وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

قال الشيخ الشنقيطي – رحمه الله – في أضواء البيان (٤ / ٨٤) : «اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعي الذي يقتضي تحكيمه الكفر بخالق السماوات والأرض، وبين النظام الذي لا يقتضي ذلك، وإيضاح ذلك أن النظام قسمان : إداري وشرعي، أما الإداري : الذي يراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع فهذا لا مانع فيه، كتنظيم شئون الموظفين، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لا يخالف الشرع (١)، ولا يخرج من قواعد الشرع مع مراعاة المصالح العامة .

وأما النظام الشرعي : المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنهما يلزم استواؤهما في الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذلك، فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع، وأموالهم، وأعراضهم، وأنسابهم، وعقولهم، وأبدانهم، كفر بخالق السماوات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه خالق الخلائق لها، وهو سبحانه وتعالى أعلم بمصالحهم عن أن يكون معه مشرع آخر علوًا كبيرًا» أ.هـ.

---

(١) مع مراعاة أنه ليس من الموالاة، البيع والشراء والإجارة، وعليه يتضح خطأ من زعم أن التوظف في الوظائف الحكومية الإدارية، وأنواع الخدمات المباحة المشروعة في ضوء القواعد الشرعية لدى الحكومات الحاكمة بالقوانين الوضعية يعد شركًا، أو موالاة، أو محرمًا، وإنما ذلك الشرك والكفر والظلم في التعاون والرضا بذلك، بل إذا نوى خدمة المسلمين، وكونه في حاجتهم، فالله المسئول أن يتقبل منه عملاً صالحًا مثابًا عليه في الدنيا والآخرة .

ومن هنا يتبين لك أن ما لهج به كثير من المتأخرين، بالاستدلال بقصة يوسف عليه السلام على تولي الولايات للكفرة والظلمة دون تفصيل، فيه خطرٌ كبيرٌ وخللٌ جسيمٌ، لا بد من الحذر منه، فهو – عليه السلام – إنما تولى خزائن الأرض لحفظ أموال الناس وطعامهم وما يقوم بشأنهم في سني الجدب، هم وما حولهم من الأقطار التي لا تخلو من مسلمين ينتفعون بهذا الحفظ والتخطيط السليم، فأين هذا من الإعانة على الإثم والعدوان، والكفر والطغيان، بزعم أن ذلك مما وردت الشريعة بجوازه في قصة يوسف عليه السلام ؟! .

حاش لله، ثم حاش يوسف عليه السلام أن يكون معيناً على إثمٍ وعدوان، أو كفر أو ظلم أو طغيان، والله أعلم .

المسألة الثالثة : في حكم تزكية النفس وذكر فضائلها :

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم : ٣٢]، قال ابن كثير : « أي : تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٤٩] ثم ذكر الحديث الذي رواه مسلم عن محمد بن عمرو قال : سميت ابنتي برة، فقالت زينب بنت أبي سلمة إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسُمِّيت برة، فقال رسول الله ﷺ : « **لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم** »، فقالوا : بم نسميها ؟، قال : « **سموها زينب** » (١).

وروى مسلم أيضاً عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا، حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد** » (٢) » أ.هـ.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « من قال أنا عالم فهو جاهل، ومن قال أنا في الجنة فهو في النار » .

---

(١) رواه مسلم (٢١٤٢) الآداب ، وابو داود (٤٩٥٣) الآداب .

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) الجنة وصفة نعيمها وأهلها (جزء من حديث طويل) ، وابو داود (٤٨٩٥) الآداب واللفظ له .

فمقتضى هذه الأدلة وغيرها عدم جواز تزكية النفس ومدحها، وهذا هو الأصل الذي يجب على المسلمين التمسك به، فإن الإعجاب بالنفس من الأمراض المهلكة، وهو داء إبليس الذي قال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ١٢]، وداء صاحب الجنة الذي قال لصاحبه: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤]، فكان عاقبته أن أُحيط بثمره، وأُبيدت جنته، وهو داء فرعون الذي يقول عن موسى: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢]، وكفى بعاقبة هؤلاء عظةً وعبرةً في التحذير من مدح النفس وتزكيتها.

ولا يستثنى من ذلك إلا موضع الضرورة والحاجة، التي لا بد أن تقدر بقدرها فلا يزاد عليها، وقد دل على الرخصة في موضع الحاجة والضرورة قول يوسف عليه السلام: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥]، وذلك أن الملك كان لا يعرف فيه القدرة على الحفظ والضبط لبيت المال، وطرق حفظ الغلال ونحو ذلك، فاحتاج إلى البيان، وكما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ٤٣]، وذلك لترغيب أبيه وحثه على متابعة دين الحق، وكقول النبي ﷺ: « **إني لأعلمكم بالله، وأشدكم منه خشية** »(١)، وقوله: « **أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر** »(٢)، وذلك ليعلم الناس الاعتقاد الواجب فيه ﷺ وأنه أعلم الخلق بالله وأخشاهم له، وليحذرهم من الغلو المذموم في العبادة، بتحريم ما أحل الله، أو إيجاب ما لم يوجبه، وكقول عائشة رضي الله عنها: « على الخبير سقطت »(٣)، وقول ابن مسعود: « لو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تضرب إليه أكباد الإبل، لذهبت إليه »(٤)، ونحو ذلك للترغيب في طلب العلم وأخذه عنه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٦٣٥٦).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤)، وأحمد (٩٣٤٠) واللفظ له.
(٣) و (٤) سبق تخريجهما: ص (١١٠).

وعلى أي حال، فالأصل في هذا الباب ، الامتناع من مدح النفس وتزكيتها، والحذر على النفس من ذلك، وهؤلاء الأفاضل منهم الأنبياء المعصومون، ومنهم الأولياء المتقون المشهود لهم بالفضل من النبي ﷺ، فمن يشهد للمادح نفسه من غيرهم ؟ ومن يضمن له حسن نيته وهي تتقلب على المرء في الساعة الواحدة مرات ؟ والسلامة لا يعدلها شئ والفرق بين الحق والباطل في مثل هذا المقام ربما كان أدق من الشعرة وأحد من السيف، وربما تخفى حظوظ النفس على صاحبها ويوهم نفسه بأنه يعمل المباح، وحقيقة الأمر العجب المحرم والغرور المذموم، فما لأمثالنا وتزكية نفوسهم ومدحها وذكر فضائلها ؟ وما أكثر من تغره نفسه في الفضائل التي هي عارية عنها، وإنما هي دعوى وتشبع بما لم يعط، فإذا كان مدح الإنسان نفسه بما يتيقن من فضائلها، الأصل فيه المنع، والجواز فيه على قدر الضرورة والحاجة، مع شرط سلامة النية وحسن القصد والإخلاص، الذي هو أعز شئ، والشرك في هذا المقام أخفى من دبيب النمل، فكيف بما يشك فيه أهو في النفس أم لا ؟ فكيف بما يعلم أنه دعوى ؟ فكيف بما يعلم أن النيّة فيه لغير الله ؟ فنسأل الله العافية، ونعوذ به من الكبر والعجب والغرور .

وعندما ينظر المرء إلى المجتمعات المعاصرة، والنظم التي اختارتها لنفسها في تولية الولايات، وهي تزعم أنها في قمة الحضارة، وأرقى ما وصلت إليه الإنسانية من الحرية والعدالة، يرى كيف يزكّون أنفسهم بما ليس فيهم لنيل حظ من حظوظ الدنيا، ويغتابون غيرهم وينمّون لإفساد صورتهم عند الناس ليصرفوهم عن اختيارهم، فتكون ما يسمونه بـ (المعارك الانتخابية)، وقد تسفك فيها الدماء، وقطعًا تنفق فيها الملايين من الأموال، وتُشترى الذمم والولاءات، عندما يرى المرء ذلك، يعلم صدق ما قال رسول الله ﷺ في أشراط الساعة : « **وأن ترى**

الصم البكم ملوك الأرض » (١)، ويرى كيف يتسبب جهل الناس بالشرع، ومخالفتهم لهديه في تضييع الأمانة، وأن يوسد الأمر إلى غير أهله، فيكون ذلك سببًا في خراب الدنيا وقرب نهايتها، كما قال رسول الله ﷺ : « **إذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة** »، قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : « **إذا وسد – أي : أسند – الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة** » (٢)، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

فعلى المرء المسلم أن يربأ بنفسه من التمرغ في وحل هذه الأنظمة الجاهلية، ودنس المشاركة فيها، أو إضفاء الشرعية عليها، والله المستعان .

يبقى في هذا الجزء من القصة فائدةٌ مهمةٌ، يتبين بها عظمة القصص القرآني، وإنه من أحسن القصص، فيم ذكر وفيما ترك ذكره، فإنه يربي النفوس بالذكر والترك معًا، ليس فقط بالذكر، هذه الفائدة تتعلق بمصير امرأة العزيز، ما جرى لها بعد ذلك ؟ في القصص المنقول عن الإسرائيليات، النهاية التي يبحث عنها من تعلقت نفسه بالشهوات، والتي تشبه النهايات السعيدة في الأفلام والتمثيليات البشرية، من أن البطل يتزوج البطلة كما يسمونها، وينجب منها البنين والبنات في حياة سعيدة هنيئة .

قال ابن اسحق – رحمه الله – : « فذكر لي، والله أعلم، أن اطفير هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان بن الوليد زوّج يوسف امرأة اطفير، راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال لها : أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين؟ قال : فيزعمون أنها قالت : أيها الصديق، لا تلمني، فإني كنت امرأة كما تراني حسناء جميلة ناعمة في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رجلين افرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف، وولد لافرائيم نون والد يوشع ابن

---

(١) رواه مسلم (١٠) الإيمان، في حديث جبريل المشهور .

(٢) رواه البخاري (٥٩، ٦٤٩٦) العلم، وابن حبان (١٠٤)، وأحمد (٨٧١٤) .

نون، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام»، وهذه هي النهاية المريحة للنفوس التي مدار الحياة عندها على قضية الشهوة الجنسية، وأنها هي المحرك الأساسي للدوافع والرغبات الإنسانية، وإن كنا لا نجزم ببطلانها، بل يحتمل الأمر الصدق أو الكذب، فهذه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، إلا أننا نجد القرآن أعرض عن ذكر هذه النهاية أو غيرها لامرأة العزيز، بل سكت عنها واختفى ذكرها إلى نهاية القصة، فقد كانت هذه المرأة كالمطية التي وصل بها يوسف عليه السلام إلى ما وصل إليه، كانت بلاء عليه مدة من الزمن، ثم جعل الله البلاء سببًا للعافية، ومحاولة الإذلال سببًا للعز، والسجن سببًا للملك بقدرته سبحانه، واختفت امرأة العزيز من القصة تهوينًا لشأنها، وشأن هذه القضية أصلاً، قضية نيل الشهوة، قد يكون الأمر أنه تزوجها بالفعل، وقد يكون أنها ذلّت وصارت تقف صاغرة على ظهر الطريق، كما تشير إليه رواية الفضيل بن عياض التي سبق ذكرها، أنها وقفت على ظهر الطريق حتى مرّ يوسف، فقالت: «الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته، والملوك عبيدًا بمعصيته»، فهذه الرواية - وهي أيضًا إسرائيلية مما لا يصدق ولا يكذب - تشعر بأنه لم يتزوجها، بل إن المرأ هانت وذلت فصارت من العبيد، والله أعلم.

إن سكوت القرآن عن هذا الأمر ذو فائدة تربوية عظيمة، فيما ينبغي أن يهتم به الإنسان، إن مركز الدائرة في اهتمامات المؤمن ليست هذه القضية، ولا غيرها من قضايا الدنيا، إن مركز اهتمامه هو قضية العبودية والمعرفة بالله سبحانه، ومحبته وتعظيمه وطاعته، فلا بد أن ننتبه إلى ما ذكر وما سُكت عنه في القرآن، كما نجد مثلاً آخر في هذا المقام في قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، فقد آتاه الله جمالاً عظيمًا هو الذي تعلقت به امرأة العزيز، ولم يذكر الله هذا الجمال والحسن فيما أنعم به عليه

– وهو بلا شك نعمة –، ولكن إنما ذكر الله سبحانه الحكم والعلم والإحسان لنعلم التفاوت في أنواع النعم، وإن أعظمها الذي ينبغي أن يتعلق به قلب المؤمن، ويلهج بطلبه، ويلح في سؤاله، هو ما يقربه إلى الله، وما يحصل له به رضاه، وأن العطاء الدنيوي لا ينبغي أن يتعلق به القصد والطلب، فإن حصل للعبد، فلله الحمد والشكر، وإن منع منه العبد، فقد أُعطي خيراً منه أضعافًا مضاعفة، فهو صابر راضي بقسم الله، يشهد من منن الله عليه في دينه وذكره وشكره وحسن عبادته – عز وجل –، ما يغمر عنده الشعور بالحرمان أو النقص، فلا يتطرق إليه السخط الذي يؤدي إلى الحسد والحقد، وسلسلة الأمراض الإبليسية التي نهايتها الكفر والشرك والكبر، والعياذ بالله .

فلا بد أن نعتبر ما اعتبره الكتاب والسنة، وأن نلغي ما ألغاه الكتاب والسنة، بخلاف أهل البدع الذي يعتبرون ما ألغى الشرع، ويلغون ما اعتبره، فيضطرب الميزان، ويحصل الخلل، ونسأل الله التوفيق، ونعوذ بالله من الخذلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

التمكين

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾ .

في وسط أحداث القصة يأتي هذا النور الباهر العظيم،الذي يربط العبد بأسماء الله وصفاته وأفعاله، بتدبيره وملكه، برحمته وفضله، بعزته وقهره، بمشيئته وكرمه، فله الحمد كما يقول، وخيرًا مما نقول، لا نحصي ثناءً عليه، لا تظن أيها السامع للقضية، بل والمشاهد لها الحاضر قلبه معها، أن الأحداث تجريها أيدي البشر، أو تصنعها أفكار الناس، أو تقلب أمورها بتخطيط الخلق ومكرهم، بل إن الأمور بيد الله، وتدبيرها من عنده﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ فالله الذي مكّن ليوسف، هو الذي صنع له، ومكر له، وفرّج عنه، ونصره وأعزه، وأبدله بعد السجن سعة الملك، وبعد كرب اتهام الزور فرج البراءة، وبعد ذل الرق عز السلطان، وبعد شدة الاستضعاف رخاء التمكين .

وتأمل الاختصار الرائع في هذا الموطن، حيث لم يذكر أن الملك قد أجابه إلى طلبه، وولاه خزائن الأرض، وصار يوسف وزيرًا مكان العزيز، بل وفي حقيقة الأمر صار هو الملك المطاع، وصارت مكانته عند ملك مصر أعظم بكثير من منزلة وزيره العزيز، ومعلوم أن هذا قد وقع وهو مفهوم من السياق، لكن اختصره القرآن ليأخذك إلى المعاني الإيمانية الأهم من ذلك، ألا وهو شهود أفعال الرب سبحانه ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ فالله مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شئ قدير .

صار يوسف يتصرف في الأرض – أرض مصر – كيف يشاء، ويتخذ منزلاً حيث شاء، كل هذا برحمة أرحم الراحمين، إنها رحمة أصابه الله بها، وليس هذا

خاصًا به، بل هو أمر عام ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ فكل من أراد الله أن يصيبه برحمته، فعل به ما شاء من ذلك، فلا يستطيع أحد أن يمسك رحمته - عز وجل -، فلتتعلق القلوب إذن بالرحمن الرحيم، ولتشهد قضاءه وقدره ومشيئته وفضله ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فكما أن الله لم يضيع صبر يوسف على أذى إخوته، وعلى السجن والفتنة بسبب امرأة العزيز، وجازاه سبحانه أعظم الجزاء على إحسانه في عبادة ربه وإخلاصه ومراقبته، وإحسانه إلى الخلق وكرمه وجوده، فكذلك سبحانه لا يضيع أجر المحسنين، بل يجزي كل محسن بإحسانه في الدنيا والآخرة، فهذا أعظم ترغيب في الإحسان بين العبد وربه، وبينه وبين الناس، ولكن لا بد أن تتعلق القلوب بالأجر الباقي الدائم ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، فقد جزى الله يوسف على صبره وإحسانه ملك مصر، وادخر له من الفضل في الآخرة أعظم وأجل من ملك مصر، بل ما يعده الله لكل محسن عنده في الآخرة، أعظم وأجل من ملك مصر، كيف لا وأدنى أهل الجنة منزلة من يُعطى عشرة أمثال الدنيا، فأجر الآخرة أكبر وأعظم وأجل من كل ملك في الدنيا، وعلى العبد أن يسعى في تحصيل أجر الآخرة بالإيمان والتقوى، إذن لا بد أن لا يكون أمل النفوس هو التمكين في الأرض لأجل الراحة والملك، بل أجر الآخرة هو الرجاء، والسبيل إليه هو الإيمان والتقوى، والتمكين في الأرض عند أهل الإيمان والتقوى إنما هو وسيلة لعبادة الله - عز وجل- كما قال - عز وجل -: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] فهو وسيلة لمزيد من الإيمان والتقوى من المؤمنين، ولنشر الإيمان والتقوى في الأرض، لينال أهلها أنواع الخيرات في الدنيا والآخرة .

وعطف التقوى على الإيمان في الآية الكريمة : ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ من باب عطف الخاص على العام، فإن الإيمان قول وعمل، والتقوى جزء

من حقيقته، فعطف التقوى على الإيمان لتأكيد أهمية العمل، كما تكرر في القرآن كثيراً عطف العمل الصالح على الإيمان، ليكون قد ذكر مرتين، مرة في العموم الذي هو الإيمان، ومرة في الخصوص وهو اللفظ المنفرد ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، والله أعلم.

بهذا اكتملت هذه المرحلة من حياة يوسف عليه السلام، وبدأت مرحلة جديدة وابتلاء جديد، ولكنه في هذه المرة بالسراء لا بالضراء، وبالرخاء لا بالشدة، وبالملك لا بالرق، وما أكثر من يعجز من البشر عن هذه الفتنة، ولا يصبر عليها، وينجرف في تيار الشهوات، ولكن يوسف عليه السلام كان الأسوة الحسنة، والقمة العالية الرفيعة، والحجة البالغة من الله على من منَّ عليهم من خلقه بالملك والسعة والغنى، فلا يسع أحداً منهم إلا الاقتداء بيوسف الصديق الكريم الحليم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

مجيء الأخوة

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) ﴾ .

طريقة القرآن طريقة رائعة مبهرة في اختصار ما لا فائدة في الإطالة فيه، مرت السنوات السبع المخصبة، وباشر فيها يوسف الملك، وقام بأعباء خزائن أرض مصر خير قيام، وأعد العدة للسنين المجدبة، وبالفعل جاءت هذه السنين العجاف المجدبة، وعمّ القحط بلاد مصر وما حولها، حتى وصل إلى بلاد كنعان التي كان فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وكان الحال في مصر بفضل الله على أهلها بيوسف عليه السلام خير حال، حتى قام هذا القطر بالعالم بأسره في ذلك الزمان، بما جعل الله فيها من البركة أصلاً وفضلاً، أصلاً بأنها أرض مباركة كثيرة الخير ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وفضلاً بحسن صنع يوسف عليه السلام .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « احتاط يوسف للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وأهرام (١) متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتي يكفي الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمةً من الله على أهل مصر » أ.هـ.

فليتأمل أهل السلطان هذه العبارة الجميلة التي نقلها ابن كثير، عن يوسف والملك وجنودهما في الاقتصاد في الطعام، والبدء بأنفسهم رعايةً لحق الناس، وحرصًا على مصلحتهم، وليس كالصم البكم الذين ينفقون الملايين في أنواع

(١) هذا ظن ابن كثير ومن وافقه ان الأهرام كانت مخازن للغلال، كما صرح به في غير هذا الموطن، ولا دليل على ذلك، والمعروف من تاريخ الفراعنة غير ذلك، وأنها قبور ملوكهم، فالله أعلم .

الرفاهية والشهوات وبناء القصور وأماكن اللعب واللهو، وشعوبهم في القحط والجوع والمرض، إن الإمام لا بد أن يكون قدوة للناس يبدأ بنفسه، ولا يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه، ولقد قال رسول الله ﷺ في خطبة يوم عرفة في حجة الوداع: « ألا كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أضع من دمائنا، دم ابن ربيعة ابن الحارث، وكان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وإول ما أضَعُ ربانا، ربا العباس ابن عبد المطلب، فإنه موضوع كله »(١) رواه مسلم.

فبهذه الأسوة الحسنة من الأئمة ومثلهم العلماء والدعاة، يسير المجتمع كله في سكينة وأمان، وتحاب وتعاون، بلا صراع بين طبقاته، وبلا حقد وحسد بين أبنائه، ولا تمييز بين أفراده على أسس غير شرعية كـ (المحسوبية) و (الرشوة)، والقرابة من ذوي السلطان، والمصالح الدنيوية الحقيرة، وغير ذلك مما هو من أسباب شقاء الأمم والشعوب، وعدم قدرتها على تخطي مشاكلها وأزماتها، يدرك ذلك جيداً من يعيش في مجتمع مفكك متقطع الأوصال، مبتلى بقيادة ظالمة، وإن كان الأمر في النهاية ثمرة مرة للظلم المشترك المتبادل بين الراعي والرعية، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

قال ابن كثير – رحمه الله –: « وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمتاع، وفي الثالثة بكذا وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تملك عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها، الله أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب » أ.هـ، قلت: بل هي بالرد أولى، فإن الآيات صريحة في أنهم هم الذين زرعوا وحصدوا، قال تعالى عن يوسف: ﴿ تَزْرَعُونَ

(١) رواه مسلم (١٢١٨) الحج، وأبو داود (١٩٠٥) المناسك واللفظ له، وابن ماجة (٣٠٧٤) المناسك.

سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، فهو إذن زرعهم وأموالهم، ويوسف تولى خزائن الأرض أمينًا حافظًا، وليس تاجرًا يبيع للناس أموالهم، فأنا أشم رائحة شح اليهود في هذا الأثر الإسرائيلي، وهل يليق هذا بأكرم الناس ؟ ثم كيف يبيعهم بأنفسهم وأولادهم، والأصل أن بيع الحر لا يجوز؟ فالله أعلم .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة، إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعامًا، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين، شقيق يوسف عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم وهم له منكرون، أي: لا يعرفونه، لأنهم فارقوه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم » أ.هـ.

أقف مبهورًا أمام هذه الشخصية الرائعة، وأجد حبًا ضروريًا ليوسف عليه السلام في حلمه وصبره، وعفوه وحسن خلقه، لو كان غيره من أهل الدنيا وهو في ملكه وسلطانه، ووجد أمامه من فرقوا بينه وبين أبيه صغيرًا، وألقوه في الجب مظلومًا، وباعوه للسيارة رقيقًا، لو أمر بهم أن يقتلوا كما هموا أن يقتلوه، لقتلوا، ولو أمر بهم أن يسجنوا كما سجنوه في البئر، لسجنوا، ولو أمر بهم أن يضربوا كما ضربوه، لضربوا، ولو أمر بهم أن يباعوا كما باعوه، لبيعوا، لم يصنع يوسف شيئًا من ذلك، وهم – بعد – لم يتوبوا، وهم مستحقون العقاب، بل صبر وحلم، وأحسن وأكرم، وأوفى لهم الكيل، وأمر بإنزالهم وإكرامهم خير

إنزال، وهذا هو اللائق بكرمه وحلمه وسعة صدره، وانشراحه بالإيمان، والحب والغنى بالله سبحانه، وسلامة القلب من الغل والحقد وحب الانتصار للنفس والمخاصمة لها، إن القدرة على مقابلة الإساءة بالإحسان، بل مجرد إمساك النفس عن الانتقام، لَهِيَ منّة عظيمة وعطية كبيرة من الله لعبده، وحظ عظيم له كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤-٣٥]، هنيئًا لمن لُقِّي وأُعطى ووُهب هذه الخصلة، فأعطى ووَهب وسامح، أنت أيها المسامح العافي عن الإساءة، تأخذ حين تعطي، وترتفع حين تتواضع، ألا يكفيك أن تكون فيك خصلة من خصال الأنبياء، من خصال أكرم الناس يوسف عليه السلام، هل وطّنا أنفسنا على أن نرى من آذانا وأساء إلينا، ونحن في قدرة تامة على الانتقام، فلا ننتقم، بل نحسن ونكرم ؟ إن هذا لمن أعظم أسباب العزة والرفعة، أضعاف مضاعفة عَمّا لو انتقم الإنسان لنفسه وانتصر لها، وإن كان محقًا، فكيف بمن ينتصر لنفسه بالباطل ؟ إن مآله قطعًا إلى الذل والخسران والعياذ بالله .

حديث يوسف عليه السلام مع إخوته

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) ﴾ .

ظاهر السياق أن إخوة يوسف عليه السلام لم يستغربوا سؤاله عن أخيهم من أبيهم، فدل هذا على أنه كان بسؤاله لهم كما ذكر السدي وغيره، قال ابن كثير: « ذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟، فقالوا : أيها العزيز، إنا قدمنا للميرة (أي : للطعام)، قال : فلعلكم عيون ؟ (أي : جواسيس)، قالوا : معاذ الله، قال : فمن أين أنتم؟، قالوا : من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله، قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم، كنا اثنى عشر، فذهب أصغرنا هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبينا، وبقي شقيقه، فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي : أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم، قال : اءتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ ، يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴾ أي : إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه، وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم، وفي هذا نظر، لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيراً،

وهذا لحرصه على رجوعهم ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ أي : غلمانه ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ أي : التي قدموا بها ليمتاروا عوضًا عنها ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أي : في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بها، قيل: خشي يوسف عليه السلام ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها، وقيل : تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضًا عن الطعام، وقيل : أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجًا وتورعًا، لأنه يعلم ذلك منهم، والله أعلم » أ.هـ.

وفي قوله تعالى : ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ظاهر في أنه كان ليعقوب امرأتان، وهو المنقول عن أهل الكتاب، ففيه حجة على الزنادقة المتبعين لكفار أهل الكتاب، القادحين في تعدد النساء، المانعين منه في الحلال، المبيحين له في الحرام، كما تنص عليه قوانينهم في إباحة الزنا بالتراضي، لا يستغنون عنه في حياتهم الفاجرة، الغارقة في الفواحش كما هو معلوم، والعجب أن هذه الشبهة التي يطعنون بها على نبي الإسلام محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وشريعته، ثابتة عندهم عن الأنبياء ثبوتًا لا خفاء فيه في كتبهم، فلا نزاع أن إبراهيم كانت له سارة زوجته، وهاجر أم ولده إسماعيل سريته، وعندهم أنه كان لداود تسعة وتسعين امرأة، وقصتهم الباطلة في تحايله لضم زوجة أحد قواده حتى قتله وتزوجها معلومة مشهورة، وثابت في السنة أنه كان لسليمان عليه السلام مائة امرأة، وهذا يعقوب عليه السلام له امرأتان - على الأقل والله أعلم -، فدل ذلك على أن تعدد النساء سنة مستمرة في الأنبياء، وشريعة ثابتة لم تتغير، وزعم النصارى أن المسيح منع من ذلك باطل، لأن النص عندهم أن المسيح قال : « ما جئت لأنقض الناموس، بل لأكمله »، وهم يعتقدون عدم جواز النسخ، وعدم وقوعه، فكيف بعد ذلك يطعنون على التعدد، ويجعلونه اتباعًا للشهوة، ولا شك أن النظر بعين النقص والذم والازدراء إلى قضية التعدد، هو من أعظم

الجهل، بل حقيقته الكفر والعياذ بالله، إذ القرآن صريحٌ في جوازه ومشروعيته، وفعل النبي ﷺ فيه متواتر، وكذا أفعال أكثر أصحابه وأفضلهم ﷺ، فالطعن فيه طعن في التشريع، وقدح في أصل الإيمان والانقياد، وإنما منع الشرع من تعدد الزوجات عند خوف عدم العدل، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾، والعدل المأمور به هو في القسم والمبيت، أما المحبة فلا تملك، فلا يكلف بها، وأما النفقة والكسوة والسكنى، فلا يلزم فيها المساواة أيضًا، وإنما الواجب كفاية كل واحدة، وهو مما يتفاوت ويختلف باختلاف الأشخاص والبلاد والأزمنة وغير ذلك، فلا يجوز لأحد أن يزعم عدم إمكان العدل ليصل بذلك إلى تعطيل الشرع، اتباع لهواه في الحقيقة، وكذلك لا يجوز تصوير العدل للناس على صفة ليست هي الواجبة، يصل الأمر بالناس إلى أنها معجوز عنها، فيعود الأمر إلى عدم الإمكان، فالعدل المأمور به هو في طاقة المكلفين، وهذه المسألة قد حصل فيها في بعض مجتمعات المسلمين، من التنفير من التعدد، ما هو أثر من آثار تقليد الغرب، الذي لا يلتزم شريعة، ولا يؤمن بدين الحق، ولا يرضى باتباع الأنبياء، حتى لو ثبت عندهم الأمر في كتبهم التي يعتبرونها مقدسة، ولا بد أن تتغير هذه النظرة، ويُنظر إلى التعدد كأمر شرعي مقبول، كان عليه أكمل الخلق، ،كثير من الأنبياء، وأكثر الصحابة ﷺ، وأما مسألة الغيرة التي تحصل للنساء، والتنافس الذي يقع بين الأبناء من أمهات شتى، كما وقع بين أبناء يعقوب، فأمرٌ لا بد من احتماله، وعلاج آثاره اليسيرة (١)، لما في التعدد من المصالح والحكم، كما أنه لا بد للمسلمات المؤمنات من مقاومة أنفسهن الأمّارة بالسوء، التي تصل بالغيرة إلى حد يجعل الحياة الزوجية غمًا ونكدًا وكربًا، عند حصول التعدد أو لمنع الرجل من الإقدام عليه، وهو خطر كبير، لأنه منع من أمرٍ

(١) وأيسر علاج الفصل بين الأبناء ، كما فعل إبراهيم عليه السلام بهاجر ام ولده ، واستقلال كل واحدة بمسكنها وحاجاتها وهذا هو الذي اوجبه شرع الإسلام [انظر المغني] .

أحله الله وطيبه للرجال بشرطه، وإغضاب المرأة زوجها في أمرٍ أحله الله له، موجب لغضب ربها عليها، كما دل عليه الحديث : « **إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها** » (١)، ونسأل الله أن يهدي المسلمين والمسلمات لمحبة شرعه، والرضا به، والعمل به، وإقامته في الأرض .

وقوله عليه السلام : ﴿ **أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** ﴾ فيه فضيلة إيفاء الكيل، وقد دلت السنة على استحباب الزيادة، كما في حديث جابر أن النبي ﷺ قال للوزان الذي يوفيه حقه : « **زن وأرجح** » (٢)، وهذا كرم الأنبياء – عليهم السلام –، وهو من أسباب تعلق قلوب العباد بهم، فعلى الدعاة أن يقتدوا بهم في ذلك، فإنه من أعظم أسباب استجابة الناس للحق، كما قال الأعرابي الذي أعطاه النبي ﷺ غنمًا بين جبلين، « **فرجع إلي قومه وقال : يا قوم، أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة** » (٣) فإنزال الناس المنازل الحسنة، وحسن استقبالهم، وإعطاؤهم ما يحتاجون من مكارم الأخلاق الفاضلة، التي هي من أعظم أسباب نجاح الدعوة وقبولها، وإذا كان ذلك قد وقع من يوسف مع من أساء إليه أعظم الإساءة، فكيف بمن كانت معاملته بالإحسان دون الإساءة ؟ .

وذكر يوسف لنفسه بصفات المدح التي حق في نفس الأمر، للحاجة في ترغيبهم في العودة إليه بأخيه، ليتم ما أراد الله وكاد ليوسف عليه السلام، وقد جمع يوسف عليه السلام بين الترغيب والترهيب فقال : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ** ﴾ وهو يعلم أنهم لا يستغنون عن عطائه ورفده، إذ ليس في البلاد كلها ما فيه ميرة وطعام إلا مصر بحمد الله وفضله .

---

(١) رواه مسلم (١٤٣٦) .

(٢) صحيح : رواه أبو داود (٣٣٣٦) ، والترمذي (١٣٠٥) ، والنسائي (٤٥٩٢) .

(٣) رواه مسلم (٢٣١٢) الفضائل ، وابن خزيمة (٢٣٧١) ، وأحمد (١٢٠٧٠) .

وفي رد يوسف عليه السلام على إخوته بضاعتهم على اختلاف العلماء في سبب ذلك من : كونه خشي أن لا يجدوا بضاعة يعودون بها، أو تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضًا عن الطعام، دليل على الشفقة والرحمة التي جبل عليها يوسف صلى الله عليه وسلم، وأظهر الاحتمالات من الثلاثة التي ذكرها العلماء هو الأول، إذ أنه صرح بأن السبب الدافع له على ذلك أنهم إذا عرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم كان ذلك سببًا في رجوعهم مرة ثانية : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، فالإنسان إنما يرغب في معاملة من أحسن إليه، ويشتاق إلى عودته إليه إذا بعد عنه، رجاء لمزيد من الإحسان، أما أنه تذمم من أخذ عوض من أبيه وإخوته، فرغم وجهه الحسن إلا أنه ليس في القران ما يدل عليه .

والوجه الثالث : وهو أنه علم أنهم إذا وجدوا البضاعة فسيرجعون لردها لأنهم يتورعون ويتحرجون من ذلك ليس بظاهر أيضًا، لأنه لو كان كذلك لظنوا وجود خطأ في وجود البضاعة في متاعهم، وليس أنهم يعلمون أن الأمر مقصود متعمد كما دل عليه قوله تعالى عنهم : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ فهم إذًا قد علموا أن البضاعة ردت إليهم أي قصدًا، وهم بذلك يرغبون أباهم في إرسال أخيهم معهم لما وجدوا من إحسان العزيز إليهم برد البضاعة، والله أعلم .

نكأوا الجرح القديم

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) ﴾ .

أتعجب من طريقة إخوة يوسف في مواجهة أبيهم يعقوب عليه السلام، كأنهم يريدون دائمًا أن يغموه، فهم في الحقيقة قد عادوا بكيل وافٍ وأنزلوا نزلاً كريمًا، وإذا بأول ما يواجهون ويستقبلون به أباهم : ﴿ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ يعنون : سيمنع في المرة القادمة إن لم ترسل معانا أخانا بنيامين، وعبّروا بالفعل الماضي للخبر عن المستقبل لتيقنهم بحصوله كأنه قد كان فعلاً، وذلك ليتوصلوا إلى ما يريدون من سماح أبيهم لهم بإرسال بنيامين، ولا يراعون دائمًا مشاعر أبيهم، ولا يحسنون التوصل إلى مقصودهم، فهم بدأوا بذكر ما يسوء قبل ما يسر، مع أن ذكر ما يسر هو الذي يشرح الصدر ويحسن الظن، ولذا نجد أن يعقوب ما قبل إرسال بنيامين إلا بعد أن علم ما يسر من رد البضاعة كما سيأتي إن شاء الله، بل وكان رده على طلبهم في البداية التخوين وعدم الاستئمان، وهذا كله مما ينبئك عن شخصيات إخوة يوسف من سوء تقدير الأمور وترتيبها، وعدم مراعاة أحاسيس الآخرين خاصة أبيهم، ووجود فكرة مسيطرة على نفوسهم يندفعون لتحقيقها بسرعة وبإلحاح ودون تقديم مقدماتها، فحق والله ليعقوب عليه السلام أن يفضل عليهم يوسف وأخاه، ومن سوء تقديرهم أنهم استعملوا نفس العبارة بنفس الألفاظ التي استعملوها يوم أخذوا يوسف من أبيه، وضيعوا الأمانة وخانوا العهد وكذبوا فيما وعدوا به أباهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ نفس التأكيد بنفس الإسلوب، فكأنهم نكأوا الجرح القديم الذي لم يندمل في قلب يعقوب عليه السلام على ابنه الحبيب يوسف، فتذكر يعقوب فوراً ما صنعوه بأخيهم

فقال : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾، كم من الألم في قلب يعقوب عليه السلام من صنيعهم بأخيهم، لم يصف لهم قلبه إلى اللحظة، ولم ينس جريمتهم، ولم يخل لهم وجه أبيهم كما سول لهم الشيطان حين فعلوا فعلتهم، وهكذا الشيطان دائمًا يخدع الإنسان فيقوده إلى شقائه بالوعد الكاذب، ثم يتركه وحده يعاني من ذلك الشقاء، مثل ما فعل بالأبوين فراح الوعد بشجرة الخلد وملك لا يبلى أدراج الرياح، وبقي شقاء انكشاف السوءات وهتك الستر بينهما وبين ربهما، وألم البعد والمعصية وضرر الغواية لولا اجتباء الله وتوبته وهدايته، وهنا ذهب الوعد الكاذب بخلو وجه أبيهم ومحبته لهم، وبقي التخوين وعدم الاستئمان والتكذيب حتى لو صدقوا في حقيقة الأمر، وبقي الأسف على يوسف وتضاعف حبه في القلب أضعافًا مضاعفة، وتناقص قدر إخوته من قلب أبيهم وزاد تباعدهم منه، وزاد تقريبه لبنيامين لأنه أشبه بيوسف منهم فريح يوسف يريح يعقوب، فأخوه قطعًا أشد إراحة له من ريح يوسف، عوقب أخوة يوسف بنقيض قصدهم، وهكذا كل من سلك إلى مقاصده طريق المعصية والمخالفة لأمر الله، لا يحصل له مقصوده بل عكسه فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته سبحانه .

ومع وجود الأسف والألم والحزن على ما فات، يحتاج المؤمن إلى علاج لهذا الألم وتدارك لهذا الحزن حتى لا يشقى به، لابد من برد يطفيء حر الأسف، ولا أحسن ولا أجمل ولا أوسع ولا أفضل من التعلق بأسماء الله وصفاته، فبه يحصل برد اليقين وحسن الظن وصدق التوكل والتفويض وانتظار الرحمة من أرحم الراحمين، الذي هو أرحم بالعبد من أمه وأبيه ونفسه التي بين جنبيه قال يعقوب عليه السلام : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ وقرئ حفظًا : ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فحفْظ الله ليوسف خير من حفظ يعقوب له، ونعم والله، فحفظ الله له بعيداً عن

أبيه كان أكمل وأعظم من حفظه له وهو يرعاه بنظره ويربيه بحنانه، تصور لو بقي يوسف مع إخوته مع هذا الكم الهائل من الحقد والحسد والكراهية، كم من المكائد كان سيدبر له؟ إن أفلت من واحدة لم يفلت من الأخرى، إن بقاء الإنسان مع قوم يكرهونه ولو بغير حق هو من أعظم أسباب تشوش نفسه وتغير قلبه، إن حاجة الإنسان إلى سلامة الصدر لمن حوله وممن حوله في طمأنينة قلبه واستقرار فؤاده حاجة عظيمة، نجد هذا الأمر عظيمًا في الشرع، إذ يؤكد بكل أنواع الأدلة على أهمية الحب في الله وسلامة الصدر، يكفيك قول النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا»**(١)، بل إن القرآن دل المؤمن على ما هو أعظم من ذلك، دله على حب الملائكة له واهتمامهم به واستغفارهم له ودعائهم وصلاتهم من أجله، بل دله على أن الكون حوله يحبه ويفرح به بموافقته له في تسبيح الله سبحانه، وأنه بينه وبين السماء والأرض علاقة وحنين بسبب العبادة، تبكي عليه السماء والأرض عند موته حزنًا على فراقها لعبادته، في حين لا تبكي على الكافر بل تستريح منه، قال تعالى عن آل فرعون: ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ**﴾ . [الدخان: ٢٩] .

وقال النبي ﷺ: **«وأما الفاجر فيستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»**(٢) وقال ﷺ: **«إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»**(٣)، كل هذا ليستريح المؤمن ويسعد ولا يشقى، لأن الإنسان لا تكمل شخصيته ولا يستقيم حاله بغير الحب، فلو كان يوسف قد بقي عند يعقوب – عليهما السلام –، هل يكون حاله كما كان في قصر العزيز وسط مشاعر الأبوة والحنان،

---

(١) رواه مسلم (٥٤)، والترمذي (٢٥١٠)، وأبو داود (٥١٩٣)، وابن ماجة (٦٨).
(٢) متفق عليه: سبق تخريجه ص (٣٩).
(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

والتي وإن لم تصل إلى أبوة يعقوب وحنانه إلا أنها بلا منازعة ولا مخالفة من عشرة رجال يخالطونه ليل نهار ؟ ثم لما وقع من امرأة العزيز ما وقع، ودبت الرغبة في الانتقام إلى قلبها لأنها في حقيقة الأمر تحب نفسها وشهوتها لا تحب يوسف، إنها تريد حظها منه لا تريده هو، فاختار الله له السجن ليبتعد عن هذا الجو الكئيب، وكان في السجن مع من يراه بعين الإحسان والصديقية : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ و ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ وحاجة الإنسان إلى هذا، أشد من حاجته إلى مسكنٍ فسيحٍ وفراشٍ مريحٍ وطعامٍ لينٍ .

إن الرق كان حفظًا ليوسف، وإن السجن كان حفظًا ليوسف من خير الحافظين وأرحم الراحمين – سبحانه وبحمده –، ما أعظم التفويض، وما أجمل التوكل، وما أجمل تعلق القلب بالله سبحانه خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، يحفظ عبده المؤمن من حيث يظن الناس الضياع، ويرحمه برحمة من عنده لا تشبهه رحمة من حيث يظن الناس العذاب، اللهم لك الحمد كما تقول وخير مما نقول، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم احفظنا في ديننا وأنفسنا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين والمسلمات، فأنت خيرٌ حافظًا وأنت أرحم الراحمين .

إن شهود هذه المعاني يجعل العبد يتعلق برحمة الله تعلقًا خاصًا، يشهد به فضله، ويطمع في المزيد من رحمته ويتوكل عليه وحده، ويحفظه في نفسه وأهله وأولاده ودنياه وأخرته، ويدبر أمره بما لا يحسن هو من التدبير، وكأن هذه المقارنة بين حال إخوة يوسف وبين حال أبيهم يعقوب عليه السلام وهم يقولون : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فينسبون الحفظ لأنفسهم وهم المضيعون والعاجزون، بل ويؤكدون قيامهم بالحفظ بأدوات التوكيد « إن » و « لام التوكيد »، وما انتبهوا أن يسألوا الله التوفيق في هذا، أو أن يتوكلوا عليه في أمر لا يملكونه ولا يقدرون عليه،

فهكذا حال الإنسان الجاهل قليل الذكر، كلامهم من أول القصة خال من الذكر والتوجه إلى الله واستحضار أسماء الله وصفاته إلا حين بدأوا يندمون وقال قائلٌ منهم : ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ فكان هذا أول تعلق لهم بأسماء الله وصفاته رزقهم الله به لما شرعوا في التوبة .

أما قبل التوبة فلا تزال الغفلة، ولا يزال البعد، ولا يزال نسبة الفضل والعمل للنفس مع التقصير والتضييع، أما يعقوب فكلامه كله من أول القصة لا يخلو من ذكر الله والتعلق بصفاته فلما قالوا له : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ قال : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فهم في واد وهو في وادٍ، وهم في شأن وهو في شأن آخر، هم في الأرض وهو قلبه في السمو والعلو للقرب من الله سبحانه، نسأل الله أن يرزقنا حبه وقربه وطاعته .

مسئولية خاصة وميثاق من الله

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾

الإحسان يشعر الإنسان بالأمان، ويفتح من قلبه ما كان مغلقًا، ويشرح من صدره ما كان ضيقًا، فتح أخوة يوسف متاعهم فوجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم، فعرفوا أن هذا مزيد إحسان من عزيز مصر رغّبوا به أباهم في إرسال أخيهم معهم، وهذا بخلاف ما واجهوا به أباهم أولاً فأنهم واجهوا أباهم بـ ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ ، عند أول رجوعهم حتى قبل فتح المتاع ورؤية الكيل الوافي والخير الكثير، تأكيد لما ذكرنا من نقص شخصيتهم وسوء تقديرهم، ثم شرعوا بعد فتح المتاع ووجدهم بضاعتهم في إقناع أبيهم بإرسال أخيهم فقالوا : ﴿ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ قال قتادة : ما نبغي وراء هذا، وهذا يدل على أنهم فهموا أن العزيز أراد الإحسان إليهم، وليس أنهم تحرجوا وتورعوا أن يأخذوا البضاعة، أو أن يأخذوا الطعام بلا ثمن، وهذا الإحسان هو المفتاح الأول الذي غيَّر موقف يعقوب عليه السلام، وبدأ يعيد النظر في أمر إرسال بنيامين معهم .

وقولهم : ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ أي : وقد أوفى لنا الكيل، فهو شعور بالامتنان والفضل، ثم ذكروا المفتاح الثاني : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي : نحضر لهم الميرة وهي الطعام، وأنبياء الله أشفق خلق الله وأرحمهم بالخلق وخصوصًا الأهل، فيعقوب عليه السلام يعلم شدة الحال والحاجة في أعوام الجدب، ثم ذكروا المفتاح الثالث : ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ تأكيد ما ذكروه قبل ذلك : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ثم

ذكروا الأمر الرابع وهو : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ فإن التيسير على الخلق من صفات الأنبياء، ولقد كان رسول الله ﷺ : « **لا يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا** » (١)، وقال لمعاذ وأبي موسى : « **يسرا ولا تعسرا** » (٢) ، وقال لأصحابه : « **إنما بعثتم ميسرين** » (٣) .

فالأنبياء – وتبع لهم الصالحون – يحبون التيسير والسعة والزيادة في الخير على الخلق، فازدياد كيل بعير مما تتم به التوسعة على الأهل في أعوام الجدب والقحط، وأحسن الأقوال في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ ما ذكره الجلال السيوطي : « أي :يسير عليهم، أي : على عزيز مصر، أي : لاتساع الأمر عندهم وكثرة الخير لديهم، وأما ما ذكره ابن كثير – رحمه الله – في ذلك من أن المعنى : يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا، فلا يظهر لي وجهه، إذ لا يكون في الكلام ترغيب لإرسال أخيهم معهم، بل يكون المعنى تهوين شأن مثل هذا الكيل وليس بمناسب للسياق، كيف وفي أعوام القحط يكون حمل البعير شيئًا عظيمًا ؟ يدل عليه قوله تعالى عن فتيان يوسف : ﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾، فإذا كان صواع الملك الغالي الثمن مكافأة من يحضره حمل بعير، دل ذلك على أن حمل البعير وكيل البعير شيء كبير، وأيضًا ما ذكره عن مجاهد أن المقصود حمل حمار ليس بظاهر، إذ لا دليل على ذلك ولا قرينة، فالظاهر البعير المعروف .

ولما وجد يعقوب مظاهر إحسان عزيز مصر إلى أبنائه، آنس الأمان وحصل له رجاء الخير من إرسال بنيامين معهم، فقرر إرساله معهم، ولكنه احتاط في حفظه، وغلظ الأمر على بنيه بأخذ عهد وميثاق من الله عليهم، أي : يحلفون له

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٥٦٠) المناقب، ومسلم (٢٣٢٧) الفضائل، وأبو داود (٤٧٨٥) الأدب .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٣٠٣٨) الجهاد والسير، ومسلم (١٧٣٣) الجهاد والسير، وأحمد (١٩٢٤٣) المسند .

(٣) رواه البخاري (٢٢٠) ، والنسائي (٥٦) ، وأبو داود (٣٨٠) ، والترمذي (١٤٧) واللفظ لهما .

ويعاهدون الله سبحانه أن يأتوا بأخيهم إلا أن يحاط بهم، أراد يعقوب عليه السلام أن يجعل عهدهم معه عهداً وموثقًا منهم لربهم سبحانه، فالنقض في هذه الحالة ليس فقط نقضًا مع أبيهم، بل نقضًا مع ربهم – عز وجل –، وهذا لا شك أعظم وأشد، كما ورد في الحديث الصحيح في صحيح مسلم من حديث بريدة مرفوعًا: « **وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله** » (١) .

وأراد يعقوب عليه السلام بذلك أن يستشعر أبناؤه هذه المسؤلية الخاصة أمام ربهم سبحانه التي تنبت صدق المراقبة، فالعبد إذا استحضر أن عهده إنما هو مع الخلق، فإنه يراقبهم هم، فإذا غابوا عنه أو غاب عنهم سهل عليه النقض والمخالفة، وأما إذا تكونت هذه المراقبة لله سبحانه وصار يعامل ربه – عز وجل –، فأين يغيب عنه؟ وبالفعل كان لهذا الموثق أكبر الأثر في أبناء يعقوب في بذل كل جهد منهم للرجوع ببنيامين .

قارن بين تفريطهم في يوسف، وحرصهم على عودة بنيامين لأبيهم حتى عرضوا أن يؤخذ أحدهم يدفع إلى العزيز بدلاً من بنيامين وفداءً له، رغم أن الحسد لم يزل بعد بالكلية من قلوبهم حيث قالوا: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾، ومع ذلك كان الموثق من الله هو السبب الأول في بذل كل جهد منهم وبقاء أحدهم في مصر وعدم عودته إلى بلده وأهله محاولةً لأخذ بنيامين، وهذا يدل على أثر التربية على تعظيم العهد مع الله والمعاملة معه سبحانه، وهكذا كان السلف يعظمون العهد على الصغار كما في الأثر عن إبراهيم النخعي: « كانوا يضربوننا على العهد ونحن صغار »، فينبغي للمربي أن ينتبه لهذا الأمر ويغرسه

(١) رواه مسلم (١٧٣١) ، والترمذي (١٧١٦) ، وابن ماجة (٢٨٥٨) .

في قلب من يربيه، ولا يستعمله إلا في الأمور العظيمة حتى تظل له قيمته العظيمة في القلب .

وتأمل في شفقة يعقوب عليه السلام على بنيه حين يقول لهم مستثنيًا : ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ ، فهو يعلم أنه قد يأتيهم أمر يعجزون عنه ولا يستطيعون دفعه، فلا يحملهم ما لا يطيقون ولا يأخذ عليهم عهداً مطلقًا بلا استثناء، لو حصل ما يعجزهم لكانوا ناقضين له، وهو لا يريد لهم نقض عهدهم مع الله، ويشفق عليهم كما كان رسول الله ﷺ يفعل في بيعته، فروى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن أن ﴿ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة : ١٢]، وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » ، قلنا الله ورسوله ﷺ أرحم بنا من أنفسنا، قلنا : يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : « إني لا أصافح النساء إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمئة امرأة» (١)، قال الترمذي : حسن صحيح .

فهذه شفقة الأنبياء ورحمتهم بأتباعهم، وهي أيضًا تؤدي إلى تعظيم عهد الله وموثقه، فإن شعور العبد بأن انتقاض موثقه مع الله ولو بغير إرادته أمر عظيم هو تعظيم لعهد الله، فإذا استثنى عند العهد ما ليس في الاستطاعة والطاقة لم يكن ناقضًا للعهد، فيظل الميثاق على منزلته وقيمته في نفسه، والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ عاد يعقوب عليه السلام ليؤكد على تكوّن هذه العلاقة الخاصة مع ربهم سبحانه و﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ، فالله هو الذي نتوكل عليه في الوفاء بهذا العهد والموثق، وهو الذي نُشهده عليه

(١) صحيح : رواه النسائي (٤١٨١) ، والترمذي (١٥٩٧) ، ومالك (١٨٤٢) الموطأ ، وأحمد (٢٦٤٦٩) واللفظ له ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥١٣) .

ونستحضر مراقبته لنا في الوفاء به، وكل هذا التأكيد على هذه المعاني لأن الإيمان إذا استقر في القلب كان هو المحرك والمؤثر في السلوك، وإذا ضعف أو زال كان نقض العهود وخيانة الأمانات وكذب الحديث والظلم والعدوان والحقد والحسد، نسأل الله أن يحبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا، وأن يكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأن يجعلنا من الراشدين .

توكل يعقوب عليه السلام

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ .

تغيرت طريقة الحديث بين يعقوب عليه السلام وبنيه، فمن أول القصة إلى هذا الموضع في كل خطابات يعقوب لم يذكر لهم مرة ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ إلا هذه المرة، فهذه أول مرة ذكرت في القرآن يخاطبهم يعقوب فيها بـ ﴿يَا بَنِيَّ﴾ ، هذا النداء الحبيب المحبب المذكر بالرابطة العظيمة والوشيجة الحبيبة والعلاقة الحانية، لكن لماذا تغيرت الطريقة ولماذا في هذا الموضع بدأ يعقوب يخاطبهم بيا بني ؟

نجد والله أعلم أن ذلك وُجد من يعقوب عليه السلام لما رأى منهم بداية العلاقة الخاصة مع ربهم – سبحانه – بالموثق وبالمراقبة وبالتوكل، بدأت القلوب تتحرك نحو الذكر والشعور بأسماء الله وصفاته وآثارها، فرقَّ قلب يعقوب ورقَّ لسانه عليه السلام، وهكذا كلما ذكر الإنسان ربه وتعلق به واستحضر مراقبته والتوكل عليه وحده، كلما وفدت إليه قلوب المؤمنين بل والخلق كلهم بالود والحب ونطقت ألسنتهم بآثار هذه الوفادة، بخلاف القلب البعيد عن ذكر الله ومحبته ومعرفته تنفر منه القلوب ولا تنطق الألسنة إلا باللعن والشتم، حتى لو نطقت بالمدح – رغبة أو رهبة أو مصلحة – فإنها لا تزال عند غياب المراقبة أو زوال الرهبة أو فوت الرغبة والمصلحة تنطق بأنواع الخبث والكراهية التي يشقى الإنسان

بسماعها، فضلاً عن تخيل حقيقة ما في القلوب من البغض الذي عبرت عنه الألسنة، مساكين مساكين من حياتهم صباحًا ومساءً في لعن وشتم أنفسهم وأهليهم وأولادهم ورؤسائهم ومرؤوسيهم ومن حولهم، أحاطوا أنفسهم بالمقت والبغضاء بما حرموا أنفسهم من ذكر الله واستحضار أسمائه وصفاته وأفعاله، فالله المستغاث المستعان، وإليه المشتكى، ولا حول ولاقوة إلا به .

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الأيات : « يقول – تعالى – عن يعقوب عليه السلام أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر ألا يدخلوا كلهم من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد : إنه خشي عليهم من العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء، فخشي أن يعينهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستزل الفارس عن فرسه، وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في الآية في قوله : ﴿ **وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ** ﴾ قال : علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب، وقوله : ﴿ **وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ أي : إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئًا لا يخالف ولا يمانع ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا** ﴾ قالوا : هي دفع إصابة العين لهم : ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ** ﴾ قال قتادة والثوري : لذو علمٍ بعلمه وقال ابن جرير : لذو علمٍ لتعليمنا إياه ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ ، الله أعلم بحاجة يعقوب عليه السلام من أمره بنيه بالدخول من أبواب متفرقة، فإن الله لم يبينها في كتابه، ولم يبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سننه، فلا تعرف إلا على سبيل الظن والاحتمال، إن يعقوب عليه السلام كتم حاجته في نفسه ولم يخبر بها الناس، وحمى الله هذه الخصوصية بينه

وبينه فلم يكشفها للناس، بل صار هذا مثلاً يضرب لما يكتمه الإنسان في نفسه من أغراض فيقال: ﴿ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ ﴾ يعنون : أن الواحد منهم يريد شيئًا لا يعرفه الناس، فسبحان الله على ما في قلوب الأنبياء من العلم بالله والرغبة فيما عنده مما لا يعلمه الناس، وما يفعله سبحانه بهم ويقض حوائجهم ويخفي على الناس أسرارهم رعاية لحقهم وحفظًا لمنزلتهم – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – .

فإن كانت الحاجة في نفس يعقوب خوفه على أولاده من العين، والعين حق كما تواتر ذلك عن النبي ﷺ، فيكون فيها دليل على أخذ الأسباب في دفع العين بعدم إظهار النعم لمعروف بالحسد والإصابة بالعين مع كمال التوكل على الله، كما أمر بذلك يعقوب وإن كانت الحاجة ما ذكره النخعي من لقيا يوسف إخوته – وليس بظاهر بل الأول أظهر – إن قلنا به، وأحب إليّ أن نقف عند ما وقفنا الله عنده ورسوله ﷺ، إن كان ما ذكره النخعي ففيه الاجتهاد في البحث وأخذ الأسباب وعدم اليأس من رحمة الله سبحانه والله أعلم .

وعلى القولين، فالأمر بالدخول من أبواب متفرقة كان أخذاً بالأسباب، ولابد أن يكون معه كمال التوكل وشهود فقر العباد وغنى الرب وقهره وعزته، وأن أمره نافذ لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا يغني أحدٌ عن أحد من أمر الله شيئًا، ولهذا قال يعقوب عليه السلام عقب أمره لهم بالدخول من أبواب متفرقة : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ وتأمل تأكيد عموم النفي بـ(من) فهو يستشعر رغم كمال شفقته على أولاده ورحمته بهم ونصحه لهم، أنه لا يغني عنهم ذرة فما فوقها بل ولا أدنى من ذلك ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ .

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ وهذا هو الحكم الكوني القدري، ولا شك أن الحكم كله لله الشرعي والكوني، فالحكم الشرعي هو ما يشرع للناس، فالحق هو ما

شرعه دون ما سواه، ولا يحل لأحد أن يعتقد أو يجوز أو يُلزم ويوجب غير حكمه سبحانه وإلا زال إيمانه بالله ربًا وإلهًا .

والحكم الكوني هو ما يأمر الله بتكوينه فيكون ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٣]، وهو الذي لا يقع في الوجود غيره شاء الناس أم أبوا، أحبوا أم كرهوا، وهذا النوع أي الحكم الكوني هو الذي يليق به السياق هاهنا، لأن يعقوب عليه السلام أراد منع ضررٍ ما عن بنيه بما نصحهم من التفرق في الأبواب، وهذا القدر سواء كان إصابتهم بالعين أو غير ذلك ليس أمرًا مشروعًا، بل أمر قدري كوني، فالمناسب في هذا السياق أن يكون هو المقصود، والله أعلم .

وقوله عليه السلام : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ذكر توكله وأمرهم بالتوكل وأمر غيرهم من الخلق لتكون كلمته تلك منقولة إلى الخلق والناس من بعده، فيأخذ ثواب من عمل بنصيحته، وقد نقل الله كلمته للناس في القرآن العظيم الخالد، وبقيت هذه الكلمة دالة على أن جميع الأنبياء يتوكلون على الله وحده ويأمرون غيرهم بالتوكل في الأمور الدينية والدنيوية، فالتوكل من أعظم الطاعات، بل هو من أركان الإيمان لو زال من القلب بالكلية لزال الإيمان بالكلية، ولو نقص لنقص الإيمان وبكماله يكمل الإيمان، وتأمل تقديم الجار والمجرور ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على الفعل والفاعل ﴿ تَوَكَّلْتُ ﴾ للاختصاص، أي : أتوكل على الله وحده وليتوكل المتوكلون على الله وحده دون من سواه، والاهتمام لتعظيم شأن إفراد الله بالتوكل، والتوكل علم وعمل، فهو أن يعلم العبد أن الله وحده هو النافع الضار المعطي المانع الذي يدبر الأمر، أما العمل فهو أن يثق بربه غاية الوثوق ويحسن الظن به ويفوض الأمر عليه ويعتمد عليه بقلبه في جلب مصالح دينه ودنياه وآخرته، وأعظم التوكل : التوكل على الله في تحقيق عبوديته في نفسه

وفي غيره من الخلق ونصرة دينه، وهذا توكل الأنبياء وخاصة الأولياء، ونهايته: التوكل عليه في دخول الجنة كما قال النبي ﷺ: « **واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله** »، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: « **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته** »(١) متفق عليه.

ويدخل في ضمن هذا التوكل في تحقيق العبودية له، التوكل عليه في تحصيل أعمال القلوب وأحوالها والثبات على ذلك، وكذا القيام بالأعمال الظاهرة كما قال الصحابة:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وأمر النبي ﷺ معاذًا أن يقول دبر كل صلاة « **اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** »(٢)، فلا ينال ما عند الله إلا بعبادته ولا تنال عبادته إلا بالاستعانة به والتوكل عليه.

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا** ﴾ أخبر الله أن قضاءه نفذ في أبناء يعقوب عليه السلام، وقد أصابهم ما كتب الله عليهم من البلاء في مدخلهم ذلك من غمهم وهمهم في أخذ أخيهم منهم وما ترتب عليه من مواجهتهم أباهم بأسوء حال، حتى فضل كبيرهم ألا يعود إلى أبيه خوفًا من مقابلته بخبر فقد أخيهم بنيامين ومواجهة غضبه وأسفه وحزنه، وقضى الله حاجة يعقوب عليه السلام التي أكنها في نفسه وسترها الله عنا كذلك، فما نحب أن نبحث عنها كما سبق.

تأمّل أبناء نبي من أنبياء الله حرص أبوهم على نفعهم وعدم ما يضرهم، لكنه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٦)، وابن ماجة (٤٢٠١)، وأحمد (٦١٦٢).
(٢) صحيح: رواه أبو داود (١٥٢٢) الصلاة، والنسائي (١٣٠٣) السهو، وأحمد، وابن حبان والحاكم عن معاذ بن جبل، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

ما أغنى عنهم من الله شيئًا بما قدمت أيديهم من قبل، فإن عاقبة الكذب وخيانة الأمانة والحسد وخلف الوعد لابد أن يصيبهم الله بها ولو بعد حين، لابد أن يصيبهم من الغم والهم والإنكسار والذل وإعراض أبيهم عنهم، وهو الذي فعلوا ما فعلوا ليخلو لهم وجهه فعوقبوا بنقيض قصدهم، قضى الله حاجة يعقوب التي في نفسه وأصابهم هم ماكتب الله عليهم من البلاء، فكلٌ يعامل بما يستحقه حسب نيته وعمله، لا يغني أحدٌ عن أحدٍ شيئًا .

ثم مدح الله يعقوب مدحًا عظيمًا، وأثنى عليه من خير ثناء بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ ، وقول ابن جرير هنا هو الظاهر وهو أن سبب علم يعقوب ﷺ أن الله هو الذي علمه، فالعلم الذي كان عنده من عند الله وبتعليمه هو أشرف العلم، والقول الثاني قول قتادة والثوري : لذو علم بعمله، أي : أن العلم الذي كُلف به يعقوب ﷺ قام به ولم يضيعه ولم يفرط فيه، فهو قائم يعمل بما فرضه الله عليه من العلم لم يتوان فيه ولم يقصر، ككثير من الناس ممن لا يعرف قدر العلم الشرعي ويفرط فيه ولا يعمل به فيضيعه، فيكون سببًا لأن يحرم منه ويزول عنه وينساه، والعياذ بالله .

قوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ بيان لحال أكثر الناس في جهلهم بحقائق الإيمان من : شهود عزة الرب سبحانه وقهره وملكه ونفوذ أمره، وأن لا معقب لحكمه، ومن اختصاصه المؤمنين لمزيد فضله، وقضاء حوائجهم وإجابة دعائهم، وتعليمهم ما لا يعلمون، ففيه تنفير وتحذير من الجهل وعدم الاغترار بالكثرة الجاهلة، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع .

لقاء الأخوين بعد غياب السنين

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) ﴾ .

جاء إخوة يوسف عليه السلام معهم بنيامين، ودخلوا عليه واختصر القرآن ما هو معلوم من إحسانه إليهم وإكرام ضيافتهم إلى موقف الحب والحنان، إلى اللقاء المنتظر بين الأخوين المتحابين الذين لم يلتقيا منذ سنوات طويلة، وهما شركاء في المعاناة من حسد إخوتهم الآخرين .

وتأمل لفظ : ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ فالإيواء فيه معنى : الضم للمفارق، والقرب للبعيد، والأمان للخائف، والحنان للمحروم منه، والإيناس للغريب، لنتوقف طويلاً في هذه اللحظة ويوسف عليه السلام يبث لأخيه هذه البشرى التي لم تكن لتخطر بباله ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾، يوسف الذي ضاع منه صغيراً رفيقه الحبيب الذي طالما افتقده، لندرك قدر الحنان العظيم الذي بثه يوسف عليه السلام في هذه الكلمة الجميلة ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ التي تذكّر برابطة الرحم ووشيجة القربى وحب الإخوة الصادق .

استعمل أخي الكريم هذه الكلمة كثيراً مع إخوانك في النسب، وفي الدين ستجد لها أثرًا عظيمًا في نفسك أنت أولاً، ثم في نفس أخيك والعلاقة بينكما ثانيًا، ثم لجو الود والصفاء والحنان الذي تشيعه في مجتمعكم .

إن علاقة الإخوة من أسمى العلاقات الإنسانية التي حين تفقد من مجتمعنا يحصل فيه من الجفاف والغلظة والقسوة والغفلة والعداوة والكراهية ما تجعل الحياة شقاءً ونكدًا لا يطاق، وإن وجود هذه الرابطة من أعظم أسباب ذوق حلاوة الإيمان، وإن التذكير بها، بمثل هذه الكلمة ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ ليسقي بذرتها

المباركة فتنبت بسرعة شجرة يانعة وارفة الظلال طيبة الثمار ببركة اتباع الأنبياء أرحم عباد الله بعباده – عليهم الصلاة والسلام – .

ثم واساه يوسف وآنسه بقوله : ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا تحزن ولا تأسف على ما كانوا يفعلونه بنا من أذى، فهذه عاقبة الصبر، خير عاقبة قد صار يوسف عليه السلام عزيز مصر، له من الملك ما يتبوأ منه حيث يشاء من أرضها، بعد الرق صار ملكًا، وبعد الضيق صار إلى السعة، وبعد البلاء صار إلى عافية .

كيف كان شعور بنيامين وهو يسمع هذه الكلمات ؟ كيف كان فرحه وسعادته ؟ فعلاً فوق الوصف والتعبير بقلم أو لسان، نسأل الله أن يذيقنا من مثل هذا الحب والحنان والفرح بتأليف قلوبنا وإصلاح ذات بيننا والنصر على عدوه وعدونا .

أمر يوسف عليه السلام أخاه بأن يكتم أمره، واتفق معه على الحيلة التي سوف يقوم بها ليأخذه منهم ويبقيه عنده في دار كرامته، والذي يظهر لي أن هذه الحيلة والسعي لأن يأخذ أخاه عنده إنما هو وحي من الله – تعالى – بدليل قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، وذلك لأن ما جرى من أخذ بنيامين وعدم ارجاعه إلى أبيه الكبير في السن المكلوم بفقد ابنه الأول، فيه من الأذى الجسيم لنبي الله يعقوب عليه السلام ما لا يعلمه إلا الله، مما لا يجوز أن يقدم عليه يوسف بغير وحي من الله – تعالى – وإذن له في ذلك، لأنه لو كان بغير وحي وإذن شرعي لكان من أعظم العقوق، وحاش يوسف عليه السلام من العقوق، والله أعلم .

كيد الله ليوسف

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) ﴾ .

يُخبر تعالى عن الحيلة التي وفق لها يوسف عليه السلام لكي يأخذ أخاه عنده، وهو أنه لما جهز إخوته وحمل لهم طعامهم، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية، وهي الإناء الذي يشرب فيه، قيل: من فضة، وقيل: من ذهب، قال ابن زيد: وكان يكيل للناس به من عزة الطعام، أي: قلة الطعام.

قال ابن عباس: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوّك (والمكوك إناء قدر الصاع)، ولهذا قال عنه: (صواع)، أي: صاعه الذي يكيل به، أفاده ابن كثير - رحمه الله -، ثم بعد خروج قافلتهم ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى مناد: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، وقد يسر الله ليوسف أن لا يكذب في كل ما قاله كذبة واحدة، وإنما استعمل التعريض، فقول مؤذنه ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ حق، لأنهم سرقوا يوسف عليه السلام من أبيه وباعوه وأكلوا ثمنه ظلمًا وبهتانًا، فقال إخوة يوسف مقبلين عليهم ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ؟ وهذا أيضًا من تيسير الله ليوسف عدم الكذب، فإنهم لم يقولوا لهم ماذا سرقنا ؟ فتكون الإجابة: سرقتم صواع الملك غير صادقة، وإنما قدر الله أن يقولوا لهم ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ فقالوا: ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ وهذا حق، فإن صواع الملك لم يكن بأيديهم ساعة قولهم ذلك، ويمكن أيضًا أن يكون الذي قال نفقد صواع الملك لا يدري في متاع من فيهم بالتعيين فهم يفقدونه.

وقوله: ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أي: طعامًا، وهذا بالنظر إلى قلة الطعام يعد كبيرًا، وقوله: ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أي: ضامن لمن أتى به أن يعطى حمل

بعير، وفي الآية ثلاثة أحكام شرعية :

الحكم الأول : حكم الشرب في آنية الذهب الفضة واستعمالها، وظاهر الآية مع التفسير حل ذلك في شريعة يوسف عليه السلام، وقد نصت السنة على تحريم الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة، قال رسول الله ﷺ : « **إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب إنما يجرجر في بطنه نار جهنم** » (١) متفق عليه من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

وعن **حذيفة** رضي الله عنه **قال** : « إن النبي ﷺ نهانا عن الحرير والديباج والشرب في آنية الذهب والفضة وقال : «**هي لهم في الدنيا وهي لكم في الآخرة**» (٢) متفقٌ عليه، وهذا الحديث الأخير ظاهر في تحريم وجوه الاستعمال كلها للعموم في قوله : هي لهم، أي : للكفار في الدنيا، وهذا يقتضي حرمة جميع وجوه الاستعمال إلا ما خصه الدليل، وقد نقل النووي وغيره الإجماع على ذلك، والخلاف في هذه المسألة في أن النهي يختص بالأكل والشرب فقط هو لبعض المتأخرين ولا يعرف عن السلف .

وكما ذكرنا فالحديث عام، ثم القياس الصحيح يقتضي إلحاق وجوه الاستعمال بالأكل والشرب، فاستعمال ساعة اليد أو غيرها أو سلسلة المفاتيح أو السكين أو الملعقة من الذهب والفضة من المحرمات عند عامة العلماء وبل من الكبائر، وقد تهاون كثير من الناس في بعض هذا اغترارًا منهم بقول بعض المتأخرين كالشوكاني – رحمه الله – بأن هذا النهي مختص بالأكل والشرب وليس كذلك كما أوضحنا، فالخلاف في هذا ضعيف جداً والله أعلم .

ولا شك أن شرع من قبلنا إذا ورد شرعنا بخلافه لا يكون شرعًا لنا، وهذه المسألة من هذا الباب لأن السنة صريحة في التحريم، حتى لو ورد ما يدل على حل في شريعة يوسف عليه السلام فهو منسوخ بشرعنا .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري(٥٦٣٤) ، ومسلم(٢٠٦٥) .

(٢) رواه البخاري(٥٦٣٣) ، والنسائي(٥٣٠١) ، وأبو داود(٣٧٢٣) .

الحكم الثاني : في قوله : ﴿ **وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ** ﴾ دليل على صحة الجعالة، وهي كما قال في منار السبيل: « جعل مال معلوم لمن يعمل له عملاً مباحًا ولو مجهولاً، قال في الشرح: ولا نعلم فيه خلافًا لقوله: ﴿ **وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ** ﴾، وحديث أبي سعيد: « **في رقية اللديغ على قطيع من الغنم** » (١) متفقٌ عليه أ.هـ.، ولأن الحاجة تدعو إلى ذلك في رد الضالة ونحوها، ولا تجوز الإجارة عليه للجهالة، فدعت الحاجة إلى العوض مع جهالة العمل « فمن فعل العمل بعد أن بلغه الجعل استحقه كله، وإن بلغه في أثناء العمل استحق حصة تمامه، وبعد فراغ العمل لم يستحق شيئًا » فإن فسخ الجاعل قبل تمام العمل لزمه أجرة المثل لما عمل لأنه عمل لعوض لم يسلم له، ولا شرعه لما يعمله بعد الفسخ لأنه غير ما دون فيه، وإن فسخ العامل قبل تمام العمل فلا شيء له » أ.هـ. باختصار من منار السبيل .

الحكم الثالث : في قوله تعالى عنه : ﴿ **وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** ﴾ ، دليل على الكفالة والضمان قال في المنار: « الضمان جائز إجماعًا في الجملة لقوله تعالى : ﴿ **وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** ﴾ ، قال ابن عباس : الزعيم ؛الكفيل، ولقوله ﷺ : « **الزعيم غارم** » (٢) رواه أبو داود، والترمذي وحسنه »أ.هـ .

قال : الكفالة هي أن يلتزم بإحضار بدن من عليه حق مالي إلى ربه من دين أو عارية ونحوهما، قال في الشرح : وجملة ذلك أن الكفالة بالنفس صحيحة في قول أكثر أهل العلم لقوله تعالى :﴿ **قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ** ﴾ ،ولحديث« **الزعيم غارم** » أ.هـ باختصار .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري(٥٠٠٧) ، ومسلم(٢٢٠١) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي(١٢٦٥، ٢١٢٠) ، وأبو داود(٣٥٦٥) ، وابن ماجة(٢٤٠٥) ، وأحمد والبيهقي عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٤١١٦) .

نجاح الحيلة

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أي : لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا فيهم سيرة حسنة، إنا ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أي : ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أي : السارق إن كان فيكم، ﴿ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه ؟ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام، أن السارق يُدفع إلى المسروق منه، (أي يكون عبداً ورقيقًا عنده) وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام ولهذا : ﴿ بَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ أي : فتشها قبله تورية ، ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ فأخذ منهم بحكم اعترافهم والتزامهم والزامًا لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أي : لم يكن له أخذه في

حكم ملك مصر، قال الضحاك وغيره : وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله – عز وجل –، وكذا روى عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس رضي الله عنهما فحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال : الحمد الله ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : بئس ما قلت، الله العليم فوق كل عالم، وكذا روى سماك عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال : يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم، وهكذا قال عكرمة وقال قتادة : وفوق كل ذي علم عليم حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بديء، وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ عالمٍ عَلِيمٌ ﴾ » أ.هـ. من تفسير ابن كثير .

قيّض الله ليوسف عليه السلام من كلام إخوته ما تلزمهم به الحجة، من غير أن يضطر يوسف للكذب، فأقسم إخوته أنهم قد علموا أنهم ما جاءوا ليفسدوا في الأرض، وما كانوا سارقين، ولم يقولوا لم نسرق صواع الملك لأنهم لو قالوا ذلك لما كانوا كاذبين، وأما قولهم : ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ فكذب، لأنه نفي عام لوصفهم بذلك ولو في الماضي، وقد سرقوا يوسف من أبيه كما تقدم، ولذا ساغ له أن يقول لهم : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ، ثم قيض الله أن يقولوا : ﴿ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ ولم يقولوا جزاء من سرقه أو أخذه، وقد وجد الصواع في رحل بنيامين، كما أنهم التزموا العقوبة التي يجزون بها الظالم لنفسه

بالسرقة عندهم، وليست هي العقوبة في حكم الملك، وهو في قوله : ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ يعود على الذي وجد عنده المتاع، أي : الشخص يكون رقيقًا وعبدًا جزاء سرقته .

وفي قوله تعالى عنهم : ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ ﴾ دليلٌ على أن السرقة من الإفساد في الأرض، وذلك لأنها انتهاك لحرمة أموال الناس، مع أن أهل مصر كانوا على غير الإسلام، إلا أن السرقة ممن دخل دار الكفر بأمان من أهلها وكذا كل أنواع الإفساد في الأرض نقض للعهد، وذلك أن من دخل دار الكفر بأمان من الكفار يعد أمانًا منه الداخل لهم على أنفسهم وأموالهم وأهليهم، فلا يجوز أن يتلصص عليهم، ولا أن يسفك دمًا أو ينتهك حرمة لهم، وهذا الحكم في شرعنا باق عند جمهور العلماء ، منهم الأئمة الأربعة وغيرهم، خلافًا لبعض المتأخرين كالشوكاني – رحمه الله – الذي جعل عقد الأمان للداخل لدار الحرب من طرف واحد، أي : منهم، ولا يلزم أن يكون أمانًا لهم منه حتى يشترطوه، والصواب أنه أمان منه لهم، لأنهم ما أعطوه الأمان إلا على ذلك، والمشروط عرفًا كالمشروط لفظًا، ولذا كان من دخل ديار الكفر والحرب بما يعرف اليوم بتأشيرة الدخول داخلاً بأمان، فلا يجوز أن يقتل منهم أحدًا، ولا أن يأخذ مالاً، لا على وجه المغالبة ولا على وجه التلصص، بل يكون مفسدًا في الأرض، والله أعلم (راجع المغني) .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ فيه استعمال التورية والتلطف لئلا يَشُكّوا أن في الأمر حيلةً واتفاقًا، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ ففيه إثبات صفة الكيد لله سبحانه، وهو التدبير في الخفاء من حيث لا يشعرون، والله قد وصف نفسه بهذه الصفة في سياق المدح والثناء، لأن كيده هو خير الكيد لا نقص فيه ولا ذم، وإن كان لا يشتق من

هذا الفعل من أفعال الله اسمٌ له مثل الكائد، ولا ينبغي أن يطلق الفعل مجردًا عن السياق، بل يذكر الفعل في سياقه الدال على الكمال، لأنه كاد سبحانه في الخير، وبمن يستحق أن يكاد بهم لما تقدم من ظلمهم واستحقاقهم عقوبة ما صنعوا بأخيهم من قبل، وكذلك كان هذا الكيد لكي يظل يوسف عليه السلام في خصومة له مع إخوته ملتزمًا بالشريعة التي تلزمهم جميعًا وهي شريعة إبراهيم عليه السلام كما تقدم، وهو لم يكن يلزمه أن يطبّقها في أهل مصر، لأنها لم تكن شريعة عامة لأهل الأرض جميعًا كشريعة الإسلام التي بعث بها صلى الله عليه وسلم، لا يسوغ لأحد أن يخرج عنها، وإنما كانت لازمة ليعقوب وأبنائه، فكان هذا الكيد من الله سبحانه ليظل هذا الالتزام قائمًا، والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ** ﴾ **أي**: حكمه وشرعته، وهذا دليل على أن لفظ الدين يعني به التزام الشرع والحكم، وإن كان استعماله بمعنى الملة أوسع، إلا أن من أجزاء الملة التزام الشريعة والحكم، فلا يصح ولا يثبت دين الإسلام لشخص لا يلتزم شرع الله سبحانه الذي شرعه لجميع الخلق وافترض عليهم اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وقد سبق البحث في كون الملك كان مسلمًا كما حكاه مجاهد، وسبق الكلام على عدم تطبيق يوسف شريعة يعقوب على أهل مصر لأنها ليست لازمة لهم، وإنما دعاهم إلى التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا الذي كان يلزمهم، ولهذا ساغ للملك أن يظل مع إسلامه – لو ثبت – على دينه، أي: حكمه وشرعه السابق لأنه لم يرد ما يلزمه بمخالفته وتركه، وهذا لا يسوغ الآن لأحد من أهل الأرض مع شرعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال له ربه: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] .

ويوسف عليه السلام لما تحاكم مع إخوته، حاكمهم إلى شرعهم اللازم لهم بتوفيق

الله ومشيئته، ولما كان هذا الأمر دالاً على منزلة يوسف عليه السلام وحسن تصرفه وتدبيره وعلمه، مدحه الله سبحانه فقال : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾، فالله رفع يوسف على إخوته درجات متعددة في الإيمان والنبوة، وفي الخلق والسلوك، وفي العقل والعلم وحسن التدبير، فسبحان الله في قسمه وعطائه، وتفضيله من شاء بفضله ونعمته له، والحمد على عطائه ومنحه وحفظه ورفعه، وتأمل ذكر السياق ما حدث من خلال ذكر أفعال الرب سبحانه : ﴿ كِدْنَا ﴾، ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾، ثم ختمت الآية بذكر صفة العلم لله سبحانه فوق كل العلماء : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾، وقد أنكر ابن عباس رضي الله عنهما على من ظن أنها ثناء على البشر، حين احتج بها من احتج على علم ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال له : بئس ما قلت، فالله سبحانه هو العليم فوق كل ذي علم، وهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء سبحانه وبحمده، فعلى العبد دائماً أن يكون حاضرٌ في ذهنه، أن الله هو الذي يفعل، وأن ما شاء كان، وأنه العليم سبحانه فوق علم البشر، وأن يشهد حسن تدبيره سبحانه لعباده المؤمنين، وتوفيقه لهم بما لا يقدرون ولا يحيطون به علماً إلا بتعليمه وإعانته .

ما زال الحقد باقيًا

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾.

عجيبٌ شأن إخوة يوسف عليه السلام، رغم مر السنين وغيابه عنهم فلا يزال الحقد والحسد يملأ قلوبهم عليه، فهم يحاولون تنقيصه وأخيه طالما سنحت لهم فرصة في ذلك، يدلك هذا الأمر على طبيعة مرض الحسد والغل، وأنه لا يزول بمجرد مرور الزمن أو بُعد المحسود عن الحاسد، وإنما يزول باستعمال دوائه من شهود قسْم الله وعطائه لعباده وأنه يؤثر من يشاء بما يشاء، وهم إلى تلك اللحظة لم يستعملوا هذا الدواء، ولذا لما وجدوا فرصة للطعن على يوسف وأخيه انتهزوها وسارعوا إلى النيل منهما فقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

قال ابن كثير -رحمه الله-: « يتنصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام، قال سعيد بن جبير عن قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنمًا لجده أبي أمه فكسره، وقال محمد بن اسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغني أن عمته ابنة اسحاق، وكانت أكبر ولد اسحاق، وكان عندها منطقة (وهي ما يلف على الوسط) إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من اختبأها ممن وليها كان له سلمًا لا ينازع فيه، يصنع فيه ما يشاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته، وكان لها به وله (أي: حب شديد)، فلم تحب أحداً حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات، شاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام، فآتاها فقال: يا أُخيَّه، سلمى إليّ يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عنّي ساعة، قالت: فوالله ما أنا بتاركته، ثم

قالت : فدعه عندي أيامًا أنظر إليه، وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه، أو كما قالت، فلما خرج من عندها يعقوب، عمدت إلى منطقة إسحاق ﷺ، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق ﷺ، فانظروا من أخذها ؟ ومن أصابها ؟ فالتُمِسَتْ، ثم قالت : اكشفوا أهل البيت، فكشفوهم فوجدوها مع يوسف، فقالت : والله إنه لي لسلم (أي : يسلم لها) أصنع فيه ما شئت، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها : أنت وذلك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، ما استطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، قال : فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه : ﴿**إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ**﴾ . » أ.هـ.

وهذا والذي قبله من الآثار الإسرائيلية التي لا تصدق ولا تكذب، وإن كان لابد من التنبيه على أن ما تضمنته هذه القصص من اتهام من لا يعرف عنه تهمة، يجب رده خصوصًا من كان من آل الأنبياء أو أصهارهم، فاتهام صهر يعقوب ﷺ بأن له صنم تهمة بلا بينة، ولا ينبغي الظن بيعقوب ﷺ أن يصاهر من يتخذ الأصنام، إلا أن يكون المقصود به تمثالاً لا يُعبد، فيكون الأمر أهون لاحتمال أن يكون جائزًا في شرعهم، ولكن في الأصل أيضًا أن تصوير ذوات الأرواح مضاهاةً للرب – سبحانه –، فهو أمر متعلق بالتوحيد فلا تختلف فيه الشرائع فيكون ممنوعًا ابتداءً .

وكما في قوله تعالى عن سليمان ﷺ : ﴿**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ**﴾ [سبأ : ١٣] ليس هناك ما يدل على أنها من ذوات الأرواح، ولذا لا ينبغي إساءة الظن بصهر نبي في شرك أو معصية بلا دليل يجب التسليم إليه، وكذا قصة ابنة إسحاق وحيلتها بالكذب لتأخذ يوسف من أبيه بغير حق مما ينبغي عدم قبوله، لأنها ابنة نبي وأخت نبي وعمة نبي لم يثبت عنها هذه الحيلة

غير الشرعية، بخلاف حيلة يوسف لأخذ أخيه فإنها كانت لإنقاذه مما فعله إخوته به، فهم قد امتلأت قلوبهم حقداً وحسداً عليه حتى لو كان فيه إيلام يعقوب، إلا أنه إذا علم أن هذه الحيلة إنما هي لمصلحة بنيامين، وهي تدبير الله وتوفيقه، لرضي بذلك قطعًا، وقد كان .

الغرض المقصود أننا لسنا بحاجة إلى هذه القصص، فإن هذه التهمة التي اتهمها إخوة يوسف تهمة باطلة على أي حال، وغير مستغرب منهم تلفيق تهمة باطلة، سواء كانت مبنية على واقعة معينة حرّفوها وأولوها على غير وجهها، أو كانت مختلقة من أصلها، وليس مثل هذا بمستبعد عن مَن ملأ الحسد قلبه، فإنه إن لم يجد ما يتنقص به محسوده اختلق واخترع ما يتنقصه به، فهم يريدون عيب يوسف عليه السلام بما ليس فيه وبما لا يليق به حتى في طفولته، فإن سجايا الأنبياء وصفاتهم الجبلية التي فطرهم الله عليها هي أكمل السجايا والصفات، والسرقة نوع من الخيانة تنفر النفوس منها، ولو وقعت من إنسان حال طفولته وعرفت عنه، ولذا كانت مقالة إخوة يوسف عيبًا وطعنًا فيه يستشفي الحسود بها غله وحقده، حتى ولو كانت الواقعة المدعاة حال الطفولة، فتكون مسبة له مر الدهر، فينزه عنها الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – أجمعين .

وتأمل كيف كانت محاولتهم التنقيص من يوسف سببًا لنقصهم هم، فهم يواجهون يوسف بالطعن فيه جاهلين أن العزيز هو يوسف عليه السلام، فأَسَرَّ يوسف في نفسه قوله عنهم : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ ، فكل من رام تنقيص غيره بالباطل واتهامه بما ليس فيه رغبةً في وجاهة عند ذي السلطان أو عند أحد من الخلق، فإن عاقبة مكره السيء تعود عليه، فيحصل له النقص عند ذي السلطان وعند الناس جميعًا، ووالله إن هذه الكلمة التي قالوها عن يوسف عليه السلام وأخيه، لتجعل قلوب المؤمنين في كل زمانٍ ومكانٍ تشعر بنقيصتهم وسوء

مقالتهم وفساد قلوبهم تجاه أخويهم اللذين هما أفضل منهم بلا شك، وهكذا كل مغتاب نمام، فإنه بغيبته ونميمته لمن يكرهه إنما يرفع قدره ويضع من قدر نفسه، ويُبَغِّضُها للناس ثمرةً ونتيجةً لعمله الذي يبغضه الله -عز وجل-، بل كل سالك لغرض من أغراضه سبيلاً خلاف سبيل الحق، فإنه يحصل له في عاقبة الأمر عكس ما قصد، فهم حين أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم بإبعاد يوسف عليه السلام عنه، ما ازدادوا من أبيهم إلا بعداً، وما ازداد يوسف إلا حبًا .

وأتعجب في نفسي ماذا يكون شعور وظن إخوة يوسف لو علموا أن الذي يعنون بالسرقة من قبل هو هذا الملك العزيز أمامهم ؟ كيف يكون خجلهم وفضيحتهم ؟ ثم لو كان صدقًا فما الحاجة في أن يذكروا أمام ملك غريب منهم فضائح إخوتهم، كأن عائلتهم عريقة في السرقة ؟ وهل هذا إلا فضيحة لأنفسهم من حيث أرادوا تبرأتها ؟ فكأنهم يثبتون الجريمة على أخيهم ويؤكدون أنها صفة لازمة في الأسرة، ماذا يصنع الحقد بأهله ؟! وماذا يدمر الحسد من صورة صاحبه ؟! وكما قيل :

لله در الحسد ما أعدله ... بدأ بصاحبه فقتله

ثم تأمل حلم يوسف عليه السلام المظلوم أولاً والمظلوم ثانيًا، الذي يملك أن ينتقم وينتصر ويواجه المبطل بباطله، فيحلم ويكظم غيظه، ولا يزيد على أن يحدّث نفسه بمقالة يقول : ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي : مما وصفتم به أخاكم كذبًا وزوراً، نعم والله، فإن من سرق أخاه من أبيه النبي وباعه رقيقًا شر ممن سرق صنمًا أو منطقةً أو غير ذلك لو كان شيء من ذلك .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهذا الإسلوب القرآني الرائع في رد العلم إلى الله فيما لا فائدة من معرفته، فالله أعلم بحقيقة ما وقع من يوسف مما جعل إخوته يصفونه بهذا الوصف الباطل، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ثم تكون نهاية الأمر

عند يوسف بعد الحلم وكظم الغيظ، العفو والصفح والمغفرة بل والدعاء بالمغفرة والتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته أن يفعل: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، ما أحلمه، وما أكرمه، وما أجمله خَلقًا وخُلقًا، الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – .

وقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: الكلمة التي قالها في نفسه سرّها ولم يظهرها، وهي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو من باب ذكر الضمير قبل الاسم الذي يعود عليه، قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أسر في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: تذكرون.

محاولات فاشلة

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾ .

شرع إخوة يوسف عليه السلام يستعطفونه ويترفقون له لكي يطلق أخاهم، ولو يأخذ أحدهم مكانه، فهم يفضلون أن يكون أحدهم رقيقًا على أن يرجعوا إلى أبيهم بغير أخيهم ويواجهوا سخطه وغضبه عليهم، فسبحان الله، مدبّر الأمر، كيف جعل وجه يعقوب لأبنائه وهم الذين يسعون لأن يخلو لهم – أشدّ عليهم وأقسى من الرق وما ذاك –، وهو أبوهم الرحيم الرفيق إلا بسبب أعمالهم وخصالهم السيئة، وإلا فأنبياء الله أرحم خلق الله بخلقه، فكيف بأبنائهم ؟! ولكنها عاقبة المعصية وشؤمها .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ أي : وهو يحبه حبًا شديدًا، ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعجبني كثيرًا أن كل خطابات أخوة يوسف عليه السلام له بـ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ ، فعلاً والله أعزه الله عليهم أعظم إعزاز، نعم هي وظيفته ولقبه، ولكنه لقب خاص اختاره الله له، فالمعتاد في مثل منصبه لفظ الوزارة أو الملك أو غير ذلك من ألفاظ الرياسة، ولم يذكر العزيز إلا في هذا المنصب في هذا الزمان، وهو اسم ووصف يستحقه يوسف عليه السلام ولله العزة جميعًا، يعز بها من يشاء ويذل من يشاء، أعز من شاء بطاعته وأذل من شاء بمعصيته، وفي قولهم : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ دليلٌ على ما كان عليه يوسف عليه السلام من الخلق الحسن والإحسان إلى الناس، فإخوته – وهم لا يعرفونه بل وهم يغتابونه أمامه من حيث لا يشعرون – لا يملكون إلا أن يشهدوا بما يرون من إحسانه، فكل من يعامله يراه من المحسنين، صاحباه في السجن والنسوة شهدن

بأنهن ما علمن عليه من سوء وإخوته، ولقد لمس الملك وأهل مصر جميعًا من إحسانه وكرمه ما نفعهم الله به، وهذه الصفة من أهم صفات الداعي إلى الله تعالى، يلزمه أن يحافظ عليها، بل ويتكلفها ليفتح الله له بها قلوب الناس .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ ولم يقل إلا من سرق متاعنا حفاظًا على التعريض وعدم الكذب، فهو في الحقيقة لم يسرق ولكنهم وجدوا متاعهم عنده، ولو أخذ غيره لكان ظالمًا فعلاً، لأنه إنما يأخذ أخاه ليكرمه ويبعده عن جو الحقد والحسد والبؤس الذي يحيطه به إخوته، ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولو أخذ واحداً منهم بتهمة السرقة لكان معاقبًا له على فعل لم يفعله، وما كان ليكرمه كإكرامه لأخيه الذي يستحق ذلك، وفي استعاذته ﷺ بالله من الظلم، دليلٌ على حاجة الحاكم إلى اللجأ إلى الله والدعاء ليجبره من الأبرياء، وهذه الحاجة حاجةٌ شديدةٌ ماسةٌ، لأن الحكم له صولة وجاه يُنْسِي أكثر الحكام ويعميهم، ولا يشعرهم بخطر الكلمة الواحدة منهم التي قد يتعذب بسببها بريء زمنًا من الدهر، وكم شقيت أمم وشعوب بظلم حكامهم، وهم في غفلتهم وسكرتهم يعمهون ولا يشعرون، وسبب ذلك أنهم ما لجأوا إلى الله ليعيذهم من الظلم، فإن الاستعاذة بالله من الظلم من أعظم أسباب النجاة والتحصين من كيد الشيطان، ومكره أعاذنا الله من الظلم ووفقنا للعدل، ونسأله أن لا يسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا .

الندم واستشعار الخطيئة

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ .

بذل إخوة يوسف عليه السلام جهداً كبيراً، وألحوا على العزيز يوسف عليه السلام إلحاحًا شديداً في أن يطلق أخاهم، دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ ﴾ ، فلم يكن طلبًا مجرداً، بل إلحاحًا وجهداً لم يصلوا إلى غايتهم منهم فيأسوا منه، وهذا الجهد كان لأمرين :

الأول : كراهيتهم أن يعودوا لأبيهم من غير أخيهم .

والثاني : الموثق من الله الذي أخذه أبوهم عليهم، فقد كان العهد عظيمًا في نفوسهم، فبعد يأسهم من العزيز أن يرد عليهم أخاهم ولو ببدل ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ أي : انفردوا عن الناس يتناجون ويتباحثون سرًا فيما بينهم في شأنهم، وماذا يصنعون في هذا المصيبة التي نزلت بهم، ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ قال ابن كثير : « وهو روبيل، وقيل : يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر حين هموا بقتله » .

تجد هذا الأخ عنده نزعة من الخير وتقليلاً للشر، إن صح أنه هو الذي كان نصحهم بعدم قتله، وهذه النزعة ظهرت جليًا في هذا الموقف، فهو يذكرهم بالعهد والميثاق مع الله ــ سبحانه ــ الذي قد أخذه أبوهم عليهم برد بنيامين إلا

أن يحاط بهم، والتذكر والتذكير بعهد الله دليلُ المراقبة والمحاسبة للنفس وإلا فالفاجر لا يعبأ بعهوده ومواثيقه، وقوله : ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ هنا بدأ الندم يظهر في قلوبهم ويحل على ألسنتهم بعد السنين الطوال، وهذا أول موضع يعترفون أو يعترف أحدهم ويقره الباقون بالتفريط في حق يوسف عليه السلام، قد منّاهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم حين مكروا بيوسف عليه السلام أن يكونوا من بعده قومًا صالحين وأن يتوبوا، فما تابوا ولا صلحوا إلا بعد هذه السنين، فالعبد لا يملك قلبه، والله يحول بين المرء وقلبه، وإنما يُرزق الإنابة والتوبة مع استشعار المراقبة لله، والعلاقة الخاصة والمسؤلية بين يديه، ومع ذكر الله - سبحانه - ومعرفة أسمائه وصفاته، فتأمل كلامهم من أول السورة ما ذكروا صفة الرب - سبحانه - إلا في هذا الموضع حيث قال كبيرهم : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

سبحان الله ! ما استشعروا أن الله هو الذي يحكم وأنه خير الحاكمين إلا بعد هذا العمر الطويل حين بدأوا يعاملون ربهم، إن أعظم نعمة ينعم الله بها على عبده أن يملأ قلبه بمعرفته، وأن يشهد قلبه أسماءه وصفاته وأفعاله، وأن يأخذ بناصيته إليه ويريه ملكوت السماوات والأرض ويجعله من الموقنين، وينقذه من ورطات الغفلة عن الله وعن صفاته وأفعاله وملكه وحمده، هذه الغفلة التي يعيش فيها أكثر الناس فلا يدرون كم يجلبون على أنفسهم من الشقاء بها، ويعانون من أنواع التعاسة والبلاء والمصائب والمحن بسببها، مع أن معرفة الله ثم محبته والتوجه إليه سبيل قصد مستقيم سهل، أقصر الطرق إلى السعادة، وأيسر السبل إلى الغاية التي خلق من أجلها الإنسان .

وتأمل كيف كانوا طول عمرهم في تعب الحسد ونكد الحقد حتى ذكروا الله وصفاته وأسماءه وشهدوا حكمه وأمره، فبدأ الفرج يلوح لهم وبدأ الخير الذي أوله الندم واستشعار الخطيئة ومشاهدة الجناية يدب إلى قلوبهم، وإن كان الفرج

دائمًا يأتي في صورة بلاء يبلغ مداه، وضيق يبلغ غايته، يأتي بعده السعة واليسر، فتأمل أن يوم الفرج للوط عليه السلام كان يومًا كان في أوله : ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود : ٧٧]، وكان يوم نصر الله نبيه إبراهيم عليه السلام هو يوم إلقائه في النار وهو الذي كانوا يعدون له عدة، وكانت لحظة النجاة لموسى عليه السلام يوم فلق البحر هي لحظة ﴿ تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ [الشعراء : ٦١]، وقول أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] .

ويوم نصر الله نبيه محمد ﷺ نصره المؤزر بلا عمل أحد من الناس يوم وصل الكفار إلى الغار، فدائمًا لحظة الفرج تسبقها أشد لحظات الشدة، فإذا وجدت الأمور تضيق وتصل إلى الغاية، مع وجود إنابة وتوبة واستحضار لأسماء الله وصفاته وحكمه وحمده ومعاملة خاصة معه وشهود معيته، فأبشر فإنها لحظات الفرج القريب إن شاء الله .

كما قال رسول الله ﷺ : « واعلم أن الفرج مع الكرب وأن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسراً » (١)، فاللهم فرج كربات أمتي، وانصرنا في مشارق الأرض ومغاربها، ويسر لنا أمرنا برحمة واسعة من عندك تغنينا بها عن رحمة من سواك، وانصر المسلمين في العراق وفلسطين وأفغانستان والشيشان والهند وكشمير وفي كل مكان يارب العالمين .

وقول كبيرهم : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ أي : أرض مصر لن أغادرها ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ أي : يمكنني من أخذ أخي، فهو يتوكل على الله ويرجوه أن يحكم له بتحرير أخيه ورده إلى أبيه وفاء بالموثق، ويتوسل إلى الله سبحانه باسمه – عز وجل – ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

ثم أمرهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه بما حدث : ﴿ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾، قال قتادة وعكرمة : ما علمنا أن ابنك سرق، وقال ابن زيد : ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئًا إنما سألنا ما

(١) صحيح : رواه أحمد (٢٨٠٠) مسند بني هاشم، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٦) .

جزاء السارق، يعنون بذلك الاعتذار والتنصل لأن ظاهر الأمر أنهم السبب في أخذ أخيهم، رغم أن ذلك ليس هو جزاء السارق في حكم الملك، فهم يعتذرون إلى أبيهم بأنهم حين التزموا للعزيز بأن جزاء من وجد في رحله فهو جزاؤه، ما كانوا حافظين للغيب، أي: عالمين به، وهو أن أخاهم قد سرق شيئًا، فهم ما شهدوا إلا بما علموا من شريعتهم أن جزاء السارق أنه يدفع إلى المسروق منه، أي: ولو كانوا يعلمون الغيب وأن أخاهم قد سرق، لما التزموا بذلك، والله أعلم .

وقوله عنهم : ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا** ﴾ يعنون : مصر، هذا هو الظاهر، وهو قول قتادة، ﴿ **وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا** ﴾ أي : القافلة التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا، ﴿ **وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ تأكيد لصدقهم بـ ﴿ **إِنَّ** ﴾ المؤكدة ولام التوكيد، ولكن ما يغني التأكيد عن من جُرِّب عليه الكذب قبل ذلك، وما يغني السؤال عن أمانة من عُلِمَ عنه خيانة الأمانة قبل ذلك، إن اليقين المعلوم في النفس أبلغ من السؤال، خصوصًا السؤال الذي لا يمكن، فأنّى ليعقوب أن يسأل أهل مصر ؟ ولكنهم لا يدرون ماذا يصنعون، وكيف يقنعون آباهم بأن هذه المصيبة الهائلة الجديدة لا صنع لهم فيها، وأنهم ما فرطوا هذه المرة ؟! .

لكنه الجزاء العدل من الله للكاذب الخائن الفاجر، أن يُرد خبره كله ولو صَدَق في بعضه، ويُخَوَّن في شأنه كله ولو كان أمينًا في بعضه، ويُعامل كفاجر في أمره كله ولو عدل في بعضه، وفي هذا حجّة لأهل الحديث في رد حديث من عرف بالكذب مع أنه لا يكذب في كل حديث يحدثه، ولكن طالما ثبت كذبه مرة فيجب معاملته كذلك حتى يتوب وتحسن توبته، والله أعلم .

كل هذا أصابهم بسبب ما صنعوا بيوسف عليه السلام منذ زمنٍ طويلٍ، فعقوبة العاصي قد تتأخر، وقد يملي الله للظالم ولكنه لا يهمله، ولا يضيع حق المظلوم ودعوته كما في الحديث القدسي: « **وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين** »(١) .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٥٢٥، ٣٥٩٨)، وابن ماجة (١٧٥٢) بلفظ « بعزتي »، وأحمد (٧٩٨٣، ٩٤٥٠)، والطبراني (٣٧١٨) عن خزيمة بن ثابت، و صححه الألباني في صحيح الجامع (١١٧).

كرب جديد فوق الحزن القديم

قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾ .

كيف كان وقع الخبر على يعقوب عليه السلام ؟ ضاع ابنه الثاني الحبيب إلى نفسه، وغاب الثالث في انتظاره، وكيف كان رد فعله على هذه المصيبة الشديدة عليه السلام ؟ ثم كيف يكون ابنه الحبيب المُرَبَّي على عينه، الذي يعلم صفاته وسجاياه الطيبة شبيه يوسف الكريم عليه السلام قد سرق ؟ أمرٌ لا يقبل ولا يصدق، فكان من الطبيعي أن يتهم إخوته الذين سبق منهم الكذب والخيانة، ومضى منهم الحسد والضغينة بأن نفوسهم المريضة قد سولت وزينت لهم أمرًا بأخيهم الثاني، فقد كانت كلمتهم هذه المرة : ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ شبيهةً بكلمتهم أول مرة : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾، كما كان عهدهم في هذه المرة : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ كعهدهم أول مرة كذلك، فكان جوابه عليهم مثل ما قال لهم أول مرة : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾، قال ابن كثير : « قال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتبًا على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه وصح قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ » أ.هـ، والذي يظهر لي، والله أعلم، أن يعقوب ما قصد فعلهم الأول حتى يتكلف تصحيح قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ بل كان هذا ظنًا من يعقوب عليه السلام أنهم صنعوا مكرًا بأخيهم بنيامين، ولا مانع من تجويز الخطأ في الظن على الأنبياء وهم لا

يُقَرُّون على ذلك، فإذا كان الخطأ في الاجتهاد في الأحكام جائزًا وواقعًا، فلأن يكون جائزًا وواقعًا فيما لا يترتب عليه حكم أولى وأحرى، ولقد اجتهد النبي ﷺ في شأن الأعمى ونزل عتابه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ [عبس: ١-٢]، واجتهد في أسارى بدر، واجتهد في قبول عذر المنافقين في غزوة تبوك، وبَيَّنَ الله له عفوه عنه في هذه الإجتهادات، وقد وقع منه ﷺ في شأن تأبير النخل ما هو معلوم حتى قال: « **أنتم أعلم بشئون دنياكم** »(١)، وقال تعالى: ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩] وهذا كله دليل على جواز وقوع الخطأ في الاجتهاد من الأنبياء، وأنهم ينبهون عليه، فهذا الذى وقع من يعقوب من هذا الباب، والله أعلم، وهو معذورٌ عليه السلام فيما وقع منه لسابق فعلتهم بيوسف عليه السلام، ومع ظنه ذلك عليه السلام كان رد فعله أجمل وأحسن رد فعل: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ أى: الذى لا شكوى فيه إلى الخلق، ما أعظم صفات الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -، مصيبةٌ هائلةٌ وخطبٌ جسيمٌ نكأ الجرح القديم والحزن الدفين، ومع ذلك فلا يقابل إلا بالصبر الجميل، بل ولما زاد الكرب وعظم المصاب واشتد البلاء رجا قرب الفرج من ربه العليم الحكيم فقال: ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ أى: بأبنائه الثلاثة يوسف وبنيامين وكبيرهم رويل أو يهوذا، و﴿ **عَسَىٰ** ﴾ من الله واجبة، وهى من أنبياء الله خبرٌ عنه - عز وجل -، فإن شدة البلاء علامة على قرب الفرج لأن الأمور يدبرها العليم بأحوال عباده، الحكيم فيما يقدره، ليست الأمور تجرى بغير حكمة وإحكام، وليست من صنع البشر، إن المقادير يقدرها العليم الحكيم بعلمه وحكمته وإحكامه لكل شيء صنعه، لا يضع الأشياء إلا فى مواضعها، ولا يشرع الشرائع ولا يقدر المقادير إلا للحكم والمصالح التى هى أحب

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٣) الفضائل، وأحمد (١٢١٣٥).

إليه مما لو لم يقدر المكروه، فيخلو الأمر عن هذه الأمور المحبوبة التى ترتبت على المكروه، فكم فى هذا الألم الذى قدره الله على يعقوب عليه السلام من حكمةٍ بالغةٍ ومصلحةٍ عظيمةٍ، وعبادةٍ له سبحانه، وقدوةٍ وأسوةٍ ، وصبرٍ وحلمٍ، ورجاءٍ وحسن ظنٍ بالله، ومعرفةٍ بأسمائه وصفاته وشهود أثارها في الكون، وكم ارتفعت درجات يعقوب عليه السلام عند الله، وكم من ثناء حسنٍ ولسان صدقٍ في الآخرين بسبب موقفه الرائع : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، اللهم لك الحمد على ما قضيت، ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت .

وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أعرض عن أبنائه وتذكر حزنه القديم على يوسف عليه السلام، جَدَّدَ له فَقْد الابْنَيْن حزن فَقْد يوسف، بل هو لم يزل موجوداً في قلبه لم يفارقه، ولكن الصبر الجميل منع من ظهوره أمامهم، وقد يتعجب المرء من أن الخبر بفقد بنيامين كان يناسبه أن يقول: « يا أسفى على بنيامين »، ولكنه قال: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ فلا شك أن يوسف أحب إليه، ثم إن هذا الموقف ذكره بقيمة يوسف عليه السلام وقَدْرِه وصفاته الجميلة .

فها هم أحد عشر رجلاً لا يستطيعون حفظ واحد منهم، فما قَدْرُهم بالنسبة إلى قَدْرِ يوسف عليه السلام؟ إن هذه البلايا إنما يقوم لها يوسف عليه السلام مقامهم مجتمعين، بل خيراً منهم بلا شك، ووالله لقد كان، فيوسف هو الذي يفرّج الله به كرب يعقوب في بنيه، ولكنه يفتقده حين ما قال : ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ، إن فَقْدَ الرجال وغياب الكرماء وانعدام الثقات هو الذي يؤلم رعاة البشر الأنبياء وأتباعهم، إن هذا المعنى والله أعلم الذي جعل عمر رضي الله عنه عندما يصلي بالناس فيقرأ هذه السورة، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى عن يعقوب في هذا الموضع : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ، سمع نحيبه ونشيجه، أي : بكاؤه من آخر

المسجد وهو الذي يقول : « **اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة** »، ويقول لجلسائه : « **تَمَنَّوْا** »، فيتمنى أحدهم مالاً ينفقه في سبيل الله، ويتمنى الآخر خيلاً يجاهد عليها في سبيل الله وغير ذلك، فيقول : « **لكنّي أتمنّى داراً مثل هذه، فيها رجال مثل أبي عبيدة بن الجراح أستعملهم في أمور المسلمين** » ، أو كما قال رضي الله عنه، إنه والله همٌّ عظيمٌ وشدةٌ شديدةٌ أن يفقد الرجال، إذا كان في زمان عمر والصحابة رضي الله عنهم حوله متوافرون يشكو إلى الله عجز الثقة، بل أعظم من ذلك إذا كان رسول الله ﷺ هو الذي يقول : « **الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة** » (١) متفق عليه، فالراحلة التي تصلح للسفر الطويل وحمل الأعباء أقل من واحد بالمائة في الناس، فكيف بأزمانٍ انعدم فيها الثقات وغاب فيها العلماء وعز فيها الكرماء ؟! اللهم إليك المشتكى، ويا أسفى على أصحاب رسول الله ﷺ وأمثالهم – وما لهم مثيل – وأشباههم وأتباعهم، ماذا نصنع وكيف نهنأ بالعيش، والمسلمون قد تضاعف عددهم بالآف الملايين، وتضاعف كربهم ومحنتهم وبلاؤهم، وعظم الجهل فيهم وقل العلم فيهم، وتسلط عليهم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، أما يحق لنا أن نبكي ونبكي على أنفسنا وأهلينا وأبنائنا وأمتنا .

إن يعقوب عليه السلام لما ضيّع أبناؤه أخاهم الثاني، تذكر أمانة يوسف عليه السلام وكرمه وعلمه وحسن صفاته، فتأسف عليه، ﴿ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ شكوى إلى الله – سبحانه – وحزنًا على عدم الراعي الشفيق الرفيق، ومن يعد لنوائب الدهر مع أنه يعلم أنه عن قريب يلقاه، وأن غيابه مؤقت لأنه يعلم من الله – من وعده الصادق الذي لا يخلف – ما لا يعلمون، يعلم من حكمه وجوده سبحانه، ويعلم من رحمته وفضله ما لا يعلمون، يعلم من عزته سبحانه، وأنه

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٦٤٩٨) ، ومسلم (٢٥٤٧) فضائل الصحابة ، والترمذي (٢٨٧٢) ، وابن ماجة (٣٩٩٠) ، وأحمد (٥٣٦٤) .

الغالب على أمره، وأنه حسب من توكل عليه، وأنه لا يضيع أجر المحسنين، ما يجعله يوقن بقرب لقاء يوسف عليه السلام .

فهل نبكي على حالنا وحال أمتنا، نشكو إلى الله همنا وحزننا وبثنا عسى أن يكون في ذلك قرب فرجنا ؟ فإن كنّا لا ندري ما يصنع الله بنا كأفرادٍ أو كجيلٍ، لكننا على يقين من أن الأمة لا تموت وأن الحق منها لا يضيع، وأنه « **لا تزال طائفة منها على الحق ظاهرين لا يضرها من خالفها أو خذلها حتى تقوم الساعة** » ، ونسأله سبحانه أن يجعلنا منهم وأن يجعلنا خطوات على الطريق ولبنات في البناء إنه هو العليم الحكيم .

وقوله تعالى : ﴿ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ** ﴾ أي : ذهب ضوؤها فعَمِيَ يعقوب عليه السلام، وهذا بلاءٌ جديدٌ، فإنه يأمل ويرجو أن يرى يوسف بعينيه، ذهبت العينان وذهب البصر بسبب الحزن، ولكن الرجاء في الله باقٍ والصبر قائم، وهذا دليل على أن الحزن لا ينافي الصبر والرضا، فإنه من الرحمة بخلق الله - سبحانه - لا من السخط على قدر الله، كما قال النبي ﷺ : « **تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بفراقك يا إبراهيم - يعني ابنه - لمحزونون** » (١) .

إنه مقام الرحمة بالخلق وفيض المشاعر الرقيقة الرفيقة وزوال القسوة التي لا يحبها الله، إن وجود الألم الفطري لا ينافي الرضا عن الله وبالله فضلاً أن ينافي الصبر، ولكنّ هذا الألم يذوب في حلاوة الرضا ويفيض الله على القلب ما يغنيه ولا يشقيه، فيكون حزنًا وبثًا عجيبًا لا يشقى به الإنسان، بل يجد لذة الشكوى إلى الله، والشعور بآثار رأفته وروحه، ويبكي فرحًا، ويشتكي سرورًا، ويتألم ملتذًا .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٣٠٣) الجنائز ، ومسلم (٢٣١٥) الفضائل ، وأبو داود (٣١٢٦) الجنائز بلفظ « وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » بدل « وإنا بفراقك » .

ووالله إنه لأمرٌ عجيبٌ ولكنه حقيقي، قد يصعب وصفه أو يستحيل إدراكه إلا بالوجد والذوق، ولكن إذا تأملت الآيات وجدته والله جليًا واضحًا، فيعقوب قد صبر الصبر الجميل، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم أي : ساكت كئيب، لا يشكو أمره وما يجده في صدره إلى مخلوق، وليس حزنه وبثه (أي : همه وغمه) على المستقبل والحاضر، والحزن على الماضي ليس لفوت دنيا ولمجرد فقد ابن، بل قلق على مستقبل أمّة وغياب راعٍ شفيقٍ يقوم مقام أمّة، وهو مع ذلك لا ييأس من روح الله ويبث روح الرجاء التي تبدد ظلمات اليأس في بنيه الذين يشفقون عليه من الضعف : ﴿ **قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا** ﴾ أي : ضعيف القوة، ويخشون عليه من الهلاك : ﴿ **أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ** ﴾ ، فيقول لهم واصفًا حقيقة بكائه وحزنه : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ .

إن عبادة الشكوى إلى الله عبادة عظيمة تجلب للقلب أنواعًا من الطمأنينة والراحة والسكون والسعادة ما لا يمكن أن يوجد في عبادة غيرها، إنها عبادة أدّاها نوح عليه السلام حين شكى إلى الله فقال : ﴿ **رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)** ﴾ [نوح : ٥ – ٧]، وأدّاها محمد ﷺ حين قال : « **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح علي أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك لك العتبى**

حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»(١) إنها عبادة استوقفت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين سُمع نشيجه عند هذه الآية واستوقفته حين كان مع أصحابه، فاستوقفته امرأةٌ عجوزٌ، فترك الناس وقام معها فأطال القيام حتي قضى حاجتها فانصرفت .

فقال له رجل : يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش علي هذه العجوز.

قال : ويحك، وتدري من هذه ؟

قال : لا .

قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلي الليل ما انصرفت عنها حتي تقضي حاجتها، إلا أن تحضر صلاة فأصليها ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها (وإن كان منقطعاً فقد روي من غير وجه) .

إن عبادة الشكوى إلي الله من أجْلِها قدّر الله المحنة والبلاء، بل والمعصية والكفر، حتي يسمع تضرع عباده إليه، ويؤخر إجابة دعوتهم – وقد أجابها – لأنه يحب أن يسمع تضرعهم وشكواهم إليه : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ [الأنعام : ٤٣]، فهل وجدت أخي المبتلي مفتاح الكنز الذي معك وربما لا تدري ؟ فهلا فتحت القفل بالمفتاح وأعددت القلب ليُفْضَى عليه من الرحمة ويُسْبَغ عليه من النعمة ؟ اللهم نشكو ما نزل بنا وبالمسلمين، ونؤمن بك ونتوكل عليك، نرجو رحمتك ونخاف عذابك، فاللهم فرج كرب المكروبين، وفك أسر المأسورين، وارفع الظلم عن المظلومين، اللهم استر عورات المسلمين وآمن روعاتهم، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، اللهم ارحم موتاهم، واشف

---

(١) رواه الطبراني ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٢) وإن كانت شهرته تغني عن إسناده ، وقد قال ابن القيم عنه : « عليه نور النبوة » .

مرضاهم وجرحاهم وخفف آلامهم، وارحم أطفالهم وأيتامهم وأراملهم ورجالهم ونساءهم في كل مكان يا رب العالمين (١) .

وفي قوله عليه السلام : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ استحضار الخصوصية في العلاقة مع الله سبحانه والعلم به – عز وجل –، وهذه الخصوصية من أعظم الأسباب الجالبة للمحبة والشوق إلى الله سبحانه، لأنها من أعظم النعم والمنن، والحب ينبت على حافات المنن، والشوق يحصل بشهود الفضل والاختصاص، وإذا كان هذا الاختصاص يتعلق بالعلم بالأسماء والصفات والأفعال، فهو أعظم

(١) قصيدة قافلة الأحزان ، قال أخونا وشاعرنا المفضال عثمان العامري :

١- دماءُ المسلمينَ بكلِّ أرضٍ ... تسيلُ وجرحهُمْ لا يستكينُ
٢- وكالأنعامِ في الليلِ المطيرِ ... بلا راعٍ يدلُّ ولا أمينُ
٣- وأطفالٌ مُمَزَّقةٌ ضحايا ... لها في كلِّ حادثةٍ شجونُ
٤- صغارٌ ما رأوْا يومًا أمانًا ... فبالأحقادِ ترميهُم عيونُ
٥- وجاءوا الدنيا ما عرفوا أبَاهم ... وغابتْ عَنْهمو الأمُّ الحنونُ
٦- أراملُ في البلادِ لها بُكاءٌ ... فإنْ ذهبَ الرجالُ فَمَنْ يصونُ
٧- وأعراضُ الحرائرِ قدْ أُبيحتْ ... ليدعَ ساقَهُ حقدٌ دفينُ
٨- وذُبِّحتْ الرجالُ بكلِّ وادٍ ... ودُمِّرَتْ المعاقلُ والحصونُ
٩- تلوّنتِ المسالكُ بالدماءِ ... وفُتِّحَتِ المحابِسُ والسجونُ
١٠- ففي بغدادَ كَبّلهُم حصارٌ ... وفي الأفغانِ يحصدهم أنينُ
١١- وفي الأقصى جبانٌ باعَ أرضًا ... ووعدٌ للإلهِ مضى يخونُ
١٢- فعبّادُ الصّليبِ أتوْا لحربٍ ... وكلُّ الأرضِ تُشجبُ أو تُدينُ
١٣- وعابدٌ عجلهم أمسى هُمامًا ... يُحبَّرُ في الرُّبا وهْو المهينُ
١٤- فهَلْ عادَ التتارُ إلى دياري ... فنامَ القومُ ثبَّتَهُمْ سُكونُ
١٥- أمِ الإيمانُ قدْ أمسى طريدًا ... فمَنْ يَهْدي الطريقَ ومَنْ يُبينُ
١٦- يكادُ القلبُ تحرِقُه البلايا ... يكادُ العقلُ يصرعُه الجنونُ
١٧- أهذي دارُنا دارُ السلامِ ... مقرِ خلافةٍ منها الأمين ؟!
١٨- سعى فيها الخرابُ بكلِّ لونٍ ... ودمَّرها لإبليسٍ قرينُ
١٩- نُسائلُكُم أماتَ الحسُّ فينَا ... فنامتْ عَنْ مخازينا الجفونُ
٢٠- نُسائلكُم ودمعُ العينِ جارٍ ... لماذا سكوتُكم هذا المشينُ
٢١- أعزَّ عليكمو نصرُ الثكالى ... فلا يدهٌ تُمَدُّ ولا مُعينُ
٢٢- كأنَّ مُصابَ أندلسٍ دهاكُم ... ودُمِّرَ فوقَ ليْثِكُمُ العرينُ
٢٣ كأنَّ الأمرَ فينا ما عناكُم ... ولمْ يجمعْنَا بالتوحيدِ دينُ
٢٤- كأنَّ الخطبَ فينا صارَ فرْحًا ... يُذَمُّ إذا بكي فيه الحزينُ
٢٥ إلهي أمةُ الهادي تئنُّ ... فدبِّرْ أمرَها أنتَ المعينُ
٢٦- إلهي فلتردِ البأسَ عنَّا ... فدينُك ربَّنا لا لا يهونُ

اختصاص واجتباء يفتح الله به على القلب أنواع السكينة والأمن والطمأنينة والراحة مما هو دقيقة من نعيم أهل الجنة، فنسأل الله النعيم الذي لا ينفد وقرة العين التي لا تنقطع .

رجاء في رحمة الله

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ .

بددت الشكوى إلى الله ظلمات اليأس، وجددت في القلب أنوار الرجاء في رحمة الله ورفع البلاء القديم والحديث، فخاطب يعقوب أبناءه بهذا النداء المحبب : ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ الذي إنما استعمله معهم عندما رأى منهم بعض الرقة في القلوب وبعض الإقبال على الله – سبحانه –، لا حين تكون نفوسهم الأمارة بالسوء مسيطرة ومتوجهة إلى الاستجابة لكيد الشيطان، ولقد كان البلاء الشديد الذي نزل مع شفقتهم على أبيهم من الضعف أو الهلاك والموعظة التي وعظهم أبوهم بشكواه إلى الله ومعرفته ربه سبحانه له أكبر الأثر في انكسار نفوسهم ورقة قلوبهم، فوجه لهم أبوهم نصحه بأن يذهبوا في الأرض باحثين عن أخبار يوسف وأخيه بنيامين، و(التَّحَسُّسُ) يكون في الخير، و(التَّجَسُّسُ) يكون في الشر، هذا هو الغالب، وقد يستعمل (التَّحَسُّسُ) في الشر، كما في الصحيح : « ولا تحسسوا »(١)، فيكون عند ذلك (التَّجَسُّسُ) للغير و(التَّحَسُّسُ) للنفس، وهنا (التَّحَسُّسُ) إنما هو الاستعلام والبحث في الخير، ثم بشرّهم بقرب الفرج ونهاهم عن اليأس من روح الله (أي : إراحته ورحمته) فإنه : ﴿ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وذلك أن الرجاء من أركان الإيمان، وهو من أعمال القلوب الواجبة التي وجود أصلها في القلب ركن من أركان الإيمان، إذا زالت بالكلية زال الإيمان .

ولذا قال الإمام الطحاوي : « والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام »، وروى البزار عن ابن عباس مرفوعًا ورجح ابن كثير وقفه : سئل رسول الله ﷺ عن

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٤٨٤٩) ، ومسلم (٢٥٦٣) ، وأبو داود (٤٩١٧) .

الكبائر، فقال: «الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله»(١)، وروى ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله**» .

والقنوط أشد اليأس، فالواجب على المؤمن مهما اشتدت المحن وزادت البلايا أن يظل مستبشرًا برحمة الله راجيًا فضله وجوده، والشيطان هو الذي يوسوس له ليحزنه ويقنطه من رحمة ربه أرحم الراحمين (٢) .

فليرد كيده وليستعذ بالله من من وسوسته، ويأخذ بما يقدر عليه من أسباب، وينكسر لله – سبحانه – ويتذلل له، فيخبره ربه ويعزه كما فعل بأبناء يعقوب .

---

(١) صحيح : رواه البزار عن ابن عباس ، وابن كثير (١ / ٤٨٥) في تفسير آية ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] ، وقال في إسناده نظر ، والأشبه أن يكون موقوفًا فقد روي عن ابن مسعود نحو ذلك .

(٢) قصيدة « حذار أخي إياك » للأخ الكريم عثمان العامري :

١- حَذار أُخيَّ إيّاكَ منْ الأحزان تغْشاكَ
٢- حذار أُخيَّ منْ ياسٍ ينوحُ على مُحيّاكَ
٣- فإنَّ الهمَّ منفرجٌ وليسَ الربُّ ينساكَ
٤- فلا تُبْد ولا ترفعْ لغير الله شكواكَ
٥- وإنْ أحسنْتَ يا حبِّي فإنَّ اللهَ يرعاكَ
٦- وقلْ أخلصتُ لله ولا تركنْ لدنياكَ
٧- وإنْ تعجلْ إلى اللهِ فبالجنات بشراكَ
٨- فلا تخشَ منْ السيرِ وقرآنٌ بيمناكَ
٩- إذا ما سرتَ في وادٍ فطبْتَ وطابَ ممْشاكَ
١٠- فهلْ تصبو إلى الدنيا وربُّ الكونِ أرضاكَ
١١- بدينٍ خالصٍ يسمو وبالإسلامِ أصفاكَ
١٢- هدى عينيك للحق وبالنورين أحياكَ
١٣- ولو تحيا على السُّنَنِ فما أسمى سجاياكَ
١٤- فهذا الخيرُ منْ ربٍ عظيمٍ قدْ تولاكَ
١٥- هداكَ طريقهُ فضلاً وبالعصماءَ أغناكَ
١٦- فلا يَحزن أخا دَرْبي فإن اللهَ مولاكَ
١٧- إذا ما كنتَ في تقوى وربُّ الناس زكاكَ
١٨- فأبشرْ يا ضيا عيني جنانُ الخُلد مأواكَ
١٩- هو الفوزُ إذَا المولى من النيران نجّاكَ
٢٠- فلا تخشْ ولا تحزنْ إذا ما اللهُ آواكَ
٢١- فموعدكَ على الحوضِ هناك تنال سُقْياكَ
٢٢- بماءٍ باردٍ يحلو رسولُ الله يلقاكَ
٢٣- ملائكةٌ تحيتهم سلامٌ بهم عُقْباكَ

انكسار وضعف

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾ .

ذهب إخوة يوسف إلى مصر، ودخلوا على يوسف في حالة ذلة وضعف ما حصل لهم قبل ذلك أبداً قالوا: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾، وهذا النداء كما سبق فيه إشعار بعزته وذلهم، رغم أنه لقب إلا أنه حق بالنسبة ليوسف، وفي قولهم: ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ أي: الجدب والقحط وقلة الطعام، وما نزل بهم من بلاء بفقد أخيهم مع حزن أبيهم وفقده بصره بسببهم، فيه زيادة انكسار وخضوع وفي قولهم: ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما :الرديء الذي لا يَنْفَق مثل خِلَق الغرائر والحبل والشيء، فليس عندهم بضاعة مقبولة في السوق نافعة، بل الأكياس الخَلقَة القديمة (الجوالات) والحبال، وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان، وقال الضحاك: مزجاة: كاسدة، قال ابن كثير:« وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشيء، فهي بضاعةٌ مردودةٌ لضعف قيمتها، في هذا القول مزيد انكسارٍ وذلٍ، فهم لا يطلبون ما يأتي من الكيل الوافي على سبيل الاستحقاق وبذل الثمن، بل على سبيل الصدقة والإحسان منه لهم والمن عليهم: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أي: أعطنا بهذه البضاعة الكاسدة ما كنت تعطينا قبل ذلك وتصدق علينا برد أخينا، وهم لا يستطيعون مكافأته ورد جميله بل يطلبون له من الله الجزاء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ آل أمر أخوة يوسف بعد الظلم والطغيان والعدوان إلى أن أصبحوا يسألون الصدقة، سبحان الله! يعز من يشاء ويذل من يشاء، أيّ ذلٍ وانكسارٍ أشد من هذا الذي حصل لهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

وإنما طلبوا بانكسارهم ذلك عطية المحسن الكريم الذي علموا إحسانه وجوده، وإذا كان هذا حال من سأل مخلوقًا فرَحِمَه عندها وجَبَرَ كَسْرَهُ، فكيف بمن يسأل بهذا الذل والانكسار أكرم الأكرمين وأجود الأجودين؟ بل الإحسان والكرم لا ينبغي أن يرجى إلا منه، فينبغي على العبد المؤمن أن يدعو ربه مستحضراً ذله وعزة ربه، العزيز حقًا الذي لا تنبغي العزة إلا له، ومتوسلاً إليه سبحانه بما أصابه من البلاء، وأحسنه ما كان في سبيله وما أصاب أهله كذلك، فإن ذلك من أسباب استجلاب الرحمة، لأن الله يلتمس فضله بضعف الضعفاء قال رسول الله ﷺ: « **وهل تنصرون إلا بضعفائكم** » (١)، ويرجى جبره لقلوب المنكسرين غير المعجبين الفخورين، وليقدم في دعائه شهوداً بأن عمله وسعيه هو كبضاعةٍ مزجاةٍ بائرةٍ كاسدةٍ، فلو عامله الله بعدله رد عليه عمله، لما فيه من آفات ظاهرة وباطنة يستحق أن يرد بها، إلا أن طمعه ورجاءه في كرم أكرم الأكرمين الشكور الذي يقبل القليل من العمل ويغفر الكثير من الزلل، هو الذي يدفعه إلى طلب الفضل والمنة والمنحة، وليس أنه يستحق على ربه شيئًا، ومن أكرم من الله الذي يوفى الأجر على عمل كاسد وما فيه من خير؟ هو الذي منّ به على عبده ووفقه له، وهداه وسدده، وألهمه رشده حتى عَلِمَه، وأحبه وأراده وعزم عليه، ونواه وعمله، وهو المسئول أن يقبله صدقةً منه على عبده، وهو الكريم المنان، وقد اشتهرت هنا مسألة وهي هل يجوز أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق عليّ؟ قال ابن كثير: « وقال ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان عن عثمان بن الأسود قال: سمعت مجاهداً سُئل هل يكره أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق عليّ؟ قال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب » أ.هـ.

وهذا القول ليس بصحيح، بل لا كراهة في هذا، لحديث عمر رضي الله عنه في

(١) رواه البخاري (٢٨٩٦) الجهاد والسير بلفظ: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم، وابو داود (٢٥٩٤) الجهاد، والنسائي (٣١٧٩) الجهاد، والترمذي (١٧٠٢) الجهاد، واحمد (١٤٩٦).

صحيح مسلم في سؤاله النبي ﷺ : ما بالنا نقصر وقد أمنا ؟ (يعني قصر الصلوات في السفر الآمن)، فقال النبي ﷺ : « **صدقةٌ تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته** »(١)، وإنما قال إخوة يوسف : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾ لأنهم إنما يطلبون الصدقة من مخلوقٍ لا يملكون مجازاته، فطلبوا الجزاء له من الله سبحانه، فلا يقتضي هذا منع جواز إطلاق أن الصدقة من الله، وبالتالي يجوز طلبها منه سبحانه، والله أعلم .

كان لهذه الكلمات وهذه الحال الشديدة والجهد والضيق والانكسار أكبر الأثر في قلب الكريم الرحيم ذو الصدر الرحب المنشرح المستغني بالله سبحانه عمن سواه وعن الانتصار للنفس، يوسف الصديق عليه السلام، ففاض من هذا القلب ينابيع الرحمة والرأفة والشفقة، فكشف لهم عن شخصيته وأبرز لهم حقيقته .

---

(١) رواه مسلم (٦٨٦) صلاة المسافرين ، والترمذي (٣٠٣٤) تفسير القرآن ، والنسائي (١٤٣٣) كيفية الصلاة في السفر .

صفح وعفو

قال تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام، أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته وبدره البكاء، فتعرف إليهم فيُقال : إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيه شامة، وقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ يعني : كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أي : إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف : « كل من عصى الله فهو جاهل » وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النحل : ١١٩]، والظاهر والله أعلم أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فرّج الله تعالى من ذلك الضيق كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾ [الشرح : ٥– ٦] » أ.هـ.

هذا أوان تحقق وحي الله ليوسف وهو ملقي في غيابة البئر مضطهداً مظلومًا ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ ، ها هو يتحقق بعد عشرات السنين، فوعد الله لا يخلف وإن استبطأه الناس، وتأمل في شرف هذه النفوس وكرمها، فما زاد يوسف عليه السلام

على هذه الكلمة في عتابه لهم رغم شدة الجرم وفداحة الظلم، وما ثَرَّبَ عليهم بعدها ولا قبلها بغيرها، وإنما يتيسر مثل هذا مع كمال الغنى بالله سبحانه ومشاهدة مَنِّه وفضله فلا يجد حب الانتقام إليه سبيلاً .

ووالله إن صاحب مثل هذا القلب الرحب والصدر المنشرح ليجد حلاوة زوال الغل في قلبه، وهذه أيضًا دقيقة من نعيم أهل الجنة : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف : ٤٣]، فالغل وحب الانتقام مؤلم للإنسان، وإرادة أذية الخلق مؤلمة للنفس، وإن كان أكثر الناس لا يفهمون، والمؤمن إنما يصرف رغبته في الانتصار إلى الانتصار لله – عز وجل – إذا خولف أمره وظهرت معصيته، ولا يدع (زبالة) الانتقام للنفس تفسد عليه حال قلبه، فاللهم اشرح صدورنا بالعفو، واملأ قلوبنا غنى بك عمن سواك .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ كان وقع المفاجأة هائلاً عليهم، وهل كان يخطر أو يمكن أن يجول بخاطرهم مجرد احتمال، أن يكون عزيز مصر في ملكه وأبهته هو أخوهم يوسف الذي باعوه رقيقًا في صغره لمن ظنوا أنه يسومه سوء العذاب ؟ فقالوا على سبيل الاستفهام، والاستعظام، والتعجب : ﴿ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ فأظهر لهم أخاه أيضًا في أحسن حال، وليس رقيقًا مستعبداً كما كانوا يظنون، وقوله : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فيه شهود نعمة الله ومنته وفضله بالجمع بينهما بعد الفرقة، وبالتمكين بعد الاستضعاف، وبالثبات على الدين والطاعة، ووجود الألفة والمحبة وغير ذلك مما لا يحصيه أحد، ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهذه قاعدة كلية عامة لكل زمان ومكان ولكل أحد، فيها بيان عاقبة التقوى والصبر والإحسان، فالله سبحانه لا يضيع عملهم ولا أجرهم، وهم من أحسنوا في عبادة ربهم حتى كأنهم يرونه، فيثمر لهم ذلك الغنى بالله سبحانه، فيفيض من قلوبهم على الخلق من حولهم رحمة وإحسانًا وعفوًا وصفحًا ومغفرة .

والتقوى والصبر من أعظم علامات الإحسان، فهو يمتثل الأوامر ويجتنب النواهي ويصبر على ما يصيبه، والناس في هذا المقام أربعة : منهم من لا تقوى له ولا صبر، فهو في غي شهواته، وإذا أصابته مصيبة فهو يئوس "كفورٌ"، وهو أسوأ الأنواع، ومنهم من يتقي عند الرخاء، فإذا أصابته مصيبة فلا صبر له فيجزع ويتسخط، فلا يصلح لمحبة الله سبحانه، ومنهم من عنده جلد وتحمل، ولكنه عند تمكنه من أفجر الناس وأظلمهم، فهو كذلك بعيدٌ عن الله ولا ينجو ولا يقترب إلا من اتقى وصبر، فاللهم اجعلنا من المتقين الصابرين .

وقوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ هنا فقط حصلت التوبة لأخوة يوسف، وأخذوا دواء دائهم القديم (الحسد)، ألا وهو شهود قَسْم الله وتخصيصه وإيثاره من شاء من عباده بما يشاء من فضله، فأقسموا ليوسف بما شاهدته قلوبهم لأول مرة : إنه عطاء الله ومنّه، وقد أرشدهم يوسف إليه في قوله: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فهو لم ينسب لنفسه فضلاً حتى في مقام الثناء، لم يقل : أنا اتقيت وصبرت وأحسنت، بل ذكرها في صيغة العموم والقاعدة الكلية : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾، فأخذوا الدواء فانحل الداء وزال المرض، واعترفوا حقيقةً بالخطيئة، فوجدوا القلب الرحيم الكريم مفتوحًا للعفو والصفح، بلا تكرار اعتذار ولا محاولة إذلال ولا توبيخ ولا تأنيب، بل يقول مؤنسًا وحشة إنكسارهم وخزي انكشافهم: ﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي: لا تأنيب ولا عتب ولا أعير عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم عليه السلام .

لم يعاقب، بل لم يعاتب بعد ذلك، بل وزادهم الدعاء بالمغفرة : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾، ويتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته ليستجيب هذا الدعاء ويفتح لهم باب الرجاء فيقول : ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾، فكما كان هو – سبحانه – في حفظه ليوسف ورحمته به خيرًا حافظًا وهو أرحم الراحمين، فكذلك في قبول توبة

المسيء النادم ومغفرة ذنب المعترف المنيب الراجع إلى ربه هو أرحم الراحمين، ولما كان هذا الرد هو أحسن رد وأكرمه في مثل هذا المقام، وكان أصحاب رسول الله ﷺ خصوصًا المقربين منهم الخبيرين بخلقه ﷺ كعلي بن أبي طالب قد عايشوا قصص القرآن، وأدركوا أثره في النفس والارتفاع بها، كانت هذه النصيحة الغالية من علي رضي الله عنه لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه حين أسلم قبل غزوة الفتح، وكان قبل ذلك من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ رغم أنه ابن عمه، وكان يهجو النبي ﷺ ويؤذيه، وتأخر إسلامه إلى سنة ثمانية، فلقي النبي ﷺ وهو في طريقه لفتح مكة، فكان النبي ﷺ يعرض عنه لما كان يلقي من أذاه، فشكى أبو سفيان ذلك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: « ائته من قِبَل وجهه وقل له: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾، فإنه لا يرضى أن يكون أحدًا أحسن مردودًا منه »، ففعل فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (١)، وكان بعد ذلك يدنيه ولا يحجبه ويقول: **«عسى الله أن يجعل منه خلفًا لحمزة»** .

ما أفقه علي رضي الله عنه وأعلمه برسول الله ﷺ وسجاياه في الكرم والعفو، وحسن الاقتداء بالأنبياء قبله وطلبه محاسن الأخلاق ومعاليها، فكانت نصيحةً أثمرت أحسن الثمار وأزالت آثار وحشة العداوة والتأخر والهجاء، وينبغي لمن سامح أخًا من إخوانه أن لا يعتب عليه بعد مسامحته، ولا يذكر له التثريب بعد ذلك، وإلا كان عائدًا في هبته، وقد قال النبي ﷺ: « **ليس لنا مثل سوء العائد في هبته، كالكلب يعود في قيئه** » (٢)، وإن كان الاستدلال به مشهورًا في هبة الأموال ونحوها، فهو في هبة الحقوق والأعراض والمظالم أولى وأحرى، وتأمل كيف أن

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٣/٤٣-٤٤) من حديث ابن عباس، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الأرنؤوط [انظر زاد المعاد ص (٣٥٢،٣٥٣) ط. الرسالة]، وذكره في سنن البيهقي الكبرى حين دخل مكة ﷺ .

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٢٢)، ومسلم (١٦٢٢)، والترمذي (١٢٩٨) .

يوسف عليه السلام وفّى لأخوته بما وعد من عدم التثريب، فإنه لما سجدوا له وذكر أباه برؤياه: ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ فلم يقل: من بعد أن فعل إخوتي ما فعلوا، أو حتى من بعد أن نزغ الشيطان في قلوبهم ما نزغ، أو حتى من بعد ما نزغ الشيطان بينهم وبيني، بل بدأ بنفسه فقال: ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ صونًا لهم من مجرد الحرج والحياء من فعلهم، فنسب الفعل إلى الشيطان وجعله نزغًا منه بينه وبينهم ﷺ.

بشرى الفرج

قوله تعالى : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾ .

قميص يوسف له شأن مع أبيه يعقوب – عليهما السلام –، كان مجيئه إليه ملطخًا بدم كذب معه خبر البلاء بغيابه وفراقه العمر الطويل، ثم كان قميصٌ آخر يحمل معه خبر الفرج من كل الجهات، وهي والله مناسبةٌ جميلةٌ من يوسف عليه السلام، وهو يعلم أن قميصه الذي نزعه منه إخوته يوم أخذوه من أبيه كان وصوله إليه سبب حزنه وغمه، فأراد أن يكون قميصه سبب الفرح والسرور، ويظهر أنه كان بوحيٍ، لأنه قال : ﴿ يَأْتِ بَصِيراً ﴾ وذلك أنه قد عمي من شدة الحزن والبكاء على يوسف عليه السلام، كما قال تعالى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ، فرَدّ بصر يعقوب بقميص يوسف – عليهما السلام – معجزةٌ لهما، وآيةٌ من آيات الله تعالى، وعلامةٌ على مدى حب يعقوب ليوسف – عليهما السلام –، وحق له والله أن يحبه، ولو لم يكن ابنه الذي رباه، فكيف وهو ابنه الحبيب المجتبي من رب العالمين ؟ وقوله تعالى عن يوسف : ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : جميع أبناء يعقوب وزوجاتهم وأبنائهم، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي : خرجت من مصر، ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي : تنسبوني إلى الفند، وهو الكبر الذي

معه زوال بعض العقل، روى عبد الرزاق عن ابن عباس قال: « لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام ».

وما ذكره ابن كثير – رحمه الله – عن الحسن وابن جريج: أنه كان بينهما ثمانون فرسخًا، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة، فغير ظاهر في الأمرين، والظاهر أنه من الإسرائيليات، فالمسافة بين مصر وأرض كنعان قرب بيت المقدس أكبر من ثمانين فرسخًا، والمدة أقل من ذلك، والله أعلم.

وفي قوله: ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير: تسفهون، وقال مجاهد والحسن: تهرمون، أي: تنسبون إليَّ الهرم، وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لفي خطائك القديم، وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمةً غليظةً لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله عليه السلام، وكذا قال السدي. أ.هـ. من ابن كثير باختصار.

سبحان الله! كم يحب يعقوبُ يوسفَ – عليهما السلام – ؟ ريحه من هذه المسافة الطويلة الذي هاج من قميص له، يريحه ويسره ويفرحه، شأن الحب شأنٌ عجيبٌ، ورحمة الله بعبده المؤمن وبعثه له ما يبشره بما يسره من قرب فرجه بعد نجاحه في المحنة وصبره على المصيبه يدركها من وجد أثر القرب، وعلم من أسماء الله وصفاته وأفعاله ما لا يعلمه الناس، وهذا ما يكاد معه قلب المؤمن يذوب حبًا وشوقًا إلى ربه الرحمن الرحيم، القريب المجيب، البر الودود، صادق الوعد لا يخلف الميعاد، الغالب على أمره الفعال لما يريد، الذي يحب عبده المؤمن ويكره مساءته، ذو الفضل العظيم والطول والمن، العزيز الحكيم، الكريم الحليم، يبشر عباده المؤمنين بعاجل البشرى في الدنيا، ليدلهم على ما أعد لهم عنده إذا وفدوا

عليه من قرة الأعين ولذة الأنفس، وأنواع الإكرام والإنعام والود والإفضال، اللهم إنا نسألك من فضلك ورحمتك، فإنه لا يملكها إلا أنت .

ويعقوب عليه السلام يعلم أن بنيه الموجودين حوله في وادٍ آخر، فلن يقبلوا مثل هذا الوجد ولن يصدّقوا بحقيقته، وقد كان، فقالوا لأبيهم نبي الله تلك الكلمة الشنيعة الدالة على جهلهم وسوء أدبهم وعدم معرفتهم بما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ، ونسبة الضلال والخرف والسفه وزوال العقل للأنبياء كفرٌ والعياذ بالله، ولولا الجهل لكفروا، ولكنهم معذورون بجهلهم، وإن كانوا آثمين فيما قالوا لتقصيرهم في حق نبي الله يعقوب، أبيهم عليه السلام .

ولكن سرعان ما تحقق وجد يعقوب عليه السلام، ووقع ما استبعدوا وظنوه ضلالاً قديمًا في حب يوسف عليه السلام، فجاء البشير وهو البريد الذي استعجلوه للوصول حاملاً أجمل بشرى : وجدنا يوسف، وهو العزيز على ملك مصر، ووجدنا بنيامين معه معززًا مكرمًا حرًا، وعائد أخوهم الثالث روبيل ومعه قميص يوسف الذي ألقاه على وجه يعقوب عليه السلام، فعاد بفضل الله بصيرًا ليبصر به ولديه الحبيبين .

فسبحان الله يأت الفرج من كل ضيق، لقاء الغائبين ورد البعيد، ونعمة التمكين والملك ليوسف، ووجود السعة بعد القحط والشدة، ما أروع جزاء الصبر والتقوى، وما أجمل عاقبة الشكوى إلى الله ورجاء فضله وروحه ورحمته، وما أحلى الإيمان به واليقين لوعده وآياته ومشاهدة آثار أسمائه وصفاته وأفعاله، قال ابن كثير – رحمه الله – : « قال مجاهد والسدي : كان الذي جاء بالقميص يهوذا، قال السدي : لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخٌ بدمٍ كذبٍ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرًا، وقال لبنيه عند ذلك : ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أي : أعلم أن الله

سيرده إليّ، وقلت لكم : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾، لذلك قالوا لأبيهم مترققين له : ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي : من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى السَحَر، وروى ابن جرير عن محارب بن دثار قال : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد، فيسمع إنسانًا يقول : اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا سحر فاغفر لي، قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال : إن يعقوب أخرّ بنيه إلى السَحَر بقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ » أ.هـ. كلام ابن كثير .

وهذه الآية دالة على مشروعية طلب الدعاء من أهل الفضل والدين، حيث طلب أبناء يعقوب من أبيهم أن يستغفر لهم، وهذا توسلٌ مشروعٌ بدعاء المسلم الصالح الحي، وقد خصّه بعضهم بالأنبياء، وفيه نظر، لأن رسول الله ﷺ قد قال لأصحابه عن أويس بن عامر القرني أفضل التابعين : « **فإن استطعتم أن يستغفر لكم، فمروه فليستغفر لكم** »(١) رواه مسلم .

وقال عمر رضي الله عنه **في الاستسقاء** : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك »(٢) ثم أمر العباس رضي الله عنه أن يدعو – وهذا بمحضرٍ من الصحابة ولم ينكر – فكان إجماعًا أو كالإجماع، فلا حجة فيمن كره طلب الدعاء من الصالحين، أوجعله خلاف الأولى إلا أن يقصد به نفع الداعي، كما هو مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمة الله عليه –، فإنه يجعله من باب سؤال المخلوقين، ولا شك أن أبناء يعقوب عليه السلام لم يكن مقصودهم الأول نفع يعقوب عليه السلام، ولا أن مقصود الصحابة الأول نفع العباس،

(١)، (٢) رواه مسلم (٢٥٤٢) (جزء من حديث طويل)، وأحمد (٢٦٨) .

فهذا تكلفٌ ظاهرٌ، لكن الصحيح أن يقيد هذا السؤال بأمر الآخرة، فخلاف الأولى هو ما كان طلب الدعاء بأمر دنيوي، إذ هو خلاف الأولى في دعاء المرء لنفسه، أما طلب الاستغفار وكل أمرٍ ديني أخروي يعين على مقصود العبد من تحقيق العبودية وهو محبوب للرب سبحانه، فأي نقصٍ في هذا ؟ وقد أرشد النبي ﷺ المرأة التي كانت تصرع بالصبر، ولا يدعو لها حتى تكون لها الجنة، فاختارت الصبر، فلما قالت له : إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف، دعا لها، ولم يقل لها اصبري ولا أدعو لك أو ترك طلب الدعاء أولى، لأن التكشف وهتك حرمة العورة لا يحبه الله، وليس بمقصودٍ شرعيٍ، فكان الدعاء به أمرًا دينيًا أخرويًا، فلا ينبغي النصح بترك طلبه من الغير، والله أعلم .

وفي أثر ابن مسعود رضي الله عنه فضل الاستغفار بالسحر، وعليه يدل قوله تعالى : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨]، فهو وقت غنيمة أهل الإيمان والحب الصادق، نعوذ بالله من القسوة والغفلة .

وتجد في هذه الآيات الكريمة مدى تعلق يعقوب عليه السلام بأسماء الله وصفاته في كل أموره : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾، بل لو تأملت كلامه من أول السورة إلى آخرها، لوجدته في معظم كلامه أو كله لابد أن يذكر من أسماء الله وصفاته وأفعاله ما يناسب المقام، فهذه حقيقة الإيمان وهي سعادة الدنيا والآخرة .

لقاء الأحبة

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ .

حان موعد اللقاء، وتحقق وعد الله الصادق، وظهرت عاقبة الصبر الجميل والاستعانة بالله على ما يصفون، قال ابن كثير – رحمه الله – : « يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدومه بلاد مصر، لما كان يوسف عليه السلام قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أُخبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال أن الملك خرج أيضًا لتلقيه، وهو الأشبه (١)، وقد أشكل قوله : ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام : وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، وآوي إليه أبويه ورفعهما على العرش، وردّ ابن جرير هذا وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدي أن يوسف عليه السلام آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾، وفي هذا نظرٌ أيضًا، لأن الإيواء يكون في المنزل كقوله : ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾، وفي الحديث : « من آوى محدثًا » (٢)، وما

---

(١) أظن ابن كثير – رحمه الله – قال إنه الأشبه لأن الملك كان معظمًا ليوسف عليه السلام مطيعًا له ، والملك سجاياه وأخلاقه من أول القصة أخلاق كريمة ، ويعرف لأهل الفضل قدرهم ، فلا يظن أن يتخلف عن استقبال نبي الله يعقوب ، خاصة مع قول مجاهد أنه قد أسلم ، وهو الظاهر .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١٨٧٠) ، ومسلم (١٩٧٨) ، والنسائي (٤٤٢٢) ، وأحمد (٩٥٧) وتكملة الحديث : « فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه فآواهم إليه : ادخلوا مصر، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط » أ.هـ.

والظاهر ما قاله ابن جرير، لأنه أقرب إلى ظاهر القرآن، ثم إن الإيواء يمكن أن يكون في منزل مؤقت كخيمةٍ أو نحوها، تعد للملك ومن معه إذ ينتظرون القادمين، وأما ما ذكره ابن كثير أيضًا من أن الله رفع عن أهل مصر بقية السبع السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليه السلام عليهم، كما رفع عن قريش بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ : « **اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف** » (١) لما تضرعوا واستشفعوا لديه، فهذا أيضًا ليس بظاهر، لأن يوسف عليه السلام أخبر بتأويل رؤيا الملك، وهذا خبرٌ وليس دعاءً ولا وعيداً مجرداً، والأخبار خلفها كذب، وقد أخبر في تأويله أنه يأتي عام بعد السبع السنين المجدبة فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، فمخالفة ذلك بمجرد الأخبار الإسرائيلية لا يجوز، وأما دعاء الرسول ﷺ على قريش، فليس بخبرٍ ولا عندنا دليلٌ على أن الله قد استجابه، كما دعا به رسول الله ﷺ كاملاً، ثم لا نص صريحًا في رفعها عن قريش، والله أعلم .

وقد ذكر ابن كثير عن السدي وابن زيد أن قوله : ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أنهما إنما كان أباه وخالاته، لأن أمه كانت ماتت قديمًا، ورده ابن جرير ونصر القول بأن أمه كانت تعيش، ونصره ابن كثير وهو كذلك، ولابد هنا من التنبيه على أن الآثار الإسرائيلية التي تخالف ظاهر القرآن يجب ردها وعدم قبولها، ولولا وجود أمثال ذلك في كتب التفسير لما كان هناك معنى للاشتغال بها، إذ هذه الأمور كلها مما لا فائدة فيه، ولا يثير معنى إيمانيًا ولا حكمًا شرعيًا .

وتأمل في قوله تعالى : ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ وما يتضمنه من معنى الضم والاجتماع، وما يحتويه ذلك من حلاوة اللقاء وحنان الأمومة والأبوة، ورحمة

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٤٧٧٤) ، ومسلم (٢٧٩٨) بلفظ : **اللهم سبع كسبع يوسف** ، والترمذي (٣٢٥٤) ، وأحمد (٤٠٩٣) .

البنوة بعد طول الغياب، وشهود نعمة الله وفضله في صدق وعده وجميل إحسانه، ووالله إن المرء ليحتاج أن يقف طويلاً أمام هذه اللحظات ليحصل له بها برد اليقين وشفاء الصدر وانشراح القلب، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا من أسباب شرح القرآن للصدور وجلاء الأحزان وذهاب الهموم والغموم، فإن استحضار هذه المشاهد وتذكر كم سبقها من أنواع الآلام، والتي كان معها كذلك من أنواع العبودية التي تحولها لذة وتجعل ضيقها سعة وعسرها يسرًا، فاستمتع أيها المؤمن بهذه المشاهدة العظيمة وداو بها أمراض همك وحزنك، وأبشر بقرب الفرج وتحقق وعد الله سبحانه .

وتأمل أدب يوسف عليه السلام مع ربه – عز وجل – في قوله: ﴿ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾، فقدّم مشيئة الله لأن الأمور كلها بيده، ومشيئته عز وجل هي النافذة، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وعلى العبد أن يمتثل أمر الله في تقديم مشيئته سبحانه بين يدي كل الأمور، كما قال تعالى : ﴿ **وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الكهف : ٢٣–٢٤]، فهذا الاستثناء درك للحاجة وسبب لحصول المقصود، كما قال النبي ﷺ في شأن سليمان عليه السلام: « **ولو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون** »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ أي : على سرير ملكه، أجلسهم معه عليه إكرامًا لهما، وفي هذا بر الوالدين وتقديمهما، وقوله تعالى: ﴿ **وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا** ﴾ أي : أبواه وإخوته جميعًا الأحد عشر، وكان هذا السجود سجود تكريم، وكان مشروعًا لمن قبلنا حتى جاء شرعنا بنسخه، وجعل السجود لله وحده لا شريك له، فسجود التكريم كان مشروعًا لمن أمر الله بسجود غيره له، ما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وهو عبادةٌ لله سبحانه إذ هو امتثال أمره، وتكريمٌ

---

(١)متفق عليه : رواه البخاري (٦٦٣٩)، ومسلم (١٦٥٤).

للمسجود له، وكان جائزًا للكبراء والسادة ونحوهم إذ لم يكن منهي عنه، أما في شرعنا فقد جاء النهي عنه، ولم يعد مشروعًا ولا مباحًا، لكن الواجب السجود لله وحده سجود العبادة، ولذا صار السجود في أهل الإسلام لا يعرف منه إلا سجود العبادة، فلو سجد أحد لأحد غير الله، لكان ظاهره أنه يعبده من دون الله، إلا أن يكون جاهلاً أو متأولاً أو مكرها، أو نحو ذلك من موانع التكفير .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « وفي الحديث أن معاذًا قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: « **ما هذا يا معاذ؟!** » ، فقال : إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال : « **لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، لعظم حقه عليها** » (١) أ.هـ.

وقوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا** ﴾ يعني : رؤياه وهو صغير، حيث رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رآهم له ساجدين، فالشمس : أبوه، والقمر : أمه، والأحد عشر كوكبًا : إخوته، هذا هو الصحيح إن شاء الله، وقيل : الشمس : أمه، والقمر : أبوه، وليس بظاهر، لأنه مراعاةٌ للتذكير والتأنيث المجازي، وترك للمعنى الأهم وذلك أن أباه عليه السلام هو الذي نوره كالشمس، وإنما كان النور لأمه من جهة أبيه عليه السلام .

ومعنى التأويل هنا ليس التفسير، لأن التفسير كان معلومًا، وإنما المقصود : وقوع المخبر به في هذه الرؤيا، وهو سجود أبيه وأمه وإخوته له، فإن تأويل الخبر وقوع المخبر به كقوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الأعراف : ٥٣] أي : يوم يقع ما أخبر

---

(١) صحيح : رواه أبو داود(٢١٤٠) ، وأحمد(١٨٩١٣) عن معاذ ، وابن ماجة(١٨٥٣) النكاح ، والترمذي(١١٥٩) عن أبي هريرة ، والحاكم عن بريدة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٩٢٩٤) .

الله به من القيامة، ولقد كانت الرؤيا متضمنة خبراً، فلما وقع الخبر كان هذا تأويل الرؤيا، وهو ما آل إليه أمرها، فتأويل الكلام : هو ما يصير إليه في حاله الثاني، فتأويل الأمر : فعل المأمور به، وأما الرؤيا فيطلق تأويلها على أمرين : —

الأول : تفسيرها وبيان حقيقة ما تدل عليه .

الثاني : وقوع ما دلت عليه الرؤيا .

فتأويل رؤيا يوسف عليه السلام على المعنى الأول : هو أن المقصود بالشمس والقمر والكواكب هم أبوه وأمه وإخوته، وأنهم يسجدون له .

وتأويلها على المعنى الثاني : وقوع ذلك بالفعل، وهو المقصود في هذه الآية الكريمة، والله أعلم .

وتأمل أدب يوسف مع أبيه — عليهما السلام — في قوله : ﴿ **يَا أَبَتِ** ﴾ التي سبق أن بينا ما فيها من انكسار الرحمة وإظهار المحبة والاحترام والتقدير في مقابلة سجوده له، فهو يعلم أن السجود الذي شرع لهم هو تكريم من الله له بحكم الملك والنبوة، لكنه يعرف فضل أبيه وقدره ومنزلته وما ينبغي له أن يعامله به من التوقير وخفض جناح الذل من الرحمة له، وقوله عليه السلام : ﴿ **يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا** ﴾ فيه نسبة النعمة إلى الله وشهود تفضله به وشهود خلقه أفعال العباد، فالذي جعلهم يسجدون له، هو الله — سبحانه — ولم يقل يوسف عليه السلام « قد تحققت » مثلاً أو نحو ذلك، كعادة أكثر الناس في مثل هذا المقام وغيره، ينسون نسبة الفضل إلى الله وربما نسبوه لأنفسهم أو لغيرهم، وأنت تلاحظ هنا أن يوسف عليه السلام نسب كل الأفعال إلى الله — عز وجل— فقال: ﴿ **قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا** ﴾ ، وقال: ﴿ **قَدْ أَحْسَنَ بِي** ﴾ فنسب الإحسان إلى ربه، وقال: ﴿ **إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ** ﴾ فنسب الإخراج إليه، ولم يقل خرجت،

وقال : ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ فنسب المجيء بهم إلى الله، ولم يقل جئتم، وختم الكلام بذكر لطفه ومشيئته وعلمه وحكمته، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن دائمًا ينسب النعم والفضل لمالكها وخالقها ومسديها - سبحانه وتعالى- .

وتأمل في قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أنه ذكر ربه باسم الربوبية (الرب) مضافًا إلى ضمير المتكلم ﴿ رَبِّي ﴾ ، وذلك لأن إصلاح ربه له منذ نشأته إلى ملكه إصلاحٌ خاصٌ وتربيةٌ خاصةٌ وكفايةٌ خاصةٌ يجدها يوسف عليه السلام ويشهدها من كل قلبه، فأنسب شيء للمقام أن يقول : ﴿ رَبِّي ﴾ ، والرب : هو المصلح لشأن غيره، والخصوصية هنا ظاهرة، والله أعلم .

وفي قوله : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ دليلٌ على أن السجن بلية، والإخراج منه إحسانٌ عظيمٌ من الله - سبحانه -، رغم أن السجن كان سُلّمًا للملك ليوسف عليه السلام، لكنه في نفسه بلاء لا يُطلب ولا يُتمنى، ولكنه يصبر عليه، ويحتسب عند الله إلى أن يقع الإحسان من الله بالفرج والخروج، نسأل الله أن يفك أسر جميع أسرى المسلمين، وأن يحسن بنا وبهم ويخرجهم من السجون الظالم أهلها، وأن يجعل لنا من لدنه وليًا، وأن يجعل لنا من لدنه نصيرًا .

وفي قوله : ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ دليلٌ على أن الحياة في القرى والمدن من النعم، وأن الإنسان لا ينبغي أن يختار السكنى في البادية والصحاري إلا عند الضرورة من انتشار الفتن ونحو ذلك، فإن غلظ حياة الصحراء تؤثر على سلوك الإنسان وقسوة قلبه في الغالب إلا من رحم الله، وفي الحديث الذي حسنه الترمذي : « **من سكن البادية جفا** » (١)، وفي الحديث الآخر في عد الكبائر : « **والرجوع أعرابيًا بعد الهجرة** » (٢) .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٢٥٦) ، والنسائي (٤٣٠٩) ، وأبو داود (٢٨٥٩) ، وأحمد (٣٣٥٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » .

(٢) صحيح : رواه النسائي (٥١٠٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥) .

ولذا كان الرسل من أهل القرى لا من أهل البوادي كما سيأتي، والله أعلم، قال ابن جريج وغيره : كانوا أهل بادية وماشية، وقال : كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام .

وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ أدبٌ رفيعٌ ووفاءٌ بالوعد الذي وعد به إخوته : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾، فجعل ما فعله إخوته به نَزْغًا من الشيطان، وقدّم نفسه أولاً تأنيسًا لهم وإزالة لجرح النفوس في هذا المقام، وما أحسن نسبة ما حدث إلى الشيطان بعد توبتهم ورجوعهم إلى الله سبحانه والاعتراف بخطيئتهم، وفي هذا أثر التربية الإيمانية في الصغر، فأبوه في صغره حين نهاه أن يخبر بالرؤيا إخوته فيكيدوا له كيداً، بَيَّنَ له أن كيدهم إنما يكون بوسوسة الشيطان فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، فظلّت هذه الكلمة في نفس يوسف عليه السلام، فذكرها في هذا الموقف، ونسب فعل السوء إلى الشيطان ونزغه، وهذا أمر لابد أن يظل من المرء على بال حتى لا يغفل عن عداوة الشيطان، ولا يسمح لأحداث وقعت بينه وبين إخوته أن تبقى روح الحقد والانتقام إذا استشعر أنهم هم الذين فعلوا به، فأما إذا استحضر أنه نزغ الشيطان، وأنه وأخواته صف واحد في محاربته، كان ذلك الفكر بهذه الطريقة من أعظم أسباب عودة الألفة وزوال العداوة .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ إن القصة مليئة بأنواع اللطف الخفي والأسباب العجيبة لحصول ما قدّره الله، التي في بدايتها يظن الظان أنها تؤدي إلى نتائج أخرى عكس ما وقع، فقد جعل الله إلقاء يوسف عليه السلام في الجب إراحةً له من هم وغم حسد إخوته، وجعل بيعه رقيقًا الذي ظاهره الذل والهوان تمكينًا له في الأرض في حياة رغيدة هنيئة بعيداً عن قسوة البادية وجفاء الإخوة، وجعل

السجن طريقًا إلى ملكه ومكانته، وجعل مكر إخوته سببًا لفشلهم فيما أرادوا، وجعل الكرب الذي أصاب يعقوب عليه السلام وتضاعف عليه سببًا في الفرج، وجعل القحط والجدب الذي أصابهم سببًا للسعة والرخاء والعافية، وقدّر سبحانه من الأسباب لما يشاء ما تعجز العقول عن إدراكه، فاللطف فيه معنى الخفاء مع الإحسان والتفضل، فالله لطيف بعباده يرزقهم من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون، ويَمُن عليهم بفضله من حيث لا يشعرون، بل من حيث يظنون أحيانًا أنه حرمان وضرر، فإذا هو نفع وعطاء وخير .

فاللهم نسألك بلطفك وعفوك وكرمك أن ترزقنا النظر إلى وجهك، ومرافقة أنبيائك وأوليائك، وأن ترزقنا نعيم قربك، وأن تنور قلوبنا بحبك ومعرفتك وخشيتك، وأن تجعلنا من عبادك المخلصين .

ثم ختم يوسف عليه السلام كلامه مع أبيه بذكر الاسمين الكريمين من أسماء الله الحسنى اللذين ذكرهما له أبوه في صغره حين قص عليه رؤياه، فنسب كل خيرٍ إلى الله، وختم كلامه بقوله : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ فقال يوسف عليه السلام في خاتمة كلامه : ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ .

نعم والله، إنه هو العليم بمصالح عباده ولا يعلمونها، العليم بعواقب الأمور ولا يعلمونها، العليم بمن يستحق العطاء والإكرام والإنعام فيجتبيه ويعلمه ويتم نعمته عليه، العليم بما في قلوب عباده من الخير والشر وما يناسب كل عبد فيوفق كل عبد لما يناسبه، وهو الحكيم الذي أحكم الأمور كلها فهي في غاية الاتقان في خلقه وشرعه، الحكيم فهو الذي لا يشرع ولا يقدر شيئًا إلا لحكمة ومصلحة محبوبة له، حتى ولو تضمن القدر شيئًا مكروها له، لكنه يفضي إلى محبوب له أعظم مما لو قدر عدم المكروه فلا يحصل هذا المحبوب .

الحكيم في وضعه الأشياء في مواضعها التي يستحق الحمد عليها حتى أهل النار إذا دخلوا النار لا يستطيعون إلا أن يشهدوا حكمته فيكون حمد الله في قلوبهم لا يملكون غير ذلك، والاقتران بين الاسمين: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يفيد كمالاً ثالثًا على كمال كل منهما، فهو أحكم الأمور ووضع لها عللها ومصالحها وحكمها بعلمه الموصوف به أزلاً سبحانه وبحمده، فاللهم لك الحمد كما تقول وخيراً مما نقول، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، إنك أنت العليم الحكيم .

قال ابن كثير – رحمه الله – :

« قال أبو عثمان النهدي عن سلمان : كان بين رؤيا يوسف عليه السلام وتأويلها أربعون سنة، وعن الحسن قال : كان منذ فارق يوسفُ يعقوبَ – عليهما السلام – إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبدٌ أحب لله من يعقوب، وقال محمد بن اسحاق : ذُكِر – والله أعلم – أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة أو نحوها، وأن يعقوب عليه السلام بقى مع يوسف عليه السلام بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه » أ.هـ. وقد سبق عدم فائدة التحديد، وإلا لبيَّنه الله ورسوله ﷺ، إلا أن الأشبه من هذه الأقوال، قولان: ثمان عشرة، وأربعون، والله أعلم .

ثم التفت يوسف من الكلام مع أبيه إلى الثناء على ربه – عز وجل – ودعائه، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه عليه في تحقيق غايات أعلى بعد أن تحقق له كل ما يريد فقال تعالى عنه :

دعاء وتضرع

قوله تعالى : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾ .

يتوسل يوسف عليه السلام إلى ربه سبحانه باسم الربوبية المضاف إلى ضمير المتكلم : ﴿رَبِّ﴾، وبشهود إيتائه إياه الملك وتعليمه من تأويل الأحاديث، فهو توسلٌ إلى الله بفضله وإنعامه على عبده، وتوسلٌ بشهود العبد ذلك وثنائه على الله به واعترافه بالنعمة، وهذا من أسباب قبول الرب لدعاء عبده وشكره لعمله، ثم توسل إلى الله بأنه فاطر السماوات والأرض أي : خالقهما على غير مثالٍ سابقٍ، وهذا يقتضي كمال ملكه ونفوذ أمره في السماوات والأرض، وإن شهود ملكوت السماوات والأرض لهو من أعظم أسباب حصول اليقين، ثم توسل إليه بأنه وليه في الدنيا الذي تولاه بنعمه وإكرامه وتوفيقه وإعانته، وهو الذي أخذ بقلبه إليه وملأه بحبه والإنابة إليه، وهو الذي تولاه باجتبائه واصطفائه بالنبوة، وهو الذي تولاّه فقرّبه إليه، ومعنى الولاية فيها معنى القيام بالأمر، ومعنى القرب والمحبة، وهو وَلِيُّه أيضًا في الأخرة، فهو لا يريد سواه، ولا يتوكل على سواه، ولا يعد لفاقته وحاجته في دنياه وأخراه سواه – عز وجل –، وهو الذي يرجو تَوَلِّيه إياه بإدخاله الجنة في الآخرة، كل هذه التوسلات لتحصيل أعظم مطلوب : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، إن نعمة الإسلام هي والله أجل نعمة، وبغيرها ما كانت تحصل للعبد نعمة دينية أو دنيوية، إن راحة قلب المسلم وسعادته الحاصلة في الدنيا والمرجوة في الآخرة إنما كانت وتكون بنعمة الله بالتثبيت على هذا الدين، إن الملك والعلم وغيرهما من نعم الدنيا لا يمكن أن تُسعد الإنسان إلا مع نعمة الله بالإسلام، وكم أُعطى أناس من الملك وشقوا به ولم

يسعدوا، وكم أُعطى أناس من العلم وشقوا به ولم يسعدوا، وإنما النعمة الحقيقية هي نعمة الإسلام، تذكر في هذا الموطن أخي المسلم نعمة الله علينا بالإسلام التي ذكّرنا بها فقال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣]، فسوف تشعر أن أعظم مطلوب لك هو أن تظل مسلمًا إلى أن يتوفاك الله عليه، لتتم عليك النعمة في الدنيا والآخرة، والإسلام لله هو أعظم حظٍ يعطاه عبد، وهو حظه من ربه -عز وجل-، وهو يفتح له باب حظٍ آخرٍ عظيمٍ من أسباب النعيم، وهو صحبة الصالحين ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾، ووالله إن صحبة الصالحين في الدنيا من أسباب السعادة فيها، وسبب لذوق حلاوة الإيمان، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « **لولا ثلاث لما أحببت البقاء، لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقي أطايب الثمر** »، وعن معاذٍ رضي الله عنه أنه قال عند موته: « **اللهم إنك تعلم أني لمن أكن أحب البقاء لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر** »، ولولا ما في صحبة الصالحين من الخير الذي لا يدرك بغيرها لما أمر الله بها نبيه ﷺ بها مع من هو أدنى منه، وإنما أنعم الله عليه بالإسلام به ﷺ فقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨]، وصحبة الصالحين من نعيم أهل الجنة قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

وقال إبراهيم عليه السلام وهو خير البرية بعد النبي ﷺ: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٣]، وقال النبي ﷺ في احتضاره: « **اللهم**

في الرفيق الأعلى » (١).

وفي الحديث القدسي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« إن لله ملائكةً سيارةً فضلاء يتتبعون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذِكْر قعدوا معهم وحفّ بعضهم بعضًا بأجنحتهم ، حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا تفرّقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، فيسألهم الله عز وجل – وهو أعلم – من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك ، قال : وماذا يسألوني ؟ قالوا : يسألونك جنتك ، قال : وهل رأوا جنتي ؟ قالوا : لا أي رب ، قال : فكيف لو رأوا جنتي ؟ قالوا : ويستجيرونك ، قال : ومم يستجيروني ؟ قالوا : من نارك يارب ، قال : وهل رأوا ناري ؟ قالوا : لا ، قال : فكيف لو رأوا ناري ؟ قالوا : ويستغفرونك ، فيقول : قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا ، قال : فيقولون : رب ، فيهم فلانٌ ، عبدٌ خطاءٌ ، إنما مر فجلس معهم – وفي رواية : ليس منهم إنما جلس لحاجة – ، فيقول : وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » (٢) .

[رواه البخاري ومسلم] .

فإذا كانت مجالسة الصالحين تمنع الشقاء فكيف يفرط فيها ؟! فإنهم لما قرت أعينهم بالله ، قرت بهم كل عين ، وأنس بهم كل مستوحش ، وفرح بهم كل حزين ، وأمن كل خائف ، واطمأن كل مضطرب ، وإذا كان كلبٌ قد صحب الصالحين – أصحاب الكهف – ، فذكر معهم في كل موضع وصار ثامنهم ، فكيف بمؤمن يصحب المؤمنين ؟! فكيف بصحبة الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ؟ إذا كانت مصاحبة الأعلى للأدنى مأموراً به ، فكيف بمصاحبة الأدنى للأعلى ؟ وما أجمل قول قتادة في هذا الموضع عن يوسف عليه السلام : « لما جمع الله

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٤٤٣٦ ، ٤٤٤٩) المغازي ، ومسلم (٢١٩١) ، وأحمد (٢٤٤٢٥) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) الذكر والدعاء والتوبة ، واللفظ له .

شمله، وأقر عينه، وهو يومئذٍ مغموسٌ في نعم الدنيا وملكها ونضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله »، وذلك أنه تذكر أن كل لقاء في الدنيا فلا بد من موت وفراق بعده، كما في الحديث : « **يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه** » صحيح، فطَلَبَ يوسف عليه السلام الموت على الإسلام، واللقاء الذي لا فراق بعده عند الله –عز وجل– بصحبة الصالحين .

فمهما فاتك أخي المبتلي بالبعاد عن الأهل والأحباب، فتذكّر أن هناك لقاءً لا فراق بعده مع الصالحين عند الله، فاعمل لذلك، ومهما أتاك أخي المبتلي بصحبة الأهل والأحباب – وهو ابتلاءٌ بالخير – فإياك أن تطمئن إليه، واطلب ما هو أعلى وأدوم : ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ .

فائدة : تأمل في قوله عليه السلام : ﴿ **وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ** ﴾ فـ ﴿ **مِن** ﴾ هنا للتبعيض، رغم أنه ما عرض عليه – في سياق قصص القرآن – رؤيا إلا أولها، وقال لصاحبيه في السجن : ﴿ **لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ** ﴾، ومع ذلك فلا بد أن يستحضر العبد أنه لا يعلم كل شيء، بل لا يعلم إلا ما علمه الله، فكل واحدٍ من البشر يعلم أشياء ويجهل غيرها، والمقام مقام تضرعٍ وانكسارٍ لله سبحانه، وحقيقٌ به أن يذكر ﴿ مِن ﴾ التي تفيد التبعيض، بخلاف ما لو حُذِفَتْ، فقال مثلاً : « وعلمتني تأويل الأحاديث » لكان خلاف الحقيقة في عدم الإحاطة بكل التأويل، وخلاف الأدب في هذا المقام، والله أعلم .

قال ابن كثير – رحمه الله – في هذه الآيات :

« هذا دعاءٌ من يوسف الصديق عليه السلام، دعا ربه – عز وجل – لما تمت نعمة لمّ الشمل عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه – عز وجل – كما أتم نعمته عليه في الدنيا، أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه، قاله الضحاك : وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوته

من النبيين والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع إصبعه عند الموت ويقول: « **اللهم في الرفيق الأعلى ثلاثًا** » (١)، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقض عمره لا أنه سأله ذلك منجزاً » أ.هـ.

وهذا هو الظاهر من السياق، لأنه ذكره عقب ذكر سجود أبيه وأمه وإخوته له وكلامه مع أبيه، فليس فيه ذكر الإحتضار، والله أعلم، وأما الاحتمال الثالث الذي ذكره وهو أنه سأل هذا منجزاً، وكان جائزاً في شريعتهم وغير جائز في شريعتنا، ونقله عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي، فليس في القرآن والسنة بيان أن هذا كان ناجزاً، وأما مسألة تمني الموت فالأحاديث الصحيحة إنما نهت عن تمني الموت لضر نزل بالإنسان، كما في الصحيحين من حديث أنس، قال رسول الله ﷺ: « **لا يتمنيين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان ولا بد متمنيًا الموت، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي** » (٢)، وأما سؤال الموت خوف الفتنة في الدين فلا مانع، كما قال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وفي حديث معاذ في رؤية النبي ﷺ ربه في المنام، وهو حديث اختصام الملأ الأعلى: « **وإن أردت فتنة بعبادك فاقبضني إليك غير مفتون** » (٣)، رواه الترمذي وحسنه، وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد، أن النبي ﷺ قال: « **اثنتان يكرههما ابن آدم يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب** » (٤).

(١) متفق عليه: سبق تخريجه ص(٢٦١).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري(٦٣٥١)، ومسلم(٢٦٨٠)، وابو داود(٣١٠٨)، والترمذي(٩٧١)، والنسائي(١٨٢٠)، وابن ماجة(٤٢٦٥).
(٣) صحيح: رواه الترمذي(٣٢٣٣)، وأحمد(٣٤٧٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٥٩).
(٤) صحيح: رواه أحمد(٢٣١١٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع(١٣٩).

إعجاز القرآن ودلائل النبوة

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ .

بعد أن اكتملت القصة الرائعة بهذا السياق المعجز الذي يستحيل أن يوجد له مثيل، لا في قصص أهل الكتاب ولا في أساطير الناس وقصصهم، مع ما تضمنه من المعاني الإيمانية المتعلقة بتحقيق الإيمان بالله سبحانه وربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالرسل والأنبياء، وبيان صفاتهم الجميلة التي تجعلهم أحب خلق الله إلى خلقه، وغير ذلك من المعاني الإيمانية التي سبق بيان بعضها، تأتي خاتمة السورة معجزةً أخرى في هذه التوجيهات الحكيمة البالغة الحكمة التي تقرر القضايا الكبرى التي يحتاجها الإنسان في سيره في هذه الحياة .

ووالله إن سورة يوسف لمعجزةٌ خالدةٌ باقيةٌ - ككل سور القرآن العظيم - وهو أعظم أدلة نبوة نبينا محمد ﷺ، بدأت هذه التوجيهات الحكيمة بتقرير قضية إثبات نبوة محمد ﷺ، استدلالاً بهذه السورة وما فيها من أنباء الغيب وإثبات وحي الله له ﷺ، وهذا لأن قضية النبوة هي مفتاح كل مسألة بعد ذلك، وهي سبب الانتفاع بهذا النور وهذه الحياة التي يتضمنها القرآن، وإذا لم يفتح قفل القلب بهذا المفتاح ظل ميتًا أعمى، لا يعرف توحيداً ولا إيمانًا ولا نبوة، ولا بعثًا ولا حسابًا ولا جزاءً ولا نورًا على الإطلاق، بل يزيده الوحي الذي هو النور والحياة طغيانًا وكفرًا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة : ٦٤] وذلك لعدم قبول القلوب الميتة المظلمة لأمر نبوة محمد ﷺ، فأغلقت عن أنفسها أبواب الخير والرحمة، واختارت الكفر والشقاء والتعاسة الأبدية .

كانت بداية هذه التوجيهات الإيمانية في خاتمة السورة بإثبات نبوة محمد ﷺ من إخباره بالمغيبات بهذه الطريقة الناصعة مع القطع بأنه لم يكن حاضراً وقت القصة، ولا له علم ولا بكتب الأولين هو ولا قومه ولا هو يستطيع قراءتها لو كان له سبيلٌ إليها، وقد أخبر القرآن بتفاصيل الوقائع وما وقع حتى من خلجات النفوس وأنواع الخواطر واختلاف الأفكار والألفاظ التي استعملت، حتى كأنك حاضر الوقائع تشاهدها وتتأثر بها وتتفاعل معها بأسلوبٍ لا نظير له بالقطع واليقين .

فهذه القصة لدى أهل الكتاب في كتابهم الذي يسمونه المقدس في العهد القديم، فليقارن كل عاقلٍ منصفٍ – ولا أقول فقط كل مؤمنٍ – بين السياقين، وأثر كل منهما في النفس، والمعاني الإيمانية والتفاصيل المطلوبة، وما وقع عليه التركيز من الأمور ليجزم بلا تردد ولا توقف بأنه لا وجه للمقارنة، والله إن الفرق لأكبر مما بين الثرى والثريّا، مع اتحاد مضمون الوقائع في النهاية، وكل هذا من أوضح الأدلة اليقينية على نبوة محمد ﷺ، وفي الآية امتنانٌ على رسول الله ﷺ بإيحاء هذه السورة إليه، وهي والله منةٌ عليه وعلينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « يقرر تعالى لمحمدٍ ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة، نوحيه إليك ونعلمك به يا محمد، لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن

خالفك، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي : وما كنت حاضرًا عندهم، ولا مشاهدًا لهم إذ أجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب وهم يمكرون به، ولكن أعلمناك به وحيًا إليك وإنزالاً عليك، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤]، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص : ٤٤-٤٦] وقال : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [القصص : ٤٥] وقال : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ص : ٦٩ - ٧٠] أ.هـ.

وهذه الآية الكريمة فيها ذمٌّ لمكر إخوة يوسف به، ضمن ما وقع من إعلام النبي ﷺ بهذا المكر، وإرشادٌ إلى النظر في عاقبة هذا المكر الذي هو التدبير في خفاء، ولكن لما كان مكرًا بالسيئات، كان بائرًا رغم ما توهّم أصحابه أنهم في أول أمرهم قد نجحوا في مخططهم، ووصلوا إلى غايتهم ولكن كيف كانت عاقبة الأمر ومآله ونهايته ؟

كآياتٍ كثيرةٍ تؤكد على هذا المعنى، وتُطمئن المؤمنين وهم يتعرضون لأنواعٍ من المكر، يُدبر لهم في الخفاء وهم لا يشعرون، ولكن ربّهم مطّلعٌ عليه وهو محيط به وبأهله، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠]، وكقوله تعالى : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣]، وكقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥٠-٥١]، وكقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٣]،

وكقوله تعالى عن نوح عليه السلام في شكواه قومه إلى الله – عز وجل – : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح : ٢٢] أي : كبيرًا، وكقوله تعالى عن اليهود أعداء المسيح عليه السلام : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤]، وقال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ عن المشركين : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة تبين كيف أن الباطل دائمًا يمكر بالحق ويفشل في النهاية، رغم قوة الباطل الظاهرة وضعف أهل الحق في الأسباب المادية، وما ذاك إلا لأن الله سبحانه يمكر بمن يمكر بأوليائه، ومَكْرُه –عز وجل– صفة كمالٍ لائقةٍ بجلاله وعظمته، منزهٌ عن النقص والظلم والسوء، لا يشبه مكر المخلوقين، وهو خير المكر، وهو إنما يمكر بمن يستحق أن يُمكر به، عدلاً منه سبحانه وحكمة .

وفي هذا ما يُطمئن قلوب المؤمنين، خصوصًا مع ضعف إمكانيتهم في معرفة مكر أعدائهم من الكفرة والمنافقين والظلمة، وفي مواجهته لو عرفوه، مع أن مكر الأعداء شديد : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٦]، فعلى الله يتوكل أهل الإيمان في دفع مكر الماكرين، ويفوضون أمورهم إليه إذ هو بما يعمل الكافرون محيط، ومكرهم في علمه – سبحانه – لا يغيب عنه شيء منه، وهو بصيرٌ به كما قال – سبحانه – عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٤– ٤٥] .

فليبشر المؤمنون بأن تخطيط الكفار لهم لن يثمر ثماره، ولن يؤدي إلى نتائجه، ولن تتحقق أهدافه، فلله المكر جميعًا، يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار، ومن أعظم دليلٍ على ذلك ما وقع في قصة يوسف عليه السلام في مكر إخوته به، وكيف كان عملهم في باطن الأمر عملاً لرفعة

يوسف عليه السلام ونجاته من شر حسدهم وبغيهم، وكيف كان مكر امرأة العزيز والنسوة سببًا لعزّه وملكه من حيث أرادت ذلّه وسجنه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ ، وهو القدوة الحسنة لكل الدعاة بعده، عن عدم إيمان أكثر الناس، وهذه مسألةٌ عظيمة الأهمية في نفس الداعي، ومرحلةٌ مهمةٌ لابد أن تمر بها دعوة الحق، لها مصالح جمة وحكم بالغة، من أهمها : تحصيل عدم الزهد في القلة، وعدم الاغترار بالكثرة، وعدم بناء الأمور على الكثرة، قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٠]، وقال عن نوح : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠]، فلابد أن يوطن الداعي نفسه على أن عليه العمل، وليس عليه النتائج، عليه البلاغ عن الله وعن رسوله ﷺ ، وليس عليه الهداية .

ومن حِكَم ذلك وفوائده : تحصيل الإخلاص وإرادة الله والدار الآخرة، وذلك أن من يعمل ولا يجد في الدنيا ثمرة عمله ودعوته من إقبال الناس على دعوته، فإنه لا يؤمل ولا يرجو إلا رضا الله عنه وثوابه .

وإذا علم الداعي أن هناك من الأنبياء من لم يجبه أحد، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا : « **عُرِضَت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد** »(١) متفق عليه، ومع ذلك نالوا أجرهم عند الله كاملاً غير منقوص، فما عليه أن يهتدي الناس، وطالما أنه قام بما عليه من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ولم يكن

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٥٧٥٢) ، ومسلم (٢٢٠) ، وأحمد (٢٤٤٤) .

فظًا غليظ القلب يؤدي إلى انفضاض الناس من حوله، وكانت دعوته نقية بيضاء لم يَشُب الحق فيها شائبة تؤدي إلى انصراف الفطر السليمة عنها، فلا يعبأ بما عليه الناس .

ومن حِكَم ذلك : أن يوقن أهل الإيمان وأهل الدعوة أن النصر ليس من صنعهم، فإنهم قد مرّ عليهم وقت يفر الناس فيه من الحق فأين كانوا هم حينئذ ؟ وما كانوا يملكون لأنفسهم ولا لدعوتهم نصرًا وتمكينًا، بل حتى حمايةً وجوارًا من الأذى، فإذا آوى الله عباده المؤمنين القليل المستضعفين في الأرض، وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات، فعند ذلك لا يقولون : « انتصرنا »، « فعلنا »، « خطّطنا »، « نفذّنا »، بل يقولون : « هذا من فضل الله علينا وعلى الناس »، فيشكرون الله على نعمته ويشهدون فضله بها : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

ومن حِكَم ذلك : أن يُعلم أن هذا الدين لا يقوم بالغوغاء، وأنه لابد من إعداد طائفةٍ مؤمنةٍ تُرَبّى على الحق، وتؤهل لقيادة الأمة، بل العالم، وحين تستكمل سمات الشخصية المسلمة في أفرادها، والتي أساسها تحقيق الإسلام والإيمان والإحسان، علمًا وعملاً وحالاً، ودعوة وصبرًا وثباتًا، وحين تقوى الروابط بين أفرادها حتى يصيروا كجسدٍ واحدٍ، حبًا وتعاونًا وأداءً لفروض الكفاية أو تأهلاً لذلك، فسوف يحصل لها التمكين من الله سبحانه .

أمّا أن نظنّ أن دعوة الإسلام يمكن أن تقيمها الجماهير الغفيرة التي لم ترب التربية الإيمانية، وإنما تحركها عاطفةٌ بلا علم، وحركةٌ بلا بصيرة، وتقليدٌ أعمى للقادة، فهو ظنٌ فاسدٌ جاهلٌ بدعوة الأنبياء وطريقهم، وهذه الجماهير ما أسرع ما تنجرف وراء ناعقٍ جديدٍ ينحرف بها إلى الأهواء المضلة والشهوات المغوية،

فينهار العمل ويقطف الثمرة – إن كان هناك ثمرة – الأعداء والمنافقون وأصحاب المنافع والمصالح الدنيوية .

إنّ الجماهير تدخل في الدين أفواجًا بعد أن يقوم على الأعمدة الراسخة من المؤمنين، إن الزلازل والفتن تكثر في آخر الزمان، فهل يصح أن يبنى بنائنا بلا أعمدة ؟ إن أول زلزال سوف يهدم البناء فوق رؤوسنا، ونكون نحن المقصرين لأننا غرتنا الجموع الكثيرة التي لم تهيئ ولم تربَ على القرب من العلماء العاملين، ولم تختبر صفاتها حتى ينظر في صلاحيتها لتحمل المسؤلية، وإذا لم نستفد من بيان القرآن : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، وسيرة رسول الله ﷺ والأنبياء قبله، فلا نلومنّ إلا أنفسنا، ونسأل الله العافية .

ومن حِكَم قلة المؤمنين في بداية الدعوة : أن يوقن الداعي أن نجاح الدعوة ليس لفصاحته ولا لبلاغته ولا حسن إسلوبه ولا لشدة حرصه، فلن يكون في شيء من ذلك أشد من النبي ﷺ، بل ولا مماثلاً له، بل ولا قريبًا منه، ومع شدة حرصه ﷺ واجتهاده وكمال عبوديته، مرت الدعوة بهذه المرحلة، ولم يؤمن أكثر الناس، ولم يهدي من أحب .

فليوقن الداعي بذلك، وليشهد فقره وعجزه عن هداية الناس، فإذا اهتدى على يديه أحد فلا يقل لنفسه ولا لغيره : « أنا الذي دعوت »، « أنا الذي علّمت »، « أنا الذي ربّيت »، « أنا الذي صبرت وضحّيت »، فهذا باب فسادٍ خطيرٍ في قلب الداعي وقصده، وهو بداية العُجب ثم الكبر والمنّ على الخلق، ثم التنافس على الدنيا باسم الدين والحقد والحسد، نعوذ بالله من ذلك كله .

ومرور الدعوة بمرحلة القلة والضعف يغلق هذا الباب، لأن المؤمن يتذكر هذه المرحلة، ويتذكر حاله فيها من ضعف القوة وقلة الحيلة والهوان على الناس، وأنه لم يكن بيده ساعتها أن يغير هذا الواقع، ولا حتى يعلم متى يتغير – وإن كان

موقنًا بوعد الله -، إلا أنه لا يدري أيكون موجودًا على ظهر الأرض ساعة تغيره، أم يكون قد رحل عنها، فلله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، ووَعْدُ الله هو لمجموع الطائفة المؤمنة، ولا يلزم أن يدرك آحادها ذلك في حياتهم، بل بالقطع يسقط الكثيرون شهداء في الطريق قبل الوصول، فإذا تذكّر المؤمن ذلك لم يغتر بعمله ولا بعلمه ولا بدعوته ولا بجهاده، فكانت هذه المرحلة من أهم وأنفع المراحل للدعوة والداعي .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ بيانٌ لحرص النبي ﷺ على إيمان أكثر الناس، وقد دلت أدلةٌ كثيرةٌ على شدّة حرصه ﷺ على ذلك مثل قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] أي : مهلك نفسك، وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] وقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل : ٣٧] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

وهذا مما ينبغي أن يكون عليه الداعي إلى الله ومعلم الناس الخير، فهدفه الأول أن يهتدي الناس، وأن يعرفوا ربهم ويحبوه، وهو يحرص على ذلك لأنه المأمور به شرعًا، حتى ولو كان يعلم أن القدر قد مضى بغير ذلك، فالحرص على هداية الخلق امتثالٌ للشرع، ولكن شهود القدر يمنع الإحباط واليأس والحزن والكآبة، التي إذا وقعت في نفس الداعي أقعدته عن العمل، وأبطلت دعوته وسعيه، فعليه أن يُبلغ الحق وليس عليه أن يهتدي الناس، عليه أن يحرص على هداية الخلق، وإذا رأى غير ذلك عَلِمَ أن من ورائه حكمةً بالغةً ومصالح باهرة يحمد الرب عليها، فله الحمد على كل حال ولا يُحمد على مكروه سواه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ بيانٌ لأصلٍ عظيمٍ في دعوة

الأنبياء، وهو أنهم لا يأخذون أجراً من الخلق على دعوتهم، وهكذا خُلَّصُ أتباعهم، وهذا من أعظم أسباب استجابة الناس للدعوة، لأنهم فُطروا على أن من لم يسألهم أجراً فهو يحب الخير لهم، فهم يقبلون ما جاءهم به، قال تعالى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون : ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور : ٤٠]، وقال تعالى عن نوح: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ [هود : ٢٩]، وقال عن هود: ﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [هود : ٥١].

وقال في سورة الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب أن كلاً منهم قال لقومه: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠]، وقال - عز وجل - عن مؤمن آل ياسين في استدلاله على قومه في وجوب اتباع الرسل: ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس : ٢١]، ولما كانت هذه القضية عظيمة الأهمية في استجابة الخلق، كان حرص كثير من أهل الباطل على العمل الذي يسمونه (خيريًا) ليتوصلوا به إلى إقناع الناس بدعوتهم الباطلة، ففِرَقُ المُنَصِّرين وجماعاتهم إنما تدخل إلى قلوب الجهلة والسذجة في أماكن متفرقة من العالم بالعمل التطوعي بلا أجر.

وما أكثر الدجالين المشعوذين والسحرة والكهنة الذين يروج أمرهم على العامة لأنهم لا يأخذون أجراً، وإن كانوا عند التأمل يحصلون على مصالح مادية هائلة، بالطرق الخفية من خلال الجاه الذي يحصل لهم بسبب عملهم « بلا أجر »، أفلا يعي هذه الحقيقة أتباع الأنبياء من العلماء والدعاة ؟ ويعلمون أن دعوتهم إنما تجد أبواب القلوب مفتوحة بقدر ما أخلصوا عملهم لله والدار

الآخرة، ولم ينتفعوا من دعوتهم بشيء من حطام الدنيا ؟

وفي الأثر الإسرائيلي : « يا ابن آدم عَلِّم مجانًا، كما عُلِّمت مجانًا »، ولو تأمّلت العلم الحقيقي النافع الذي ورثته الأمة، هل أخذ أحد من أهله على تعليمه للناس أجرًا ؟ فهؤلاء الصحابة ﷺ علّموا التابعين، وكانوا جميعًا يعلّمون مجانًا بلا أجرٍ منهم، ولا من الدولة الإسلامية، وكذا كان جهادهم وفتوحاتهم، ومن بعدهم التابعون وتابعوهم، ومن بعدهم الأئمة والعلماء .

فهؤلاء أئمة المذاهب الأربعة الكبار : أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، ما أخذ أحدٌ منهم أجرًا قط على تعليمه العلم، ولا كانت وسيلة كسبه ومعاشه تعليم الناس، وانظر إلى البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأهل الحديث، كم أخذوا على كتبهم ورحلتهم في طلب العلم، وغيرهم كثيرٌ كثيرٌ تجدها قاعدة مطردة : أن العلم الحقيقي لم يكن قط وظيفة يُتكسب منها .

إنّ أَخْذ الداعي أجرًا على دعوته، والعالم أجرًا على علمه، أو أن تكون هذه وظيفته التي يتكسب منها، يمنع عنه خيرًا كثيرًا، ويُطفيء كثيرًا من النور الذي تحمله دعوته، كما أنه لابد أن يكون تابعًا - بدرجةٍ ما - لمن يدفع له الأجرة، فيفقد قدرًا من استقلاليته، وتجرده في البحث والفتوى والتعليم والدعوة، إن لم يفقده بالكلية فيصير تابعًا للباطل لا متبوعًا في الحق، ويصير - كما نرى علماء السوء في كل زمان - يُفَصِّل الفتاوي على حسب الأهواء، ويتحكم فيه المال والشهرة والشهوة، فيضيع الحق من قلبه ولسانه، والعياذ بالله، ونسأل الله العافية .

فعلى الداعي أن يجتهد أن يكون مصدر كسبه لمعاشه أمرًا آخرًا، غير الدعوة إلى الله وتعليم الناس الخير، ولو تحمّل في سبيل ذلك شظف العيش والفقر، بل ذلك إن شاء الله إن وقع من أسباب قبول دعوته إذا علم الناس عدم إقباله على الدنيا، وإن كان آخذًا ولابد، فليكن من بيت المال، أو من الدولة

المسلمة إذا اضطر إلى التفرغ للدعوة، وتعذر عليه أن يجمع بين وجه للكسب مع دعوته، ويأخذ قدر الكفاية .

فهذا هو الأصل، وليس أن يكون العمل الدعوي وسيلة للتربح والغنى وبناء القصور وفتح الأرصدة والعيش في أبهة الغنى، فإن ذلك من أعظم أسباب انصراف الناس عن الدعوة ولو كانت حقًا، فضلاً عن ضياع الأجر عند الله سبحانه .

ولابد أن نتنبه هنا للفرق بين مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وبين مسألة أخذ الأجرة على الدعوة إلى الله، وإن كان بينهما قدرٌ مشتركٌ، إلا أن هناك فرقًا مهمًا، وهو أن جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن - على قول من يجوزه وهم الجمهور - مشروطٌ بما لم يتعين عليه تعليمه، وكذا غيره من أنواع العلوم، فأمّا ما صار فرض عينٍ على المعلم أن يُعَلّمه، كمن لا يَعْلَم التوحيد ولا يوجد إلا واحد يُبَلِّغُه له، وكمن لا يحسن الصلاة أوقراءة الفاتحة ولا يوجد إلا واحد يقوم بذلك، فلا يجوز له أن يمتنع من التعليم إلا ببذل الأجرة، بل يلزمه أن يبذله له من غير عوض، والله أعلم .

وأكثر مسائل الدعوة من هذا الباب، أما مسألة جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، فمسألةٌ خلافيةٌ، ذهب مالك والشافعي -رحمهما الله - إلى الجواز، استدلالاً بقول النبي ﷺ : « **إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله** »[١] رواه البخاري، وذلك في حديث الرقية بالقرآن، وكذا حديث الواهبة نفسها، قال النبي ﷺ : « **اذهب فقد زوجتكها بما معك من كتاب الله** »[٢] متفق عليه، وفي رواية : « **فعلمها من القرآن** » وهذه أدلةٌ ظاهرةٌ، وذهب أبوحنيفة إلى منع أخذ الأجرة على الطاعات مطلقًا، استدلالاً بحديث أُبي بن كعب قال : علّمت

---

(١) رواه البخاري (٥٧٣٧).
(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٥١٣٢)، ومسلم (١٤٢٥) بلفظ: **مُلّكْتَهَا بما معك من القرآن.**

رجلاً القرآن فأهدى لي قوسًا، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: « **إن أخذتها أخذت قوسًا من نار، فرددتها** » (١)، ورغم المقال الذي فيه إلا أن لها شواهداً تقوي معناه .

وذهب الإمام أحمد إلى عدم جواز المشارطة، وجواز أخذ الجعل من غير مشارطة، ولا شك أن الأحوط قول أبي حنيفة، والأقوى دليلاً قول مالك والشافعي – رحمهما الله تعالى –، وعلى أي حالٍ، فلا شك أن العمل الإسلامي لن يقوم علمًا وتعليمًا ودعوة وجهاداً، إلا على من لا يسأل الناس أجراً وهم مهتدون .

وقوله تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾ يتضمن قضية عظيمة الأهمية بالنسبة إلى فهم المؤمن والداعي، خصوصًا لحقيقة هذا الدين وحدود دعوته، ألا وهي قضية عالمية الإسلام، فهو قد جاء ليعم الأرض كلها، دعوةً في البداية وسلطانًا في النهاية، وقد بعث محمد ﷺ رحمةً للعالمين، ولابد أن تصل الرحمة إلى جميع العالم، لا تختص بقومٍ دون قومٍ، ولا بلدٍ دون بلدٍ، فليس هناك (شئون داخلية) للأمم لا دخل للمسلمين بها، إن دعوة الإسلام هي دعوة النوع الإنساني بأسره، ورسولهم محمد ﷺ رسول إلى الإنس والجن: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

وأرض الإسلام التي يجب على المسلمين أن يحرروها من احتلال عبّاد الطواغيت هي الكرة الأرضية كلها، إن الأرض أرض الله، والخلق كلهم عباد الله، فلابد أن يَعْلوهم شرعه ودينه، فمن شاء بعد ذلك أن يكفر فلا يحق له أن يفرض

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة (٢١٥٨) وصححه الألباني في إرواء الغليل وصحيح ابن ماجة (١٧٥١) عن أبي بن كعب و(١٧٥٠) عن عبادة بن الصامت .

كفره على غيره، وعلى أجيالٍ من البشر قادمة، يعمى عليها الحق، ويلبس بالباطل والخداع الذي يسمى الإعلام، وما هو إلا (تجهيل) وتزوير، حتى يرى الناس الحق باطلاً، والنور ظلامًا، وأشقى طرق الحياة هي الطريقة المثلى كما قالها آل فرعون: ﴿ **إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ** ﴾ [طه : ٦٣]، ولكي يحجب عن الخلق نور الهدى الذي جاء به محمد ﷺ، وليعيش البشر أسوأ – والله – من حياة البهائم، بل حياة الشياطين، فهل من ظلمٍ للبشرية أشد من أن تترك هكذا محرومة من هذا الدين إذا تصور أصحابه – وليسوا حينئذ بأصحابه حقًا – أن دعوتهم قاصرة على أممهم وبلادهم، الأمر الذي لو وجد عند الصحابة ﷺ لما دخل الناس في الإسلام؟

إن عالمية دعوة الإسلام نابعةٌ من حقيقة الغاية التي خلق من أجلها البشر، وهي عبادة الله – عز وجل –، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات : ٥٦] فلا يجوز أن يُحرم الإنسان من هذا الذكر، الذي يتذكر به العالم حقيقة الحياة والوجود والبداية والنهاية، وكيف يعيش الحياة التي أرادها خالقها ومبدعها سبحانه .

إن عالمية دعوة الإسلام نابعةٌ من حقيقة القرآن، وأنه الكتاب الذي أنزله الله ليحكم بين الناس – كل الناس – فيما اختلفوا، وأنه النور المبين الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

إن حق البشرية في الرحمة المهداة ﷺ حقٌ متساوٍ لكل إنسان، مكفولٌ لكل طلبه، مثل الهواء والماء وضوء الشمس، لأنهم لو حرموا هذه الأشياء لضاعت عليهم حياة أبدانهم، وهي حياة يسبقها الفناء ويعقبها الفناء، وأما إذا حرموا من

الوحي الذي جاء به محمد ﷺ خاتم الأنبياء، ضاعت عليهم حياتهم الأبدية التي هي حقيقة الحياة ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : ٢٤]، فضلاً عن ضياع سعادتهم في حياتهم الدنيا، وحصول الشقاء والتعاسة من كل وجه، ولو نالوا كل الشهوات .

وإذا استحضرنا أن سورة يوسف من السور المكية التي نزلت على رسول الله ﷺ وهو محصور بمكة، والدعوة لم تجد بعد الأرض التي تؤوي أصحابها بها، بل همْ قليلٌ مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، ومع هذا تنزل هذه الآية، وأمثالها في القرآن كثير، كقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٧–٨٨] في سورة ص وهي مكية، وقوله : ﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم : ٥٢] في سورة القلم وهي مكية من أوائل ما نزل – نزلت بعد المدثر –، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] في سورة الأنبياء وهي مكية، وكذا قوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] في سورة الأعراف وهي مكية، وإذا استحضرنا ذلك كله علمنا أن هذه القضية بُيّنت أوضح بيان من بداية الدعوة، وفي أول طريقها المحفوف بالمكاره، بغض النظر عن إمكانية التطبيق في هذا الوقت، إنها لابد أن تكون واضحة في أنفس المؤمنين والدعاة، خصوصاً منذ البداية ليستعدّوا بالهمة العالية والعزيمة الصادقة على السير في الطريق الطويل، حتى ولو لم تكن وسائل السير وطرق تحقيق هذا الأمر ظاهرةً في الأفق .

إن هذه الأمة تُهيّئ لتقود العالم بأسره، وللشهادة على الناس، فلابد أن يعرفوا دورهم وحجمهم الحقيقي، وحجم العبء الذي كلفوا به ليعدوا للأمر عدته، إنهم لو ظنّوا أن حدود دعوتهم – مثلاً – جزيرة العرب، لكانت همتهم وبالتالي سعيهم على قدر ذلك، وكذلك لو ظن العاملون في العمل الإسلامي

اليوم أن دورهم هو – مثلاً – مسجدهم أو حيهم أو مدينتهم وقريتهم أو حتى إقليمهم، فستكون همتهم وبالتالي سعيهم على قدر ذلك .

ولكن إذا أيقنوا أن الإسلام هو ذكرٌ للعالمين، وأن دورهم في توصيله – نقيًا كما جاء به رسول الله ﷺ – إلى أهل الأرض كلهم، كانت همتهم وبالتالي سعيهم على قدر ذلك، إن هذا الفهم هو الذي جعل الصحابة رضي الله عنهم ينطلقون في المشارق والمغارب نشرًا للإسلام، وجهادًا لإعلاء كلمة الله، وتعليمًا وتربيةً للأمم والشعوب حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وإنّ هذه الهمة التي جعلت مثل عقبة بن نافع يقف على شاطئ الأطلس بجواده (١)، ويدخل المحيط خطوات مبينًا رغبته في أن يخوض غمار هذا البحر المحيط، لو يعلم وراءه أرضًا ينشر فيها الإسلام ويجاهد في سبيل الله .

وهي التي جعلت مثل صلاح الدين بعد أن ينتصر على الصليبيين يحدث نفسه ورفاقه أنه ينوي أن يركب البحر ليصل إلى عمق بلد الفرنجة، ويجاهد في سبيل الله حتى لا يبقى أحدٌ يعبد غير الله إلا أسلم أو دفع الجزية، قد تكون الإمكانيات في بعض الأحوال تحول دون تطبيق ذلك، لكن لابد أن يظل الشعور بلزوم نشر الإسلام في العالمين كلهم وتذكيرهم جميعًا بكتاب الله حيًا في القلوب مُوَرَّثًا عبر الأجيال، فإن صراع المناهج والملل لا تحسمه القوة المادية، فإن موازين القوى تتغير في لحظات، وإنما يحسمه حال القلوب وعزمها وصدقها وثباتها ويقينها .

إن الإنكسار الحقيقي الذي يريده الأعداء ليس هو كسر الجيوش والأفراد ولو وضعوهم في السجون وكبلوهم بالقيود، وإنما يريدون كسر النفوس والأفكار والمعتقدات، وإنما يريدون أن يركن أهل الإسلام إلى باطلهم، فينطفئ النور الذي

---

(١) قال : « والله يا بحر لو أعلم أن وراءك أرضًا تفتح في سبيل الله لخضتك بفرسي هذا » .

يعمّهم فيحلّ الظلام الذي يريده الأعداء : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠]، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢–٣] .

تحضرني في هذا المقام قضية تتعلق بهذه المسألة، وهي العلاقة بين الإمكانيات والقدرات وبين تغير المعتقدات تبعًا للإمكانيات لا تبعًا للأدلة والبراهين، ونمثل ذلك بمسألتين :–

المسألة الأولى : مسألة جهاد الطلب، فالمسلمون اليوم عاجزون في معظم الأحيان حتى عن جهاد الدفع، فبلادهم محتلة، وشرع الله عن مجتمعاتهم مغيب، ودعاة الإسلام الحق مضطهدون محاصرون، ومع ذلك فهل نقبل في ظل انعدام الإمكانيات إلى هذا الحد الأقوال الباطلة، بأن الإسلام لا يعرف إلا جهاد الدفع، وأنه – مثلاً – يحترم سيادة الدول وعدم التدخل في الشئون الداخلية حتى ولو كانت كافرةً ظالمةً ؟ وأن الإسلام لا يهدف إلى أن تعم كلمة التوحيد الأرض كلها ؟ وأنه يحترم ما يسمونه بالشرعية الدولية، والتي أكلوها حين جاعوا وداسوا بقاياها بأقدامهم ؟ أو أننا ينبغي أن نترك استعمال لفظ (الكفار) في وصف المخالفين، بل نقول (غير المسلمين) وأضعاف هذه المقالات المنكرة التي حقيقتها الركون إلى الذين ظلموا ؟! وهل نقبل أن نوصل إلى الأجيال بعدنا إسلامًا ناقصًا مشوهًا، نُغفل فيه الأدلة القاطعة بأن الإسلام دين الله الذي لا يقبل سواه، وأن القرآن ذكر العالمين ؟ أم نتحمل ونصبر على عقيدتنا وكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ ونوصلها لمن بعدنا، ممن بالقطع واليقين سيكون منهم من يقدر على تنفيذ وإقامة هذه الأوامر وينشر دين الله في الأرض ويجاهد جهاد الدفع وجهاد الطلب بإذن الله تعالى ؟ وإن كان لابد لنا من الانتباه أن عقيدتنا الراسخة بقوله

تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة : ٣٦]، وقوله : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]، لا يعني أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة، ولا نحسب قوة أعدائنا أو أن نذعرهم علينا وعلى أمتنا بأعمال هي أشبه بالأعمال الدعائية التلفزيونية لنقنع أنفسنا أننا نصنع شيئًا، وفي الحقيقة ندمر بلاد المسلمين ونستجلب عليهم أنواع المضار من غير نفع، لأننا لم نسلك الطرق الشرعية، ونأخذ بالأسباب شرعًا وكونًا، ونفهم واجب كل وقت ومهمة كل مرحلة، فلا يحاول من يَحْبُو أن يقفز كل درجات السلم مرة واحدة، وهو بَعْدُ لم يتعلم المشي .

ولابد لنا أن نعلم أن التربية على معاني الإيمان والإسلام والإحسان هي أساس العمل في كل المراحل، وبدونها لن يتقدم المسلمون خطوة واحدة، والله المستعان .

والمسألة الثانية التي نمثل بها : مسألة الجزية، فالمسلمون اليوم ليس لهم في بلادهم كمال السلطان على ثرواتهم، بل أموالهم بأيدي أعدائهم وهم الذين يفرضون عليهم أنواع التصرف في ثرواتهم بما يحقق مصالح الأعداء، ومع هذا الحال الذي لا يتصوّر فيه أن يطبّقوا قول الله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩]، وجدنا من يقول أن الجزية أمر قد مضى عهده وانتهى، وأنه إنما كان لأزمنة خاصة كان التعامل الدولي وقتها مبنيًا عليها، ولهذا أقرها الإسلام، أما الآن فلا يتصور المطالبة بالعمل بها، ولا ينبغي أن نقول عن غير المسلمين في المجتمع المسلم (ذمّيون)، بل هم (مواطنون)، ومقولات أخرى تتنكر لأدلة قاطعة من الكتاب

والسنة وإجماع سلف الأمة وخلفها في كيفية معاملة الكفار في الدولة المسلمة وخارجها، حتى صار في المسلمين من يستحي من طرح هذه الأمور، ويستنكرها غاية الإنكار، وكأنّ في الأمر احتمال للخلاف، أو أنه ليس مذكوراً في القرآن والسنة المتواترة والإجماع القطعي عند أهل العلم .

فنحن وإن عجزنا عن تطبيق ذلك في وقت ما ومكان ما، لكن لابد أن يظل اعتقادنا بلزوم تطبيق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بفهم سلف الأمة لا يزعزع، وإذا عجزنا عن شيء منه فهو يسقط عنا لعدم القدرة، لا لأنه غير لازم أو نقبل فيه التحريف والتبديل، ففرض الجزية على غير المسلمين في الدولة المسلمة أمرٌ لا يحتمل التبديل والتغيير، ولننقل الآيات والأحاديث والوثيقة العمرية لأهل بيت المقدس عند فتحها لمن بعدنا على أنها شريعةٌ حتمية التطبيق عند القدرة على ذلك، كما كان رسول الله ﷺ يعلم صحابته كتاب الله الذي فيه : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ، وربّاهم على أن مهمتهم هي نشر الإسلام في العالم كله، وهم بعد محاصرون بمكة لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم الأذى من المشركين، إن الركون إلى الذين ظلموا هو افتراء غير الحق في دين الله، وليس عليهم العمل بما يعجز المرء أو الطائفة المؤمنة عنه، وإنما يحصل الانحراف والتبديل إذا قبلنا تحت ضغط الواقع أن نتنازل عن شيء من عقيدتنا ومنهجنا ودعوة الحق التي بأيدينا .

فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ويا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك، ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

ومن أهم لوازم صفة العالمية للإسلام أنه لا يعرف فواصل بين الأمم والشعوب، فالناس كلهم في لزوم الالتزام به وفي التفاضل بينهم وفي المجازاة بأعمالهم في الدنيا والآخرة سواء لا تفاضل إلا بالتقوى، ولا فضل لعربي على

عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، فالنعرات القومية والوطنية والقبلية والحزبية وسيادة لون أو جنس على سائر الأجناس كلها من دعوى الجاهلية التي وضعها رسول الله ﷺ تحت قدميه يوم عرفة في حجة الوداع، فيجب أن تكون كذلك عند كل مؤمن ومسلمٍ، لا أن يضعها فوق رأسه، والمجتمع المسلم لا يُبني على صراع طبقاته بين أغنياء وفقراء أو عمال وفلاحين ورأسماليين أو غير ذلك، بل يُبني على الحب في الله للمؤمنين والبغض في الله للكافرين، « **والمسلمون تتكافؤ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم** » (١) كما قال رسول الله ﷺ، وإن كان ذلك لا يعني ظلم الكفار الذميين أو المستأمنين أو المعاهدين، فقد كفل لهم الإسلام حقوقهم بما شرعه الله، وسَنَّه رسوله ﷺ، وطَبَّقه خلفاؤه الراشدون، فهم – بعهدهم – آمنون على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، لا يُكرهون على ترك دينهم طالما وفَّوا بشروط العهد أيًا كان نوعه، كما ذكرنا ذمةً أو أمانًا أو عهداً .

كما أن صفة العالمية تجعل قضية المسلمين في كل أرض قضيةً واحدةً، فهم يتناصرون في الدين على تباعد أقطارهم واختلاف لغاتهم وتباين أجناسهم، وانتهاك حرمة مسلم أو أرض إسلامية في مكان هو عدوان عليهم جميعًا، يجب عليهم التناصر على دفعه وإغاثة المظلوم الأقرب فالأقرب، حتى إذا لم يندفع العدو إلا باجتماعهم جميعًا تعيّن عليهم ذلك، وهذا من أعظم ما يقلق أعداء الإسلام ويحاولون جاهدين تمزيق قضايا المسلمين بين أجناسهم ودولهم، كما اصطنعوا هم تلك الحدود الفاصلة بين أجزاء الأمة الواحدة حتى يقاتل بعضهم مع بعض، وهذه الروح التي تشعر بالمسلمين بحقيقة جسدهم الواحد كما بينه الرسول ﷺ من أعظم ما يُقوى قلوبهم في مواجهة عدوهم، وما أثر مشاركة المسلمين

---

(١) صحيح : رواه النسائي (٤٧٣٤، ٤٧٣٥) ، وأبو داود (٣٧٥١) ، وابن ماجة (٢٦٨٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٦٦) .

إخوانهم في أفغانستان والبوسنة وغيرها في إحياء قضاياهم وبث روح الصبر والثبات في صفوفهم بخافٍ على أحد، بل ظاهرٌ للولي والعدو، مما جعل همة الأعداء منصبة على قتل هذه الروح ومحاولة إذهابها من نفوس المسلمين، إذ هي تقف حجر عثرة في مواجهة مخططاتهم خاصة أعداء الله اليهود ومن والاهم من النصارى والمشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ بيّنت الآيات السابقة شدة حرص النبي ﷺ على إيمان الناس، وبيّنت معجزات باهرة وآيات بينة له ﷺ تقتضي إيمانهم ومع ذلك فأكثرهم لا يؤمن، فكانت هذه التسلية لرسول الله ﷺ، فالآيات التي جاء بها واضحةٌ جليةٌ، ولكن كم من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون، فكذلك إعراضهم عن ما حدثتهم به من آيات الله في الكون ، الآفاقية منها والنفسية : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣] من لم ينتفع بها ويتعظ لم ينتفع بالمعجزات الحسية، فآيات الله في خلق الإنسان من الماء المهين، وتحوله في أطوار خلقه إلى أن يصبح إنساناً أعظم من تحول العصا إلى حية، وخلق السماوات والأرض وطلوع الشمس كل يوم من مشرقها إلى مغربها أعظم من خروج اليد بيضاء للناظرين، ولذا بدأ موسى عليه السلام بالآيات الكونية قبل المعجزة الحسية فقال : ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ** ﴾ [الدخان : ٧]، وقال : ﴿ **رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** ﴾ [الصافات : ١٢٦]، و قال : ﴿ **قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُون** ﴾ [الشعراء : ٢٨]، ولما أعرضوا عن هذه، أعرضوا عن كل المعجزات الحسية بعدها، فمن أراد أن يؤمن فتكفيه آيات السماوات والأرض إن كان موقناً بشيء، ومن أراد الإعراض فسيعرض عن كل الآيات .

والقرآن هو الذي يدلنا على هذه الآيات الكونية والنفسية بأوضح دلالة ينتظمها انتظامًا، ويُوقظ في قلب الإنسان الوعي لما حوله من الأدلة، ويُحيى في قلبه الفهم والتدبر لحقيقة الحياة والوجود والموت وما بعده والهدف من وجوده في الحياة وعلاقة الدنيا بالآخرة وسائر معاني الإيمان، فيستنير ويشرق الحق فيه، فمن أعرض عنه فلابد أن تكون له المعيشة الضنك والشقاء والتعاسة في الدنيا والآخرة .

قال ابن كثير – رحمه الله – : « يُخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السماوات والأرض من كواكب زاهرات، ثوابت وسيارات، وأفلاكٍ دائرات والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطعٍ متجاورات، وحدائق وجنات، وجبالٍ راسيات، وبحارٍ زاخرات وأمواجٍ متلاطمات، وقفارٍ شاسعات، وكم من أحياءٍ وأموات، وحيوان ونبات، وثمراتٍ متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحدالأحد خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات » أ.هـ.

التحذير من الشرك

قوله تعالي : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ .

فطر الله العباد علي الميل إليه وإلي توحيده وذوق حلاوة ذلك والراحة به : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠]، قال النبي ﷺ : « **كل مولود يولد علي الفطرة** – وفي رواية : **علي هذه الملة – فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه** » [١] متفق عليه، وهم كذلك مفطورون علي كراهية الشرك والتألم به ووجد مرارته وهمه والضيق به، ومع ذلك، ومع بيان الرسل الكرام، أكثر الخلق أشركوا بالله وتحملوا أفظع الألم، ألم الإنقطاع والبعد عن محبته، وذاقوا مرارة الباطل واستمروا علي تجرعها، كيف حدث ذلك؟ وكيف خدعهم الشيطان حتي أشقاهم هذا الشقاء مع ما ينتظرهم من العذاب الأبدي والشقاء السرمدي ؟

إنها الطريقه الإبليسية القديمة المتكررة التي استعملها مع الأبوين حين قاسماهما إني لكما لمن الناصحين، فأظهر تعظيم الله بالقسم به ليخدعهما، فلبّس الحق بالباطل، وهكذا خدع قوم نوح، فلبّس حق حب الصالحين واتِّباعهم بباطل الغلو فيهم وإطرائهم فوق منزلة العبودية، وهكذا خدع أهل الكتابيين من قبلنا، فلبّس حق حب الأنبياء واتِّباعهم بباطل الغلو فيهم بعبادتهم من دون الله وكذا الأحبار والرهبان .

فإن الباطل لا يمر إلا بشئ من الحق يذهب مرارته ويسوغه للناس، الباطل المجرد لا يقبل ولا يحتمله البشر، لابد أن يمزج بشئ من الحق، السم مرٌّ فظيعٌ

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري(١٣٨٥) ، ومسلم(٢٦٥٨) ، والترمذي(٢١٣٨) ، وابو داود(٤٧١٤) .

الطعم لا يقبله أحد حتي يوضع في العسل، فلنتنبه جيدا لهذه المسأله لأن أكثر الناس يستجيبون للباطل لوجود حق معه، وأهل النفاق بضاعتهم في هذا السوق رائجة، فهم العدو الذين يجب أن نحذرهم لأجل هذه المسألة، فحق إظهار التوحيد ممزوج بفتن شبهاتهم وشهواتهم وأمراضهم، التي بها صاروا دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، وهم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا، قلوبهم قلوب شياطين في جثمان إنس،كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ .

فيخبر الله تعالي في هذه الأية الكريمة أن أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا مع شركهم به.

قال ابن كثير – رحمه الله –: « قال ابن عباس: من إيمانهم: أنهم إذا قيل لهم من خلق السماوات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟، قالوا :الله، وهم مشركون به، وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك»، وفي الصحيح: أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «**قد قد**» أي : حسب لا تزيدوا علي هذا، وقال الله تعالي: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان : ١٣] وهذا هو الشرك الأعظم، يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله : أي الذنب أعظم؟ قال: « **أن تجعل لله نداً وهو خلقك** » (١)، وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُون** ﴾ قال: « ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك، يعني قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء: ١٤٢] » أ.هـ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤٧٧، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٧٥٢٠)، ومسلم (٨٦)، والترمذي (٣١٨٢)، والنسائي (٤٠١٣)، وابو داود (٢٣١٠).

وهذا القول في تفسير الآية أنه الشرك الأكبر هو الظاهر في سبب نزولها ووقته، إذ السورة مكية والخطاب عن المشركين المعرضين من آيات الله في السماوات والأرض المكذبين لرسول الله ﷺ، وعلى ذلك فإيمانهم الذي آمنوا من الإقرار بخلق الله للسماوات والأرض وخلقهم هم قد حبط وبطل لاقترانه بالشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الزمر : ٦٥]، فالشرك يحبط الإيمان والعمل، لا يُقبل معه إقرار ولا اعتراف ولا عمل، ومنه النفاق الأكبر كما فسره به الحسن، وهو داخل في عموم الآية وإن لم يكن موجوداً وقت نزولها .

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا الإيمان لا أثر له ولا يثاب صاحبه عليه لأن الشرك أبطله وأحبط أثره، وشرط انتفاع الإنسان بأصل الإيمان بقاؤه وعدم حبوطه بالشرك الذي قامت به عليه الحجة، وهذا مثل معرفة إبليس وإقراره بأن الله خلقه وخلق آدم، وأنه يبعث الناس يوم القيامة، وأنه الذي يحيي ويميت ويُنظر من شاء: ﴿ **قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٤]، ومع ذلك فهو أكفر الكافرين، وكذا يقين فرعون وآله بآيات الله التي جاء بها موسى، وعلمهم بأنها نزلت من عند الله، ومع ذلك لوجود الإباء والاستكبار والجحد الظاهر لم ينفعهم اليقين والعلم الباطن، وفي هذا أوضح رد على الجهمية وغلاة المرجئة القائلين أن الإيمان هو المعرفة، وجوّزوا أن يكون الإنسان ناطقًا بالكفر فاعلاً للشرك وهو في حقيقة الأمر مؤمن، بل كامل الإيمان عندهم .

ولو التزم أحدٌ منهم إيمان إبليس وفرعون وقومه لكان كافراً خارجاً من الملة بإجماع أهل العلم، فإن كُفر هؤلاء معلوم من الدين بالضرورة، فالشرك الأكبر لا يجامع أصل الإيمان النافع في القلب، بل لا يجامع شيئًا من الإيمان إلا على سبيل الإحباط، وإذهاب الأثر كالعدم وإن لم تزل من القلب المعرفة بالكلية، بل ولو لم يزل نطق اللسان بالتوحيد كالنفاق الأكبر كما ذكرنا، وبالتالى فلا يجوز بحال أن يطلق اسم الإيمان على من لبس إيمانه بالشرك الأكبر الذي قامت به الحجة .

وهذا القيد – وهو قيام الحجة – إنما ذكرناه لأن أدلة الشرع كتابًا وسنةً وإجماعًا دلت على أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة، وأن من ارتكب شيئًا من الكفر أو الشرك الأكبر مخطئًا من غير قصد كالذي قال: « **اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح** »(١)، أو ناسيًا من غير ذكر (كمن نسي آيةً من القرآن غير متذكر لها)، أو إكراهًا من غير اختيار لقوله تعالى: ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾[النحل: ١٠٦]، أو جاهلاً من غير بلاغ الحجة لقوله تعالى: ﴿ **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾[الأنعام: ١٩]، أو متأولاً تأويلاً يعذر فيه لعدم مخالفة المعلوم من الدين بالضرورة في حقه كفعل الصحابة الذين شربوا الخمر مستحلين لها تأويلاً باطلاً لقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[المائدة: ٩٣]، فلم يكفّرهم عمر، بل أقام عليهم الحجة ثم جلدهم الحد لما أقرّوا بالحق، وكذا من وقع منه صغيرًا غير بالغٍ أو مجنونًا غير عاقلٍ أو نائمًا، فكل هؤلاء من وقع منه شرك أكبر قد قام به أحد هذه الموانع، وكان عنده أصل الإيمان والإقرار بقلبه ولسانه، وفي قلبه الانقياد للشرع لو علمه أو ذكر به أو نحو ذلك من زوال الموانع، لم يكفر ولم يحبط أصل إيمانه، وكان حكمه كحكم أهل الكبائر المستحقين للعقاب إن قصروا في طلب العلم الواجب عليهم، لكن لم تقم عليهم الحجة ولم ينقضوا أصل الشهادة بالإقرار بعبادة غير الله، وهذا فرقٌ مهمٌ جدًا بين مشركي العرب ونحوهم ممن حكم القرآن عليهم بالشرك والكفر وكذا السنة والإجماع، وبين من يقع في الشرك من المنتسبين للإسلام – خفي على كثير من المتأخرين –، وهو أن مشركي العرب وغيرهم يقرون على أنفسهم بعبادة غير الله والشرك به، وأنهم يتخذون مع الله آلهة يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، فهؤلاء

(١) رواه مسلم (٢٧٤٧).

زال منهم أصل التوحيد حتى لو لم تصلهم الحجة ولم تبلغهم دعوة الرسل، وإن حدث ذلك ـ فهم كفار غير معذبين في الآخرة حتى يمتحنوا بالأمر بدخول النار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها سحب إليها «**كما دلت عليه أحاديث الإمتحان الثابتة الصحيحة**» (١)، وأما من يقع في الشرك من المسلمين اليوم فهم لا يقرون بعبادة غير الله، ولا يدرون أنهم بفعلهم الشرك يتخذون الأنبياء والأولياء وأصحاب القبور آلهة من دون الله أو مع الله، وإذا قلت لهم أتعبدون غير الله نفروا من ذلك أعظم النفرة، ولو سألتهم عن إلههم لأجابوا بأنه الله لا إله إلا هو، فهذا الجهل الناشيء عن عدم بلاغ الحجة لهم يمنع من تكفيرهم كأعيان وإن كانت أفعالهم شركية فإذا أقيمت الحجة وأزيلت الشبهة لزمهم حكم الشرك وحبط إيمانهم بما اعتقدوا أو قالوا أو فعلوا من الشرك والكفر وهذا بخلاف النوع الثاني من الشرك وهو الشرك الأصغر، وهو داخل أيضًا في عموم الآية وإن كان مخالفًا لسبب نزولها ووقته كما ذكرنا ويختلف أيضًا حكم إيمان من ارتكبه فإنه لا يحبط إيمانه بالكلية ولا يخلد صاحبه في النار بل حكمه حكم أصحاب الكبائر من أهل القبلة حتى ولو كان من ارتكبه قد قامت عليه الحجة .

فالرياء محرم بالكتاب والإجماع والحجة قائمة به على أكثر الخلق، ومن ارتكبه بعد قيام الحجة ـ في غير النطق بكلمة التوحبد ـ لم يكفر بل بنص رسول الله ﷺ هو الشرك الأصغر حيث قال : « **أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال الرياء** » (٢) صحيح .

ولكن يحبط عمله الذي راءى به ولا تحبط كلمة التوحيد، وأما إذا راءى بالشهادة فهذا النفاق الأكبر المخلد في النار والعياذ بالله، وقد ذكر السلف في

---

(١) صحيح : رواه أحمد (١٥٨٦٦) ، وابن حبان عن الأسود بن سريع وابي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٨١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد (٢٣١١٩، ٢٧٧٤٢) عن محمود بن لبيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٥٥) .

عموم هذه الآية أنواعًا من الشرك الأصغر واستدلوا بالآية على تحريمه ومنعه تغليظًا وتشديداً ولأن من فعله فقد شابه المشركين في بعض أفعالهم وصفاتهم فيستحق شيئًا من عقابهم وإن لم يلزم أنه يعاقب بكل عقابهم فهو يستحق دخول النار ولا يخلد فيها .

فمجامعة الشرك الأصغر لأصل الإيمان لا تحبطه بالكلية ولكن تمنع الخلود في النار فهو ينتفع بعض النفع لا النفع التام، ويزول عنه الإيمان الكامل وجوبًا، الذي يستحق صاحبه دخول الجنة لأول وهلة .

قال ابن كثير - رحمه الله - : « وثَم شرك آخر خفي لا يشعر به غالبًا فاعله، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال: « دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرًا فقطعه - أو انتزعه - ثم قال: **﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾** [يوسف : ١٠٦] » (١) .

وفي الحديث : « **من حلف بغير الله فقد أشرك** » (٢) رواه الترمذي وحسنه في رواية ابن عمر رضي الله عنهما، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الرقى والتمائم والتوله شرك** » (٣) وفي لفظ لهما : « **الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل** » (٤) .

---

(١) صحيح : ذكره ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٩٥) وسكت عنه ، حماد بن سلمة : قال فيه ابن حجر هو ثقة عابد أثبت الناس وتغير حفظه بآخره ، وقال عنه الذهبي ثقة صدوق يخلط وليس في قوة مالك توفى سنة ١٦٧ هـ ، وروى له أبو داود والترمذي والبخاري تعليقًا ومسلم والنسائي وابن ماجة .
عاصم ابن أبي النجود : هو عاصم بن بهدلة الأسدي الكوفي أبو بكر المقرىء وهو من الذين عاصروا صغار التابعين قال عنه ابن حجر صدوق له أوهام حق في القراءة ووثقه الذهبي وقال عنه الدارقطني في حفظه شيء، توفى عام ١٢٨ هـ ، روى له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

(٢) صحيح : رواه أبو داود (٣٢٥١) الأيمان والنذور ، وأحمد (٥٣٥٢) ، والترمذي (١٥٣٥) بلفظ « **فقد كفر أو أشرك** » ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٤) .

(٣) صحيح : رواه أبو داود (٣٨٨٣) الطب ، وابن ماجة (٣٥٣٠) ، وأحمد (٣٦٠٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٣٢) .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجة (٣٥٣٨) الطب ، وأحمد (٣٦٧٩) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦٠) .

ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال : حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة، عن يحيى بن الجزار عن ابن أخي زينب، عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قالت : « كان عبد الله إذا جاء من حاجة، فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح، وعندي عجوز ترقيني من الحمرة، فأدخلتها تحت السرير، قالت : فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطًا فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الرقى والتمائم والتولة شرك** » ، قالت : فقلت له : لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت، فقال : إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، وإنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ : « **أذهب البأس، رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا** » (١) .

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى ابن عبد الرحمن قال : دخلنا على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده، فقيل، لو تعلقت شيئًا ؟ فقال : أتعلق شيئًا وقد قال رسول الله ﷺ : « **ومن تعلق شيئًا وكل إليه** » (٢) رواه النسائي عن أبي هريرة .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « **من علق تميمة فقد أشرك** » (٣)، وفي رواية : « **من تعلق تميمة فلا أتم**

---

(١) صحيح : رواه احمد (٣٦٠٤) بلفظ « **إلى جنبي** » بدل « **جانبي** » وبلفظ « **إنما ذلك عمل الشيطان** » بدل « **إنما ذاك من الشيطان** » ، وبلفظ « **أذهب البأس** » بدل « **البأس** » ، وبلفظ «**أشف**» بدل « **واشف** » ، وأبو داود (٣٨٨٣) مختصراً ، وابن ماجة (٣٥٣٠) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٥٥) .

(٢) ضعيف : رواه أحمد (١٨٣٠٤) ، والترمذي (٢٠٧٢) ، والنسائي (٤٠٧٩) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٠٢) ، وضعفه في غاية المرام (٢٨٨) .

(٣) صحيح : رواه أحمد (١٦٩٦٩) ، والحاكم عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٩٤) .

الله له، ومن تعلق ودعه فلا ودع الله له » (١)، وعن العلاء عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» (٢) . [رواه مسلم].

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » (٣) رواه الإمام أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو، عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال : «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً ؟ » (٤) وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد به .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لهيعة، أنبأنا ابن هبيرة، عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» ، قالوا : يا رسول الله، وما كفارة ذلك؟

---

(١) ضعيف : رواه أحمد (١٦٩٥١) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٧٥٠٣) ، وفي السلسلة الضعيفة (١٢٦٦) .

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجة (٤٢٠٢) بلفظ « فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك » .

(٣) صحيح : رواه الترمذي (٣١٥٤) ، وابن ماجة (٤٢٠٣) ، وأحمد (١٥٤١١) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٢) .

(٤) صحيح : سبق تخريجه ص (٢٨٩) .

قال : « أن يقول أحدهم اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » (١) .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العذرمي، عن أبي علي - رجل من بني كاهل - قال : خطبنا أبو موسى الأشعري فقال : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل »، فقام عبد الله ابن حزن وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت، أو لنأتين عمر مأذونًا لنا أو غير مأذون، قال : بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل»، فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه » (٢) وقد روى من وجه آخر، وفيه أن السائل في ذلك هو الصدّيق، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي محمد، عن معقل بن يسار، قال : شهدت النبي ﷺ أو قال : حدثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل» ، فقال أبو بكر : وهل الشرك إلا من دعا مع إلهًا آخر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل »، ثم قال : « ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره ؟ قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم » (٣) .

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي عن شيبان بن فروخ، عن يحيى بن كثير

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٧٠٠٥) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦٤) .

(٢) صحيح : رواه احمد (١٩١٠٩) بلفظ (ونستغفرك لما لا نعلم) بدل (ونستغفرك مما لا نعلمه) ذكره ابن كثير في تفسيره وسكت عنه (٢/٤٩٦) .

(٣) صحيح : رواه الحافظ ابو يعلى الموصلي في مسنده (٥٨) ، وابي شيبة في مصنفه (٢٩٥٤٧) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع عن أبي بكر (٣٧٣١) .

عن الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : « **الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا** » قال : فقال أبو بكر : يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال : « **ألا أخبرك بشيئ إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟** » قال : بلى يا رسول الله، قال : « **قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم** » (١) .

قال الدارقطني : يحيى بن كثير هذا، يقال له أبو النضر متروك الحديث، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم، سمعت أبا هريرة قال : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله علمني شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي قال : « **قل : اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيئ ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه** » وزاد الإمام أحمد في رواية له من حديث ليث بن أبي سليم عن مجاهد، عن أبي بكر الصديق، قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أقول فذكر هذا الدعاء وزاد في أخره : « **وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم** » (٢) أ.هـ.

يتحصل من الأحاديث التي نقلها الإمام ابن كثير – رحمه الله – في الشرك الأصغر أنواع منها :

[١] تعليق السير أو ربط الخيط أو تعليق الودع ونحوها من الأشياء وكذا التمائم .

---

(١) صحيح : رواه البغوي ، و صححه الالباني في صحيح الجامع (٣٧٣١) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي (٣٣٩٢) ، وأبو داود (٥٠٦٧) ، وأحمد (٥٢) واللفظ له بدون الرواية الأخيرة التي زادها أحمد (٨٢) ، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨١٣) .

[٢] الحلف بغير الله .

[٣] الرقى المحرمة والمجهولة والتولة وهي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته وهو من جنس السحر .

[٤] الطيرة : وهي التشاؤم (ومثله : التفاؤل) بالطيور (ومثلها : الأرقام وبعض الحيوانات والنباتات) وليس من ذلك الفأل بالكلمة الطيبة وليس بغيرها .

[٥] الرياء : وهو طلب رؤية الناس لعمله الصالح (ومثله السمعة)، وطلب أعراض الدنيا بعمل الآخرة .

ولا بد هنا من الإنتباه إلى أنه وإن كان الغالب على هذه الأنواع الشرك الأصغر الذي لا يخرج من الملة، إلا أنه أحيانًا يكون الشرك أكبر، وذلك بأن يعتقد في الشيء المعلق من خيط أو حلقة أو نحوه من التمائم أنها تنفع وتضر بذاتها من دون الله أو مع الله، فيكون شركًا أكبر في الربوبية، ويكون تعليقها لجلب نفعها أو لتدفع هي الضر عنه شركًا في الألوهية، والعياذ بالله .

وكذا إذا اعتقد أن الطيور تأتي بالخير أو بالشر بذاتها من دون الله أو مع الله، فهذا شرك أكبر في الاعتقاد، أما إذا اعتقد أن هذه الأشياء أسباب أو علامات على حصول الخير أو الشر أو الضر أو النفع من عند الله، فهذا شرك أصغر، لأنه كذب على الشرع وكذب على القدر، لأن هذه الأشياء لم يدل دليل شرعي على كونها أسبابًا أو حتى علامات، واعتقاد أنها أسباب أشد من اعتقاد أنها علامات، ولا دليل كوني قدري من التجربة الظاهرة لا ادعاء تجربة خفية، فإن الأسباب الخفية غير الظاهرة لا يصلح في اعتبارها أسبابًا إلا لدليل شرعي، وكل هذا ذريعة إلى الشرك الأكبر فيكون شركًا أصغر، ومن هذا ما انتشر عند الناس من لبس حلقة مغناطيسية يزعمون أنها تعالج بعض الأمراض، وإن حاول البعض أن يثبت لها سببية ظاهرة، وهو عند أهل الخبرة نوع من الدجل والخداع، وطالما لم يثبت

هذا الأمر بالتجربة الظاهرة لا مجرد دعوى السببية فلا يقبل، فيكون من هذا النوع المحرم، والله أعلم (١) .

والحلف بغير الله الغالب عليه أنه يجرى على اللسان من غير قصد تعظيم المحلوف به كتعظيم الله، وإن كان مجرد الحلف بالمخلوق نوع تعظيم، إلا أنه إذا كان يعظمه كتعظيم الله أو أشد كمن يقال له احلف بالله فيحلف كاذبًا، فإذا قيل له احلف بالصليب أو المسيح أو الشيخ الفلاني تلعثم وامتنع وأقر بالحق، وكالذي يتوجه له على خصمه اليمين فيعرض الخصم الحلف بالله، فيقول لا أقبل الحلف بالله حتى يحلف بصاحب القبر الفلاني وعند قبره، فيقسم بحق هذا الغالب الطالب (يعني أن صاحب القبر سوف يغلب من يحلف به كاذبًا وسوف يطلب الحق منه)، فهذا من الشرك الأكبر بلا شك، لأنه يعظمه أشد من تعظيمه لله – عز وجل –، ويعتقد فيه أنه ينتقم ممن حلف به كاذبًا أشد من انتقام الله وعقوبته لمن حلف به كاذبًا .

وأما الرقى فإن كان يعتقد أنها تنفع بذاتها، أو كان فيها كلام مجهول أو توسلات بدعية محرمة، فهي شرك أصغر، وأما إذا كانت الرقى بالأدعية الصحيحة والتوسلات الشرعية لله وأسمائه وصفاته وباللغة العربية أو بما يعرف معناه من غيرها، وهو يعتقد أن الله هو الشافي النافع الضار، فهي مشروعة جائزة مستحبة في حق الراقي، والأولى للإنسان أن لا يطلب الرقية من غيره تكميلاً للتوكل، وسبق بيان أن الرياء في النطق بكلمة الشهادة شرك أكبر، وفيما دونها شرك أصغر، والله أعلم .

وليراجع في ذلك وفي بيان أنواع أخرى من الشرك الأصغر والكفر الأصغر، كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – وشروحه، والله أعلم .

---

(١) راجع كتاب فضل الغني الحميد : فصل بيان أنواع من الشرك .

فائدة :

حكم الشرك الأصغر حكم الكبائر عند جماهير أهل العلم، وإن كان من أغلظها كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذبًا أهون عليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا »، وعلى هذا فصاحب الشرك الأصغر في المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، وربما كانت الحسنات الماحية والمصائب المكفرة والاستغفار ماحياً لهذا الشرك، والقول بالموازنة بين الحسنات والسيئات هو الذي تجتمع به الأقوال، بخلاف الشرك الأكبر فلا يوازنه شئ ولا يمحوه شئ إلا التوبة منه، طالما قد قامت على صاحبه الحجة كما قدمنا .

وشذَّ شيخ الإسلام ابن تيمية فقال أن الشرك الأصغر لا يغفر، بمعنى أنه لا بد أن يعذب صاحبه وإن لم يخلّد في النار، وهو قول مردود بالأحاديث الصحيحة التي ذكرها ابن كثير – رحمه الله –، وسبق نقلها من مشروعية الاستغفار من هذا الشرك الأصغر، رغم عدم العلم والشعور به اللازم في التوبة، فقول النبي ﷺ : «قل :اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم» (١)، دليل واضح على أن الاستغفار مما لا يعلم يمكن أن يذهبه وأن يغفره الله، ونصوص السنة وأقوال السلف أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] هو في الشرك الأكبر، كما قال رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة : « فأقول يا رب لم يبق إلا من حبسه القرآن » (٢) أي : وجب عليه الخلود .

وإنما وجب الخلود على المشركين شركًا أكبر بهذه الآية، فلا يصح أن يقال بوجود عمل (هو الشرك الأصغر عند ابن تيمية) داخل في عموم الآية، ثم صاحبه لا يخلد في النار، بل الصواب أن الشرك الأصغر داخل في عموم قوله

(١) صحيح : سبق تخريجه ص (٢٩٣) .
(٢) رواه البخاري (٧٤٤٠) بلفظ : « ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن » اي وجب عليه الخلود .

تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦]، والشرك إذا أطلق قصد به الأكبر إلا بدليل، أو نقول هو يعم الأكبر والأصغر، لكن إذا خص الدليل الأكبر فيخرج منه الأصغر، فالآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦] يقصد بها الأكبر بدليل السنة المذكور وكلام السلف فيها، والله أعلم .

التحذير من الأمن من مكر الله

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) ﴾ .

ينكر تعالى على من أمن مكره وعذابه مع تلبسه بما يستوجبه من الكفر والمعاصي فقال : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ ﴾ أي : أمر يغشاهم من عذاب الله، ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ أي: القيامة، ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة، ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾، ولأن الموت يفضي بالعبد إلى الآخرة وما فيها، وشعوره ببقائه في القبر إذ قام في القيامة كأنه ساعة، سمّى رسول الله ﷺ الموت ساعة الإنسان فقال : « **إن يعش هذا الغلام لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم** » (١) رواه مسلم، وإنما أراد انخرام ذلك القرن، أي : موت هذا الجيل، وقد تكرر في القرآن والسنة التحذير من الأمن من مكر الله، قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

[النحل : ٤٥-٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧-٩٩] وفي حديث ابن مسعود :

« **من الكبائر الأمن من مكر الله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله** » (٢) .

والأمن من مكر الله وعقابه يلزم منه زوال الخوف من القلب، ولو زال بالكلية

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٢) وليس فيه لفظ الغلام وإنما كان يشير إلى الغلام .

(٢) صحيح : سبق تخريجه ص (٢٣٣) .

لزال الإيمان بالكلية لقوله تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ولو نقص نقص الإيمان، ولو تأمل العاقل حقيقة حياته وموته وأنه في الأرض أو في السماء لا يملك شيئًا لنفسه، ولا يملك شيئًا من الكون حوله في نومه ويقظته، وأن الموت يأتيه بغير اختياره، أيقن أنه لا يأمن مكر الله وعذابه إلا خاسر مغبون مغرور جاهل، نعوذ بالله أن نأمن مكره، ونسأله – عز وجل – أن يؤمنا من عقابه وعذابه بفضله ورحمته .

من فقه الدعوة إلى الله

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ أي : يدعو إليه على بصيرة أيضًا، وقيل : أنا ومن اتبعني على بصيرة، وعلى كلا الوجهين، فالآية تدل على وجوب الدعوة إلى الله، وأن البصيرة من الفرائض . وفي قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ تنبيهٌ على أن التوحيد : تنزيه لله عن المسبه، إذ الشرك مسبة لله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ مع قوله : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فيه تنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثير من الناس لو دعا إلى الله فهو يدعو إلى نفسه .

وهذه الآية الكريمة فيها بيان جملة من أصول الدعوة إلى الله ما أحوج الدعاة إلى الله إلى معرفتها والعمل بها، وإليك بعض ما تضمنته هذه الآية من أصول الدعوة الصحيحة :

قوله : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي ﴾، انظر كيف وحد السبيل إليه وهو سبيل الرسول ﷺ، لأن طريق الحق واحد لا تفرق فيه ولا اختلاف، بخلاف سبل الباطل، فإنها كثيرة متنوعة على رأس كل منها شيطان يدعو إليه، ويقود أتباعه إلى النار، وهكذا يجب أن يكون كل الدعاة إلى الله في طريق واحد ومنهج واحد، هو الإسلام الحق الذي بعث به رسول الله ﷺ، وكان عليه الصحابة والسلف رضي الله عنهم، الذي تميز عن طريق البدع والضلالة التي كثرت وافترقت، كما قال رسول الله ﷺ في الفرقة الناجية : « وهي الجماعة » (١) .

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (٤٤٢٩)، وأحمد (٤/١٠٢)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وابن ماجة (٣٩٩٣)، من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٤٢) .

وقال ﷺ : « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة** » (١) .

فأصحاب الحق هم أهل السنة والجماعة، ومنهجهم الواضح لا يجوز أن يفترق بين الناس، أو يبتعدوا عنه، والتعدد الحاصل بسبب الاختلاف في المنهج – بين موافق ومخالف لطريقة السلف – تعدد مذموم، وشر على الدعوة والدعاة، وتفرقة للقلوب، وبث الضغينة والحسد، والغيبة والنميمة، وإنما يتحمل وزر ذلك أهل البدع الذين خالفوا سبيل الحق الواحد، ثم على أهل السنة والجماعة في كل قطر من الأقطار، بل في كل مكان أن يكونوا معًا في هذه السبيل، هكذا كان رسول الله ﷺ وصحابته أمة واحدة، وطائفة واحدة متعاونين على البر والتقوى، كما أمرهم الله، فما بال كثير من الناس اليوم يحبذ الفرقة، وهو يعلم ما عليه المسلمون من تضييع الواجبات العينية والكفائية ؟! ولا شك في عجز الأفراد عن القيام بهذه الواجبات، مع تباعدهم وتفرقهم، وعدم انتظامهم في سلك واحد، ولا تقوم دعوة من الدعوات – ولا عُلِم في سنة الله الكونية ولا الشرعية – دعوة قامت بغير تعاون، ووحدة، وائتلاف، فكيف يتسنى لأهل منهج الحق أن يتفرقوا، ويكون غيرهم أحرص على الاجتماع منهم ؟! نسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين .

وقوله تعالى : ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ فيه نسبة هذه الدعوة إلى الله تعالى، وما أشرفها من نسبة، ولكن لا يتحقق هذا الانتساب فتكون الدعوة دعوة ربانية، حتى تكون ربانية في أصلها ومصدرها، وفي طريقها ومنهجها، وفي غايتها ومقصدها :

أولاً : أصلها ومصدرها : بأن ترجع إلى الوحي المنزل من عند الله كتابًا

(١) صحيح : رواه أبو داود (٤٤٤٣) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجة (٤٢) ، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦) .

وسنّة؛ فإن نقاء الأصل في نقاء الثمر، وصحته، وقوته، قال تعالى: ﴿ **اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾ [النساء: ١١٣].

وأما الدعوات التي تتخذ من المناهج الكلامية، أو الطرق الفلسفية، أو آراء الرجال، أو تحكمات لعقول مصدراً لها، فهي لا تستحق أن تكون دعوات ربانية.

ثانيًا: الطريق والمنهج والوسائل: لابد أن تكون ربانية كذلك على منهج الأنبياء، فالغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة بل الوسيلة من عند الله، كما أن الغاية إليه وحده، وسيرة الرسول ﷺ، وسيرة من قبله من الأنبياء فيها البيان لوسائل الدعوة، وطريقها، وما يقدم، وما يؤخر، وما هي موازين المصالح والمفاسد؛ حتى لا تختلط الأمور وتلتبس الأحوال.

ثالثًا: الغاية والمقصد: فلابد أن يكون وجه الله، والدار الآخرة لا غير، وذلك من خلال العمل، لإعلاء كلمة الله في الأرض، ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ١١٠] وليس التمكين في الأرض لطائفة الدعاة بغاية مقصودة لهم، بل هي من وسائل الدعوة لتحقيق العبودية لله في أكمل صورها، وهو منّة من الله ليست بيد الدعاة، ولا من كسبهم، قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [الحج: ٤١] وقد لا يتحقق التمكين، فلا بأس على الدعاة؛ لأن وسائل تحقيق العبودية كثيرة والحمد لله، وإنما المهم أن لا يقصروا فيما يجب عليهم مما يقدرون عليه، وأما الدعوات التي تجعل غايتها التسلط على رقاب الناس، أو الظفر بهم للانتقام منهم، أو السعي وراء الملك والجاه، والثروة والراحة؛ تخلصًا من المطاردة، والاستضعاف، والفقر،

والخوف، فليست بالدعوات الربانية، والمسلم الرباني عبد لله في كل أحواله، وأوقاته فقيراً كان أو غنياً، ممكنًا أو مستضعفًا، مظلومًا في ظلمات السجون أو ملكًا ممكنًا على رؤوس الناس، فندعوا الله سبحانه أن يرزقنا الإخلاص، والعمل الصالح في كل حين .

وهذه الربانية هي من سمات الدعوة إلى الله، تعطيها من الصفات الأخرى صفة الثبات والاستقرار، فهي لا تتلون بتلون ما حولها، ولا تغير جلدها، ولا رايتها، ولا ولاءها حسب المصلحة كسائر الدعوات الأرضية، وتعطيها كذلك صفة الشمول والاتساع، فليست منحصرة في جانب واحد، بل تأخذ الدين وتقوم به من جميع جوانبه علمًا، وعملاً، وسلوكًا، وخلقًا، وتعطيها كذلك صفة العالمية : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٧] فليست منحصرة في بلد، أو قبيلة، أو شعب، أو طائفة، بل هي دعوة للإنس والجن إلى يوم القيامة، وتعطيها كذلك صفة الواقعية، فهي لا تعيش في الخيال، ولا تحارب المعارك في الخيال، بل تبدل الواقع – بإذن الله – إلى ما يوافق الإسلام، ويرضى عنه الرحمن .

ووصف الرسول ﷺ، ومن اتبعه بالدعوة إلى الله ؛ يدل على لزومها، ووجوبها، فكل مسلم يدعو إلى الله حسب علمه وقدرته، وإن لم يجد سوى نفسه، فليدعها إلى الله .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤]، وقال النبي ﷺ : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** » (١) .

---

(١) رواه مسلم (٤٩) ، والترمذي (٢١٧٤) ، والنسائي (١١٧٣٩) الكبرى ، من حديث ابي سعيد الخدري رضي الله عنه .

والدعوة إلى الله فرض كفاية، إذا قامت به طائفة من الأمة - حتى يوجد المعروف ويزول المنكر - سقط الحرج عن الباقين، وإلا أثم كل قادر بحسب تقصيره، سواء كان قادراً بنفسه أو بالتعاون مع غيره، فيقصر في هذا التعاون، أو قادراً أن يأمر غيره وينصحهم بأن يدعوا إلى الله .

ولابد حين نتكلم عن وجوب الدعوة أن نعلم أن مشاركة الجميع في الدعوة ليس لحاجة الدعوة إليهم، بل لأنهم هم الذين في حاجة إلى الدعوة، ودين الله ماض بهم، أو بغيرهم، وهم لا يمشون إلا بدين الله، وإذا كان الله قال لخير الناس بعد الأنبياء صحابة رسول الله ﷺ : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٨]، فكيف يظن أحد أن الدعوة لا تمضي إلا به ؟ ولهذا فلا يمن أحد من الدعاة على الدعوة، ولا على إخوانه فيها، بل المنة لله وحده .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ فمن أهم أسس الدعوة إلى الله، لأن الدعوة بالجهل تضر أكثر مما تنفع، والبصيرة للقلب، كالبصر بالنسبة للعين، وبالبصيرة يفرق المؤمن بين الحق والباطل، والسنة والبدعة، والمصلحة والمفسدة، ومقام الدعوة : مقام خطر تزل فيه الأقدام، ويضل فيه أقوام، والانحراف فيه يمتد خطره أجيالاً، ويتحمل صاحبه أوزاراً ؛ ولذا كان تحصيل البصيرة من الفرائض على كل أحد، وعلى الدعاة إلى الله خصوصاً، لأن قرارهم في كثير من الأحيان يتوقف عليه مصير أمتهم .

أسباب تحصيل البصيرة :

منها - وهو أصلها - : صدق الإيمان بالله ورسوله ﷺ :

قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وهذا مثل المؤمن والكافر .

ومنها : العلم النافع بما جاء به الرسول ﷺ :

قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩]، **وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾** [فاطر : ٢٨]، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** »(١) . ولذا كان من سمات دعوة الحق حرص أفرادها على طلب العلم، وملازمتهم لحلقه، ومتابعتهم لأهله .

ومنها : العمل بالعلم :

فمن عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم، وحقيقة التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، والتقوى تقود إلى البصيرة والنور، قال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٢]، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

ومنها : صدق اتباع السنة ظاهراً وباطنًا :

لأن هذا هو تحقيق الإيمان برسول الله ﷺ ومقتضاه، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾ [الحديد : ٢٨] ؛ وهذا يستلزم تعلم السنة، وتقديمها في الأصول والفروع على قول كل أحد وهديه، كما قال ابن القيم في شأن الهجرة إلى النبي ﷺ بالقلب : « سفر النفس في كل مسألة من مسائل الإيمان، وحادثة من حوادث الأحكام، ومنزلة من منازل القلوب، إلى منبع الهدى، ومصدر النور المتلقى من فم الصادق المصدوق ﷺ ، فكل مسألة طلعت

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة (٢٢٤) ، والطبراني (١ / ١٦) الصغير ، و (٩) الأوسط ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٣) .

عليها شمس رسالته، وإلا فاقذف بها في بحر الظلمات، وكل شاهد عدله هذا المزكى، وإلا فَعُدَّه من أهل الريب والتهمات » أ.هـ .

والاتباع من أصول الدعوة إلى الله لا تقوم إلا به .

ومنها : كثرة تلاوة القرآن، وفهمه وتدبره، وحفظه وتعاهده، والاستدلال به والعمل به، فبحسب نصيبك من القرآن يكون نصيبك من النور :

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

ومنها : كثرة العبادة – خاصة الصلاة – وإطالة السجود :

قال تعالى : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق : ١٩] فكلما اقترب العبد من ربه استنار قلبه، وكلما أخلد إلى الأرض، ولم يرتفع، واتبع هواه، كلما التبس عليه الحق بالباطل، وترك الحق .

ومنها : الصدق، والصبر – ومنه الصوم – :

قال النبي ﷺ : « **الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء** » (١) فإذا اشتبهت عليك الأمور، ولم تدر كيف تسير – فافزع إلى الصلاة ؛ فلقد « **كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى** » (٢)، وأكثر من الصدقة، وعليك بالصوم فإنه نصف الصبر .

ومنها : غض البصر، وحفظ الفرج، وتجنب الاختلاط المحرم :

فإن أثر هذا النوع من المعاصي – خصوصًا في عمى القلب – معلوم لدى

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧)، والنسائي (٥/٥٤)، وابن ماجة (٢٨٠)، وأحمد (٥/٣٤٢)، من حديث أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه .

(٢) حسن : رواه أبو داود (١٢٧٤)، وأحمد (٥/٣٨٨)، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣) .

أهل الإيمان، ألم تر كيف كان قوم لوط عليه السلام قد حان عذابهم وهم كما قال تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ؟ [الحجر : ٧٢] . وتأمل كيف جعل الله أحكام غض البصر، وحفظ الفرج وعقاب الزنا، وآداب الاستئذان، والأمر بالحجاب، وترك الاختلاط، والأمر بالزواج، والعفة، والنهي عن البغاء، في سورة النور التي تتضمن آية النور عقب هذه الأحكام العظيمة، لذا قال بعض السلف : من غض بصره عن المحارم أطلق الله نور بصيرته .

وقوله سبحانه : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ ، **قال ابن جرير في التفسير (١٣ / ٨٠)** : « معناه وقل تنزيها لله تعالى، وتعظيمًا له، من أن يكون له شريك في ملكه، أو معبود سواه في سلطانه » أ.هـ .

وفيه التنبيه على أن أساس الدعوة هو التوحيد، وهو أول واجب على المكلف، وأول واجب في الدعوة، وعليه يحاسب الناس يوم القيامة، فأصل الأصول في دعوتنا توحيد الله، وتنزيهه عن الشريك، والند، والصاحبة، والولد، والمثيل، والشبيه، وكل صفات النقص .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، **قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب** [١] : فيه إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك أ.هـ.

أي : مثل شركهم، فإن من رضي بالشرك، فهو مشرك، وإن لم يفعله بنفسه ففيه أصل البراءة من الشرك وأهله، وعدم انتمائه لهم، ووقوفه تحت رايتهم، وانتمائه لأحزابهم .

وما أحوج الدعاة إلى هذا الأصل الذي من أجله يعاديهم أعدائهم، وإذا لم يحققوه في دعوتهم ؛ اختلط الإيمان بالكفر، والحق بالباطل ؛ فحصل الضلال، والعياذ بالله !

---

(١) من مسائله على باب الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله في كتاب التوحيد .

العبرة من سير الأولين

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾

تضمنت الآية خمس مسائل :

الأولـــى : أن الرسل من الرجال لا من النساء .

الثانيـــة : أنهم من أهل القرى لا من أهل البوادي .

الثالثـــة : أنهم من البشر لا من الملائكة ولا من الجن .

الرابعـــة : صفات الرسل الكرام وأخلاقهم التي تضمنها كلمة (رجال) .

الخامسة : لزوم قراءة التاريخ قراءة إسلامية لمعرفة حقيقة الصراع بين الحق والباطل، ونهايته بهلاك المبطلين، وانتصار المؤمنين في الدنيا والآخرة .

المسألة الأولى :

قال ابن كثير – رحمه الله – : « يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع .

وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب وبقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : ٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢–٤٣] .

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا ؟

الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم : « أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى : ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ** ﴾ [المائدة : ٧٥] فوضعها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن » أ.هـ.

قلت : هذه مسألة من مسائل الاعتقاد النادرة التي يسع فيها الخلاف بين أهل السنة، واختلف فيها النقل عنهم، فقد نقل ابن كثير هنا ومثله النووي وغيرهم عن جمهور أهل السنة أنه ليس في النساء نبية، في حين نقل القرطبي والقاضي عياض عن الجمهور خلاف ذلك وإثبات نبوة مريم، ورجحه ابن حزم في مريم وغيرها ممن ذكر، إلا أن القرطبي نقل الاتفاق على أن أم موسى ليست بنبية، واحتج من أثبت النبوة للنساء بالآيات التي فيها الإيحاء إليهن، ونداء الرب سبحانه لآدم وحواء، وبقول النبي ﷺ : « **كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم** »[1] متفقٌ عليه .

والذي ينبغي الاتفاق عليه في هذا الباب، نفي الرسالة عنهن، لأن هذا نص القرآن، وأما النبوة من غير رسالة فهي محتملة، والراجح في المسألة الوقف، لأن

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٩٥٢) بلفظ « أفضل نساء الجنة أربع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد » ، أما لفظ « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ...» فليس فيه خديجة بنت خويلد ولا فاطمة بنت محمد ، وأخرجه البخاري (٣٤١١، ٣٧٦٩، ٥٤١٨) ، ومسلم (٢٤٣١) ، وابن ماجة (٣٢٨٠) .

نفي الرسالة لا يستلزم نفي النبوة، لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسول، على الصحيح المشهور من كلام أهل العلم، والوحي لا يلزم منه أن يكون وحي نبوة، فالوحي يحتمل أن يكون لنبي وأن يكون لغير نبي، فقد أوحى الله إلى الحواريين، وليسوا بأنبياء بالنص، لقول النبي ﷺ : « **أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، إذ ليس بيني وبينه نبي** » (١) رواه البخاري ومسلم، وأوحى الله إلى النحل، فلا يلزم من لفظ الوحي النبوة، كما لا يلزم من تكليم الملائكة لبشر، أو رؤيتهم أن يكون المكلم نبيًا، فقد رأى الصحابة جبريل، أتاهم يعلمهم دينهم وسمعوا كلامه، وكان عمران بن حصين يكلم وتسلم عليه الملائكة وهذا في الصحيح، وليسوا بأنبياء نصًا وإجماعًا .

والكمال لمن كمل من النساء، لا يلزم منه النبوة، لأن خديجة وفاطمة – عليهما السلام – ليستا بنبيات إجماعًا، وما احتج به ابن كثير بأن مريم صديقة بنص القرآن، لا يلزم منه نفي النبوة، فإبراهيم كان صديقًا نبيًا، وإدريس كان صديقًا نبيًا، فوصف الصديقية لا يلزم منه نفي النبوة، وإذا كان الكتاب والسنة قد أخبرانا بنفي الرسالة عن غير الرجال، ولم يثبتا نبوة أحد من النساء صراحة، ولم ينفياه صراحة، فالواجب أن نتوقف حيث أوقفنا الكتاب والسنة .

وقد ورد في الحديث «**لا أدري تُبَّع نبي أم لا – وفي رواية – لعين أم لا**» (٢)، فإذا كان الرسول ﷺ لا يدري نبوة البعض من عدمها، فنحن أولى بالوقف فيما لا نص باثباته ولا بنفيه، والله أعلم .

المسألة الثانية : أنهم من أهل القرى:

قال ابن كثير – رحمه الله –: « وقوله ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ ، المراد بالقرى:

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٤٤٢) ، ومسلم (٢٣٦٥) ، وابو داود (٤٣٢٤، ٤٦٧٥) .
(٢) صحيح : رواه أبو داود (٤٦٧٤) بلفظ : « **ما أدري أتبع لعين هو أم لا وما أدري أعزير نبي هو أم لا** » ، والحاكم والبيهقي عن ابي هريرة ، وصححه الالباني في صحيح الجامع (٥٥٢٤) بلفظ : « **لا أدري أتبع أنبيًا أم لا ؟ وما أدري ذا القرنين أنبيا كان أم لا ؟ وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا ؟** » .

المدن، لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعًا وأخلاقًا، وهذا هو المعروف أن أهل المدن أرق طباعًا، وألطف من أهل سوادهم (أي : أريافهم)، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون البوادي، ولهذا قال تعالى : ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة : ٩٧]، وقال قتادة في قوله : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود، وفي الحديث الآخر : أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ : « **لقد هممت ألا أتهب هبة إلا من قرشي، أو أنصاري، أو ثقفي، أو دوسي** »(١) في الصحيح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيى ابن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ، قال الأعمش : هو ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**»(٢) ، أ.هـ.

وهذه المسألة لها أهمية كبيرة للدعاة إلى الله وأهل العلم، ومن يصدر لقيادة الناس، في الاهتمام بلين الجانب ورقة الطباع، والاختلاط بالناس مع تحمل أذاهم، وكف الأذى عنهم، ولا يمكن أن تنتشر الدعوة إلا بذلك، ولا يحب الناس ولا ينقادون إلا من كان معاشرًا لهم بالحسنى، لا الذي يعتزلهم، ولا الذي يخالطهم بالغلظة والفظاظة والجفاء، قال تعالى : ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا** غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران : ١٥٩] .

وإذا كان الله سبحانه قد اختار لقيادة البشرية الأنبياء من أهل القرى، فينبغي أن لا يُصدَّر في قيادة الناس أهل الجفاء والشدة، فإن تصديرهم بلاء على الأمة

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٢٦٨٢) وليس فيه دوسي، وأحمد (٧٣١٦) وليس فيه انصاري وفيه دوسي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٧٢).

(٢) صحيح : رواه ابن ماجه (٤٠٣٢) بلفظ : « أعظم أجراً من المؤمن » بدل : « خير من الذي »، واحمد (٥٠٠٢، ٢٢٥٨٨) بلفظ « أعظم أجرا من الذي »، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٥١).

وهلاك فيها، كما كان الحجاج بن يوسف هو المبير، أي : المهلك، الذي أخبر النبي ﷺ « أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا » (١)، فالكذاب المختار الثقفي، والمبير الحجاج، فكانت سنة ظالمة في المسلمين، وقد دعا الحسن فقال : « اللهم أنت قطعته عنا، فاقطع عنا سنته » .

فنسأل الله أن يولي على المسلمين من كان رؤوفًا رحيمًا، شفيقًا عفيفًا، لينًا كريم الجانب، وأن يقطع دابر الظالمين المفسدين، الذين يصدون عن سبيله ويبغونها عوجًا، وأن يقطع عن المسلمين سنتهم الظالمة .

المسألة الثالثة : أن الرسل من البشر، ليسوا ملائكة من أهل السماء كما طلبه المشركون :

قاله الضحاك عن ابن عباس، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٢٠]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فالرسول ﷺ ككل الرسل من البشر، ليسوا ملائكة، وهذا يقتضي أنهم خلقوا من الطين كسائر البشر، وليسوا من نور كما تدعي بعض طوائف الصوفية، ويحتجون بالحديث الباطل : « أول ما خلق الله، نور نبيك يا جابر »(٢)، ويدعون كذبًا أن رسول الله ﷺ لم يكن له ظُل حين يسير، كيف وفي الحديث الصحيح : « أن بلالاً وأسامة كانا يظللان رسول الله ﷺ بثوب من الحَر » (٣) .

---

(١) رواه مسلم(٢٥٤٥) فضائل الصحابة، والترمذي(٢٢٢٠)، وأحمد(٥٥٧٥)

(٢) موضوع : وقال الألباني انه حديث باطل فقال (خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار السموم وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم) صحيح رواه مسلم، وفيه إشارة إلى بطلان الحديث المشهور على السنة الناس : اول ما خلق الله نور نبيك يا جابر ونحوه من الأحاديث التي تقول بانه ﷺ خلق من نور فهذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور دون آدم ونبيه انتهى كلام الألباني في السلسلة الصحيحة(٤٥٨) .

(٣) رواه مسلم(١٢٩٨)، وابو داود(١٨٣٤)، في الحديث ان احدهما كان آخذ بخطام الناقة والآخر رافع ثوبه يستره من الحر، وفي النسائي ان الذي كان يظلله أسامة بن زيد رضي الله عنه(٣٠٦٠)

والخلاف بين العلماء من أهل السنة في أن أول مخلوق هو القلم – وهذا هو الصحيح –، أم العرش، أم الماء، وقد قال النبي ﷺ : « **إن أول ما خلق الله القلم...** »(١) الحديث، فالرسول ﷺ سراج منير، ونور مبين للقلوب والبصائر، لا أن مادة جسده ﷺ من النور، وأنه ليس من الطين، أو أنه يتنزه عن صفات البشرية، بل نص الكتاب والسنة أنه بشر قال: «**إنما أنا بشر، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني**»(٢)، وُلد كما يولد البشر، ومات كما يموتون، ومن زعم حياة النبي ﷺ في قبره كحياة الناس على ظهر الأرض، ليست الحياة البرزخية، فإنها أكمل حياة له ﷺ في الرفيق الأعلى، من زعم حياته كحياة الأحياء من الناس فقد كَذَّب الكتاب والسنة وإجماع المسلمين قال تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ [الزمر : ٣٠]، وفي الحديث الصحيح إن جبريل قال للنبي ﷺ : « **عش ما شئت فإنك ميت** »(٣)، وفي الحديث الذي رواه البخاري أن أبا بكر رضي الله عنه قال: « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات »(٤)، وسياق الآية أصلاً لإثبات مسألة بشرية الرسول ﷺ وسائر الرسل والرد على المشركين في إنكار رسالة البشر.

وأما مسألة الرسالة والنبوة في الجن، فهذه الآية تثبت أن الرسل رجال من أهل القرى، وكما ذكر ابن كثير: حديث « **المؤمن الذي يخالط الناس...** » الحديث، وهذا قول عامة أهل السُنة وأما قوله تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ**﴾ [الأنعام : ١٣٠] فلا يدل على أن من الجن رسل لأن الخطاب

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢١٥٥) القدر، وأبو داود (٤٧٠٠) السنة، وأحمد (٢٢١٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٦).

(٢) متفق عليه: ورواه البخاري (٤٠١) الصلاة، ومسلم (٥٧٢) المساجد ومواضع الصلاة، والنسائي (١٢٤٢) السهو، وأبو داود (١٠٢٠) الصلاة.

(٣) حسن: أخرجه السيوطي عن الشيرازي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣).

(٤) رواه البخاري (٣٦٧٠) المناقب، وابن ماجة (١٦٢٧) ما جاء في الجنائز، وأحمد (٢٧٨٠٧).

للثقلين معًا، فهو يتحقق بوجود رسل من البشر، وليس من دليل بالوحي إلى الجن، ولا نزاع أن رسول الله ﷺ رسول إلى الإنس والجن جميعًا، كما دلت عليه سورة الأحقاف وسورة الجن، وأن منهم منذرين قال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩-٣١] فدلت هذه الآية على أن الجن كانوا مطالبين ومخاطبين بشريعة موسى ثم صاروا مطالبين ومخاطبين بشريعة محمد ﷺ .

كما أن النقص الجبلي في الجن بالنسبة إلى الإنس يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠] كما يدل عليه أمر أبي الجن بالسجود لأبي البشر آدم عليه السلام وقول إبليس عن ذلك : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ [الإسراء : ٦٢]، والواقع المشاهد يدل على نقص علم الجن وخفة عقولهم، وطيش تصرفاتهم في الجملة إلا من رحم الله، وهذا كله مما يقتضي عدم وجود رسل ولا أنبياء منهم، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

الوصف بالرجولة يقتضي جملة من صفات الكمال لا يقتضيها الوصف بمجرد الذكورة، ولذا جاء هذا الوصف في سياق المدح في مواضع كثيرة من القرآن منها هذا الموضع، ومنها قوله تعالى عن مؤمن آل ياسين : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠] .

ومنها قوله تعالى عن الرجل الذي أبلغ موسى بمؤامرة الملأ من قوم فرعون به

ليقتلوه : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص : ٢٠]، ومنها قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ .

[الأحزاب : ٢٣] .

فصفات الرسل وأخلاقهم أكمل الصفات وأكرم الأخلاق، قال تعالى عن نبيه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤]، ولأن الرسل أكمل الخلق إيمانًا فهم أحاسنهم أخلاقًا لأن « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** » (١) كما قال النبي ﷺ (في الترمذي وصححه)، وجملة ذلك أنهم موصوفون بكل خلقٍ جميل ليقتدي الناس بهم في هذه الأخلاق، وإليك أخي الكريم جملة من هذه الأخلاق، وهي مفصلة في كتب التهذيب والرقاق والأدب ولكن أحببت أن أجملها هنا لنزن أنفسنا بها، وننظر إلى حالنا في التشبه بهم والقرب منهم : —

الصدق في القول والعمل مع الله ومع الناس، وترك الكذب بالكلية، والصبر واحتمال أذى الخلق والحلم عنهم، وكظم الغيظ وكف الأذى، وعدم الانتقام للنفس إلا أن تنتهك حرمات الله .

والأناة وعدم الطيش والعجلة، والعفة واجتناب القبائح والفواحش في القول والعمل، وفي الأموال والأعراض، والحياء والكرم والجود والسخاء، وترك الشح والبخل والغيبة والنميمة وخيانة الأعين، والشجاعة وعزة النفس والبذل والقوة في الحق، والاستعداد لبذل المحبوب وإخراجه ومفارقته لأمر الله بذلك، والوفاء بالعقود والعهود والأمانات، للأهل والأرحام والأصدقاء، والبر والصلة والإحسان إلى الخلق .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي (١١٦٢) الرضاع، وأبو داود (٤٦٨٢) السنة، وأحمد (٧٣٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٠) .

والعدل والتوسط في شيم النفس بين الإفراط والتفريط، فالجود وسط بين التبذير والبخل، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والحياء وسط بين الوقاحة والجرأة المذمومة، وبين العجز والمهانة والخور والضعف، والحلم وسط بين الغضب والمهانة والذل وسقوط النفس .

والتواضع والعزة المحمودة وسط بين الكبر والهوان، والقناعة وسط بين الحرص والتكالب والتنافس على الدنيا، وبين الخسة والمهانة والتضييع وترك التنافس على المراتب السامية من طاعة الله ومرضاته، والصبر وسط بين الجزع والهلع والتسخط، وبين القسوة والغلظة وتحجر الطبع والفظاظة .

والرحمة وسط بين القسوة والضعف والجبن وترك أوامر الله التي أمر فيها بألا تأخذ العباد فيها رأفة في دين الله، وطلاقة الوجه والتبسم والبِشْر في وجوه البَشَر وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد تكبرًا وعجبًا وطي البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال في الضحك في كل موقف ومع كل أحد حتى تزول الهيبة والوقار .

ومن صفاتهم – صلى الله عليهم وسلم – الإيثار بالدنيا، ومقابلة الإساءة بالإحسان، وسرعة العفو والصفح وقبول المعذرة، والمروءة في اللسان بحلاوة المنطق وطيبه ولينه، والمروءة في الخُلُق بسعته وانشراح الصدر في معاملة الخلق، وفي المال ببذله في مواقعه المحمودة شرعًا، وفي الجاه ببذله للمحتاج إليه، والقرب من الخلق بحيث يجدونه في أزماتهم ومشاكلهم : –

يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، يحسن إلى الخادم والمملوك، فضلاً عن الأهل والأقارب والجيران، يجالس المساكين، ويجيب الدعوة ولو إلى شئ يسير، ويمشي مع الأرملة والمسكين واليتيم في حوائجهم، يبدأ السلام من لقيه، خفيف المؤنة على من صحبه، لا يكلف

غيره مؤنته، هينًا لينًا سهلاً، يعود المريض ويشهد الجنازة، يعطي من حرمه، ويصل من قطعه، ويعفو عمن ظلمه، لا يتكبر ولا يحسد ولا يتعالى على الخلق، ولا يبغي ولا يفخر، ولا يغش ولا يتبع الشهوات، ولا يخاصم لنفسه ولا يعاتب لها، ولا يماري ولا يجادل إلا بالتي هي أحسن، ولا يستقصي حقه، ويغضي عن عيوب من أساء إليه فضلاً عمن سواه إلا لحق الله تعالى، ويتغافل عن عثرات الأهل والأصحاب والناس مع إشعارهم أنه لا يعلم لهم عثرة، يوقر الكبير ويرحم الصغير، ويأتي إلى الناس أفضل مما يحب أن يأتوه إليه، ويحسن عشرة كل من عاشره من أم وأب، وابن وبنت، وأخت وأخ، وقريب وجار، وامرأة وصاحب ومملوك، وكل من يعامله، والله المستعان وعليه التكلان .

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، اللهم ارزقنا رفقة الأنبياء، وعيش السعداء، وموت الشهداء، اللهم صلي على نبينا محمد وسائر النبيين والمرسلين وسلم وبارك عليهم وآلهم وصحبهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

المسألة الخامسة :

لزوم قراءة التاريخ قراءة إسلامية لمعرفة حقيقة الصراع بين الحق والباطل ونهاية وهلاك المبطلين وانتصار المؤمنين في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عدم تدبرهم عاقبة الأمم والسير في الأرض لأجل هذا النظر، وقد أمر الله بالسير في الأرض والنظر والتفكر في من مضى من الأقوام، وكيف كانت مخالفتهم للرسل وتكذيبهم لما جاءوا به سببًا في هلاكهم ودمارهم قال تعالى : ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [النمل : ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧]، وقال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] وأكثر الخلق إما لا يتدبرون ما يرون من آثار من قبلهم وما آل إليه أمرهم، وإنما ينشغل كثير منهم اليوم بالاعجاب ببنائهم وتماثيلهم وما يسمونه بحضارتهم دون أدنى إدراك لما يدل عليه ذهاب ملكهم وسلطانهم ودولهم .

ومنهم من يفسر ميلاد الأمم وموتها والصراعات التي تجري بينها بالأسباب المادية حسب ما أداه إليه نظره الجاهل، وكم شقيت الملايين والأجيال بسبب نظريات قادتها في حقيقة الصراع بين الأمم، فمنهم من فسر كل ما جرى في التاريخ على أنه صراع من أجل المال، وأن المال هو المحرك الأساسي لإرادات البشر، وأن المصالح الاقتصادية هي سبب كل الحروب والاختلافات، والمال عندهم عصب الحياة بل وإلهها المعبود مصداق ما قال رسول الله ﷺ : « **تعس عبد الدينار والدرهم** » (١) .

وهذه الحضارة بل – الانحطاط – الغربي الرأسمالي يقود الحروب ويدبرها لأجل إعلاء سلطان المال واستثمارات رأس المال، وينشر أن الشركات العملاقة العالمية هي التي تتحكم في مصير الدول والشعوب وثرواتها، وقد حاول أصحاب هذه النظرية تصوير فتوح المسلمين في المشارق والمغارب على وفق ذلك – وكذبوا –، فقالوا أن المسلمين أرادوا الخروج من الجزيرة العربية قليلة الموارد في المياة والأرض الصالحة للزراعة وغيرها حتى يُحصلوا الرخاء والسعة، وها هي كتاباتهم في كتب التاريخ التي تحاول أن تدمر في أبناء المسلمين الحس الإيماني

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧) ، وابن ماجة (٤١٣٥) .

والهدف الرباني الذي تحرك المسلمون من أجله قائلين : « **الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة** » (١) .

ويحاولون أيضًا أن يُنسوا المسلمين أن الحروب الصليبية كانت في المقام الأول حروبًا دينية لمحو الإسلام وإطفاء نور الله في الأرض، بزعم أنها كانت بدوافع اقتصادية، ولا شك أن غرض الصليبيين كان مشتملاً على ذلك فهم كما قال الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ** ﴾ [التوبة : ٣٤]، ولكن هذا بالإضافة إلى المقصد الأصلي لهم في رفع راية الصليب .

ومنهم من فسر ما جرى من صراع بين الأمم على أنه صراع الطبقات في المجتمعات، وأنه لابد أن تسود الطبقة العاملة، وهذه الشيوعية وما تفرع منها من الاشتراكية والبعثية والجماهيرية كم أشقت الأمم وقتلت الملايين وانتهكت الحرمات في المشارق والمغارب حتى انهارت وانتهت .

ومنهم من يفسر كل صراع على أنه صراع الشهوة الجنسية، وأنها المحرك الأساسي للإنسان، ومنهم من يفسر حركة التاريخ على أنها صراع لأجل تفوق جنس بعينه على سائر الأجناس، كعقيدة اليهود أنهم شعب الله المختار، واعتقاد الأوربيين بلزوم سيادة الجنس الأبيض، ثم بعضهم يقول بسيادة الجنس الآري وبعضهم الأنجلوساكسوني، وغير ذلك من الخزعبلات التي تشقى بها الأمم وتعذب بها الشعوب، والتي حين ننظر إليها من خلال القراءة الإسلامية للتاريخ في نور آيات القرآن نعلم أنها جميعًا من إضلال الشيطان لهؤلاء الكافرين بتزيين هذه الشهوات البهيمية، أو إرادة العلو في الأرض والفساد ليُعبد غير الله في

---

(١) قاله ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم ملك الفرس قبل القادسية .

الأرض قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٥] .

فحقيقة الأمر أنه صراع حول قضية العبودية، هل تكون لله وحده كما يريد أولياء الرحمن وهم رسل الله وأتباعهم ؟ أم تكون للشيطان والطاغوت بتوسط آلهة كثيرة متعددة ؟ هذه المعركة لا تحسمها القوة المادية ولا أنواع التخطيط والمكر والكيد، إنما يحسمها مدى تمسك أهل الإيمان بعقيدتهم ومنهجهم وثباتهم على ذلك وعملهم بمقتضى منهجهم في مجتمعهم، ودائمًا يبدأ الأمر بقوة أهل الباطل الظاهرة - رغم ضعفها في حقيقة الحال - ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦]، ويتعرض أهل الإيمان للاستضعاف والامتحان والبلاء والبطش والإيذاء، ويقتل منهم من يقتل، ويفتن كثير ممن ينتسب إليهم، ولا يدري حقيقة الطريق، ومع ذلك ومع تمكن الباطل وكثرة عَدده وعُدَده ينقص الله الأرض من أطرافها حولهم بظهور الإسلام وقبول الناس تدريجيًا لنور الإيمان : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الأنبياء : ٤٤]، إلى أن تتربى الطائفة المؤمنة على ما يحب الله ويرضى من العقيدة والعمل والسلوك، وتترابط وتتماسك وتتحاب في الله حتى تكون جسداً واحداً، وتزكو وتنمو وتؤهل لقيادة البشر، ويكتمل فيها الإيمان والإسلام والإحسان، فعند ذلك يأذن الله باضمحلال قوة الباطل ومجيء الحق : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

فتتغير الموازين وتتبدل الأحوال وينزع الله الملك من أعدائه ويؤتيه أولياءه، ويُمكّن لهم في الأرض : يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويأمرون بالمعروف -

الذي يرأسه توحيد الله واتباع رسوله -، وينهون عن المنكر - الذي رأسه الشرك بالله ومخالفة رسوله -، ولله عاقبة الأمور، ويصبح أهل الباطل وعباد الطاغوت مجرد أخبار وأحاديث يتعظ بها أهل الإيمان في الحلقات التالية لهذا الصراع، ويعرفون بها حقيقة طريقهم وطبيعة صراعهم ونهايته المحتومة التي قضاها الله، وإن لم يدركها بعضهم لأنه يسقط شهيداً في الطريق، إلا أنه خطوة على السبيل ولبنة في البناء، وحقه لن يضيع في الدنيا بلسان الصدق الذي يجعله الله له في الآخرين، وفي الآخرة حيث ينصره الله أعظم النصر، ويفوز بالجنات والرضوان، ورؤية وجه الكريم المنان الرحيم الودود نعم المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل، ﴿ **وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ .

ولا تزال طائفة من أهل الحق باقية لا يسلط الله عليها عدوًا تسلطًا يزيل الحق بالكلية، بل يظهرها بالحجة والبيان، ثم بالقوة والسنان، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ : « **لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة** » (١) .

وإن كانت سُنته سبحانه أن تأييد من يبقى منهم بالقوة والسنان، حتى يقهروا أولياء الشيطان، إنما تكون بعد أن يبلغ الأمر مداه، ويشتد البلاء إلى منتهاه، حتى يحصل لهم كمال اليأس من الخلق، الذي هو في حقيقته كمال التوكل على الله سبحانه، بل ويحصل لهم كمال اليأس من أنفسهم أن يهدوا أحداً من الخلق، أو أن ينصروا بأنفسهم الدين، وربما استعجل من استعجل حتى يظن بالله الظنونا، وحتى يقولوا: ﴿ **مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ** ﴾ ، وعند ذلك يأتي النصر القريب كما تجده في الآية التالية وهي :

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٦٤١) بلفظ « حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » ، ومسلم (١٥٦) بلفظ « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » ، والترمذي (٢٢٢٩) ، وأبو داود (٤٢٥٢)

النصر والفرج بعد الشدة واليأس

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾

ما أحوجنا إلى تدبر هذه الآية الكريمة على وجوه قراءتها – التي كلها حق ومن عند الله – فكل وجه من وجوه قراءتها، وكذا وجوه تفسيرها، له من الفوائد العظيمة التي يحتاجها السائرون إلى الله على طريق الرسل المحفوف بالمكاره والآلام، فلنستعرض أولاً ما ورد من وجوه القراءة وما فيها من وجوه التفسير ثم نذكر فوائدها .

قال ابن كثير – رحمه الله –: « وفي قوله: ﴿ كُذِبُوا ﴾ قراءتان؛ إحداهما: بالتشديد ﴿ كُذِّبُوا ﴾، وكذلك كانت عائشة ﵂ تقرؤها، قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة: أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ قال: قلت : أَكُذِبُوا أم كُذِّبُوا ؟ فقالت عائشة: ﴿ كُذِّبُوا ﴾ فقلت : قد استيقنوا أن قومهم قد كذبوهم، فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ فقالت: معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت : فما هذه الآية ؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر النصر ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك .

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال : أخبرني عروة : فقلت: لعلها ﴿ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مخففة ؟ قالت : معاذ الله ! انتهى ما ذكره .

وقال ابن جريج : أخبرني ابن أبي مليكة : أن ابن عباس قرأها : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ خفيفة . قال عبد الله - هو ابن أبي مليكة - ثم قال لي ابن عباس : كانوا بَشَرًا ! ثم تلا : ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ . قال ابن جريج : وقال لي ابن أبي مليكة : وأخبرني عروة، عن عائشة : أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت : ما وعد الله محمداً ﷺ من شئ إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل، حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم . قال ابن أبي مليكة في حديث عروة : كانت عائشة تقرؤها : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ مثقلة، للتكذيب .

وقال ابن أبي حاتم : أنا يونس بن عبد الأعلى - قراءة - أنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال : جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال : إن محمد بن كعب القرظي يقول هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ فقال القاسم : أخبره عني ؛ أني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ تقول : كذبتهم أتباعهم . إسناده صحيح أيضًا .

والقراءة الثانية : بالتخفيف، واختلفوا في تفسيرها : فقال ابن عباس ما تقدم .

وعن ابن مسعود فيما رواه سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله : أنه قرأ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مخففة، قال عبد الله : هو الذي تكره .

وهذا عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، مخالف لما رواه آخرون عنهما .

أما **ابن عباس** : فروى الأعمش، عن مسلم عن ابن عباس في قوله : ﴿ حَتَّىٰ

إذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ قال : لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ .

وكذا رُوي عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية وعلي ابن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس بمثله .

وقال ابن جرير : حدثني المثنى، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا شعيب، حدثني إبراهيم بن أبي حرة الجزري قال : سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال : يا أبا عبد الله، كيف تقرأ هذا الحرف، فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ . قال : نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدِّقوهم، وظن المرسَل إليهم أن الرسل قد كَذَبوا، قال : فقال الضحاك بن مزاحم : ما رأيت كاليوم قط رجلاً يُدْعَى إلى علم فيتلكأ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً .

ثم روى ابن جرير أيضًا من وجه آخر : أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه وقال : فرج الله عنك كما فرجت عني .

وهكذا رُوي من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك . وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف، حتى أن مجاهداً قرأها ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا ﴾ بفتح الذال . رواه ابن جرير، إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير في قوله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم، أي : وظن الكفار أن الرسل قد ﴿ كُذِبُوا ﴾ ـ مخففة ـ فيما وعدوا به من النصر .

وأما ابن مسعود ؛ فقال ابن جرير : حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد ابن فضيل، عن جحش بن زياد الضبي، عن تميم بن حذلم قال : سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول في هذه الآية : ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا لهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم ﴿قَدْ كُذِبُوا﴾ - مخففة - .

فهاتان روايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم ، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير ووجّه المشهور عن الجمهور، وزيّف القول الآخر بالكلية، ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم . » انتهى كلام ابن كثير .

فيتحصل من ذلك أن قوله تعالى : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ يقرأ على وجهين، كلاهما ثابت بلا شك : -

الوجه الأول : ﴿كُذِبُوا﴾ وهي قراءتنا المشهورة (قراءة عاصم وحمزة والكوفيين وخلف وأبو جعفر) وعلى هذا الوجه فله ثلاثة أوجه في التفسير :

الأول : أن الرسل قد ظنت أنها قد كُذِبت، وهذا هو الثابت بأسانيد صحيحة عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم ، حيث قال ابن عباس : « كانوا بشراً » وقال : ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وهو يوضح معنى الظن هنا عند ابن عباس رضي الله عنه ، وأنه مجرد الخواطر التي تطرأ على القلب ولا تستقر، من جنس : « ما وقع لرسول الله ﷺ في فترة انقطاع الوحي حين همّ أن يتردى من فوق جبل » (١)، وهذه كلها عوارض البشرية التي تقع للرسل حتى يكونوا قدوة للمؤمنين في دفع هذه الخواطر، فهي ظنون مرجوحة مطرودة يجاهدها المؤمن ليصل إلى علم اليقين وحق اليقين، والرسل

---

(١) صحيح : معنى حديث رواه البخاري (٦٩٨٢) التعبير ، ومسلم (١٦٠) الإيمان .

تصل بعدها إلى عين اليقين، حتى إذا وقعت هذه الظنون في نفس المؤمن لشدة الحال لم يقنط من رحمة الله، ولم يخدعه الشيطان عندها أنه قد زال إيمانه، بل هذه طبيعة القلب البشري ومجرد ورود الخواطر لا يمكن منعه ابتداءً، ولا يحاسب عليه الإنسان ما لم يصل إلى الشك أو أن يظن الظن الراجح بالاعتقاد الفاسد، وهذا الذي أنكرته عائشة رضي الله عنها أن تكون الرسل قد ظنت، أي : غلب على ظنها أو اعتقدت ذلك في ربها أو حتى شكت، وهذا مما لا نزاع فيه بين أحد من أهل السنة وأهل الإيمان إن شاء الله .

ولما لم تكن عائشة رضي الله عنها تعلم بهذة القراءة وتوجيهها الذي قاله ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم أنكرتها .

الوجه الثاني على قراءة ﴿ كُذِبُوا ﴾ : أن بعض أتباع الرسل ظنوا أن الرسل قد كُذِبت وهذا يحتمل أمرين : —

الأول : أن أتباع الرسل من المؤمنين وقع لهم ما ذكر في الوجه الأول، وهو خواطر ووساوس دفعوها بحمد الله وما استقرت في النفوس .

الثاني : أن يكون بعض أتباع الرسل قد فتنوا من شدة الحال، كمن يعبد الله على حرف ومن يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله .

والاحتمال الأول أظهر عندي لأن الله وصف من قال : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ بالإيمان، فجعل سبحانه استبطاء النصر لا ينافي الإيمان، فدل على أنه الخواطر لا الشكوك ولا الظنون الراجحة ولا اليقين بالأولى .

الوجه الثالث على قراءة ﴿ كُذِبُوا ﴾ : أن أقوام الرسل من الكفار ظنوا أن الرسل قد كذبت وأنه لم يأتها شيء لما استبطأ النصر، وهو هنا الظن الراجح عندهم واعتقادهم الفاسد كما قالت أم جميل لرسول الله ﷺ لما أبطأ عليه جبريل : « ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا

قَلَى ﴾ (١) » [الضحى : ٣] في الصحيحين دون تسميتها أم جميل .

وأنت إذا تأملت أقوال السلف بمجموعها، وعلمت ما يجري في واقع الحال عند المحن والشدائد، وجدت أن مجموع أقوالهم يصف تفاصيل ما يقع لطوائف مختلفة ونوعيات متفاوتة كلها موجودة في الواقع .

ومن فتّش في نفسه وراقب خواطره واستوعب كذلك ما يقع لإخوانه والناس حوله، خاصة عند الضربات المتتابعة والهزائم المتتالية التي قد تحل بالطائفة المؤمنة في مراحل مواجهتها الأولى مع الباطل، وشدة التفاوت بين القوة الظاهرة للباطل والاستضعاف الشديد للمؤمنين، علم فعلاً أن حقيقة الواقع هو في مجموع أقوال السلف وإن كان في نهاية الأمر بعض الأقوال أليق بظاهر الآية لكن غيرها ملازم لها غير معارض، فأما قول ابن عباس رضي الله عنهما كانوا بشراً يعني أن الرسل قد ظنت - أي جاءتها خواطر - أنها قد كُذِبت .

ورغم أن هذا يضيق به البعض ويكرهه كما قال ابن مسعود رضي الله عنه لمسروق: « هو الذي تكره »، لظنه أنه مخالف لعصمة الرسل واللائق بهم، لكنه والله عند التأمل والتجربة من أعظم أسباب الراحة والطمأنينة لعباد الله المؤمنين لأن لهم في الرسل الأسوة الحسنة، وورود الخواطر حتى بظن أن الوحي ما أتاهم أو أن النصر لن يأتي لا ينافي ماثبت من عصمتهم، فإن الخواطر من عوارض البشرية لا دليل على امتناعها على الرسل، إنما المنع من الاعتقاد الباطل أو الشك، أما ورود الخواطر التي يجاهدونها ويدفعونها فأين في الكتاب والسنة أو الإجماع المنع من ذلك، وقد ورد نحو من هذا في الكلام على هم يوسف، وأما كون هذا من أسباب راحة المؤمنين لأن لحظات الشدة قد يكون معها هذه الخواطر والتي يتفاوت الناس كثيراً جداً في حجمها ومدتها وبقائها، فمنهم من تأتيه كوميض

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١١٢٥) تفسير القرآن ، ومسلم (١٧٩٧) الجهاد والسير ، وأحمد (١٨٣٢٧) واللفظ له .

برق مفزع لصاحبه يزول بأسرع ما يكون ويأتيه بعده برد اليقين ومطر الإيمان المتتابع الذي يثمر في أرض القلب أنواع الخيرات والثمرات الزكية ويدرك به فضل الله عليه في التثبيت وأنه لا يملك لنفسه شيئًا وأنه والله لولا الله ما اهتدى .

وتأمل قول الله – عز وجل – لنبيه محمد ﷺ : **﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾** [الإسراء : ٧٣-٧٥] .

ولا شك أن الركون إلى الكفرة في افتراء غير الحق على الله – عز وجل – هو من هذا الجنس من الخواطر، تزول ولا تستقر، يعرف بها المؤمن – اتباعًا لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – « **أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فأيما قلب أراد أن يقيمه أقامه ، وأيما قلب أراد أن يزيغه أزاغه** » (١) ولا يزال دأبه في كل لحظة الالتجاء إلى الله سبحانه، والفرار منه إليه، قائلاً داعيًا متضرعًا: « **اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك** » و « **اللهم يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك** » .

وهذه الخواطر ليست شكًا، بل هي مرحلة بين طمأنينة القلب التي سألها إبراهيم، وبين الشك الذي نفاه رسول الله ﷺ عن إبراهيم عليه السلام حين قال : « **نحن أحق بالشك من إبراهيم** » (٢)، وهناك من المؤمنين من تتكرر عليه هذه الخواطر أكثر من ذلك، ويجد بسببها ما أن يخر من السماء أهون عليه من أن يتكلم به، ويظل مجاهداً لذلك كثيراً، وهذا صريح الإيمان كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) القدر ، والنسائي (٧٧٣٨) في الكبرى ، والترمذي (٢١٤٠) ، وابن ماجه (١٩)، واحمد (٦٥٦٩) ، وقد ورد في بعض روايات الحديث الدعاء الذي يليه بلفظ : « **يا مقلب القلوب** » ، وفي بعضها بلفظ : « **يا مصرف القلوب** » .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٣٣٧٢) احاديث الأنبياء ، ومسلم (١٥١) الإيمان ، وابن ماجة (٤٠٢٦) الفتن ، وأحمد (٨١٢٩) .

وعساه باستمرار الجهاد أن يصل إلى برد اليقين ومهيمنية (١) الصديقين، فتنقطع عنه الوساوس والخطرات، ويلحق بمن سبقه من السابقين بالخيرات .

وإخبار القرآن عن وقوع الخواطر من الرسل وأتباعهم المؤمنين – على الوجهين من التفسير – يبرد في قلوب المؤمنين حر هذا الجهاد، ويثبت قلوبهم، ويبشرهم بأن هذا الذي وجدوه لا يدل على انتفاء الإيمان من قلوبهم – وهو أحب شئ إليهم –، وزواله وحصول ضده من الشرك أو التكذيب أكره عندهم من الحرق بالنار، بل إيمانهم بحمد الله باق، وعن قريب تزول هذه الخواطر، بل ويزول تسلط الأعداء، ويأتي نصر الله القريب .

وهناك صنف ثالث لا يعرف حقيقة الطريق، ويظن أنه لا يفتن، بل تكفيه دعوى الإيمان، فإذا جاءت المحن والفتن افتتن، وظن أنه ﴿ **مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا** ﴾ وأنه ﴿ **غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ** ﴾، وهذا النوع الذي في قلبه مرض، ولو تأملت الآيتين في الأنفال : ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٤٩]، وفي الأحزاب : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا** ﴾ [الأحزاب : ١٢] لوجدتهما يذكران نوعين من الناس (المنافقين) و (الذين في قلوبهم مرض)، فالمنافقون في الأصل يعتقدون أن الرسل قد كذبت، أو عندهم شك في ذلك ابتداءً، وهذا مثل قول من قال ظنوا أي: ظن الكفار أن الرسل قد كذبت، وأما الذين في قلوبهم مرض، فهم الذين كان إيمانهم وعبادتهم على حرف، فعند الفتنة افتتنوا، فهم في الأصل لم يكونوا منافقين النفاق الأكبر، ولكنهم عند الفتنة سقطوا فيه والعياذ بالله، ويدلك على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ** ﴾ [الحج : ١١]،

---

(١) أي : مراقبتهم لله سبحانه .

فهو دليل على أنه قبل الفتنة لم يكن منقلبًا ولم يكن خاسرًا الدنيا والآخرة، وإنما خسر الدنيا والآخرة لما انقلب لما جاءته الفتنة، فكان عنده قبل ذلك إيمان ناقص ضعيف، لا يثبت عند المحن، لو شككك لشك، ولو فتن لافتتن، وهو كحال مسلمة الأعراب – على قول جمهور المفسرين – أنهم لم يكونوا منافقين النفاق الأكبر، وكان في قلوبهم مرض، فهم مسلمون وليسوا بمؤمنين الإيمان الواجب، وكذا من قال الله فيهم: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٤]، ولو كانوا قبل دخول الكفار عليهم المدينة – لو حدث – من نواحيها منافقين، لفرحوا بهم ولما احتاجوا أن يسألوهم الفتنة أي : الشرك، بل كانوا يبادرون إليها، وأما هؤلاء فهم يؤتون الفتنة بعد توقف قليل ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾، وهذه النوعية ضعيفة الإيمان موجودة في الصف المسلم، ووجودها في المراحل الأولى للدعوة خطر كبير عليها، لأن الأوائل هم الذين سيتصدرون بعد حين في قيادة الأمة بل العالم، إمامةً وعلمًا، وروايةً ودرايةً، وتربيةً وتوجيهًا، ودعوةً وجهادًا، وملكًا وسلطانًا، فلو بقيت الأمور بلا تمحيص، لتصدر مثل هؤلاء، فحصل من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، فيقدر الله الابتلاء الذي يصل إلى حد اليأس من الناس ومن النفس، وحتى تأتي الخواطر السيئة لأهل الإيمان، وحتى تحصل الفتنة لهذا الصنف من الناس، فيتخلف ويتراجع، ويفتن ويشك، وينسحب ويتساقط من الزلزلة، فيصفو الصف المؤمن، ويعرف فيه من يصلح ومن لا يصلح .

وأما الكفار والمنافقون فهم على ظنهم واعتقادهم الفاسد من البداية، لكنهم يرون في استبطاء النصر دليلاً على ظنهم، وهذه فتنة لهم ليزدادوا إثمًا وطغيانًا وكبرًا، ثم يأخذهم العزيز المقتدر، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وأقرب الأقوال عندي إلى ظاهر الآية، أن الضمير يعود على أقرب مذكور

وهم الرسل، وأنهم خطرت ببالهم هذه الخواطر التي ثبتهم الله عندها، وصرفها عنهم، ورزقهم برد اليقين وعلم اليقين وحق اليقين، ثم جاء النصر فكان عين اليقين، نسأل الله أن يرزقنا ذلك باتباعهم والاقتداء بهم .

ومن لوازم هذا القول أن أتباعهم المؤمنين قد حدث لهم مثل ذلك، بل وزيادة عليه كما ذكرنا، ومن لوازمه أيضاً أن من فتن من هؤلاء الأتباع، ومن كان مفتوناً أصلاً من الكفار والمنافقين، تأكد لديهم الظن الكاذب والوهم الفاسد ظن السوء، باضمحلال الدين وهزيمة المؤمنين، هزيمة لا نصر بعدها، فجاء النصر بعد ذلك ماحقًا لعقائد المبطلين، ونجاةً لعباد الله المؤمنين ﴿ **جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ .

وأما قراءة عائشة رضي الله عنها وتفسيرها : ﴿ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا** ﴾ أن الرسل ظنت أن أتباعهم كذبوهم – فهي قراءة ثابتة بلا شك وهي قراءة نافع وأبي عمرو ويعقوب – والمعنى الذي ذكرته رضي الله عنها معنى حق أيضًا، وهو يكمل جانبًا آخر من صورة الموقف عند البلاء وهو أن شدة الأمر تجعل كثيراً من الناس يفتن حتى يظن الرسل أن أتباعهم الخُلَّص سيلحقون بالمنسحبين المفتونين وأنهم يبقون وحدهم .

وهذا والله من أعظم المعاني الإيمانية فهم عازمون على السير إلى الله ولو كذبهم الناس كلهم، كما قال النبي ﷺ : « **والنبي وليس معه أحد** » (١) فهم لا يستوحشون من قلة السالكين بل وانعدامهم ليكونوا بذلك الأسوة الحسنة لمن يأتي بعدهم من المؤمنين، حين يجدون من معهم يتركون الطريق ويتركون نصرة الدين، وتهمهم أنفسهم ويظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية من إنكار القدر، فظن أن الأمور إنما تتم حسب تخطيط الكفار ومكرهم وليس بأمر من الله وقدره هو من ظن الجاهلية، وكذلك إنكار الحكمة في حصول التسلط العنيف

---

(١) متفق عليه : سبق تخريجه ص (٢٦٥) .

والضربات المتتابعة مع أن المؤمنين على الحق والكفار على الباطل فيحصل الريب والشك لطوائف، وكذلك ظن اضمحلال الدين وكل هذا من ظن الجاهلية، وهو والله يقع من طوائف عند شدة المحنة، ونسأل الله العافية، فعندما يجد المؤمنون والدعاة والمجاهدون بعض من معهم يقع ويسقط في الفتن، يتذكرون حال الرسل الذين استيأسوا من إيمان قومهم وظنوا أن أتباعهم قد كذبوهم، ومع ذلك فهم عازمون على الثبات والسير في الطريق ولو وحدهم، فيعزمون مثلهم على ذلك، وهذا من أعظم وأربح التجارات مع الله – سبحانه – فهو يثاب هذا الثواب بعزمه على السير إلى الله وحده ولو لم يقع ذلك، لكنه يقدر له ما يظن معه انسحاب كل من معه ليعزم على الانفراد لله ثم يأتيه النصر فيجمع الله له خير الدنيا والأخرة كما قيل :

ولواحد كن واحداً في واحد أعني طريق الحق والإيمان

أي : لله الواحد كن سائرًا ولو وحدك في طريق واحد هو طريق الحق والإيمان .

(من نونية ابن القيم) .

وأما إنكار عائشة رضي الله عنها للقراءة الأخرى وهي متواترة عندنا الآن، فلأنها لم تسمعها من رسول الله ﷺ ولم تبلغها من طريق تقوم بها الحجة عندها فهي معذورة بعدم البلاغ، ففيه دليل على أن من أنكر شيئًا من الدين – بل ومن القرآن – لم تبلغه الحجة به فهو معذور، ولا عذر لمن بلغته الحجة، والله أعلم .

وبهذا الجمع – بحمد الله – يتضح لك فائدة جمع أقوال السلف في تفسير الآية، وكذا جمع القراءات وتوجيهها، فكل منها يدلك على معنى حق من معاني الإيمان ويتناول جانبًا من جوانب الواقع يعالج ما يقع في النفوس ويشفي به الله صدور المؤمنين فاللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا .

وأما قوله تعالى : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ فقريء ﴿ نُجِّيَ ﴾بالبناء للمجهول، وقريء ﴿ فَنُنَجِّي مَن نَّشَاءُ ﴾ فالله هو الذي نجّى من يشاء بفضله ورحمته ومنته، وجاء النصر في أشد لحظات المحنة، وهكذا كانت هذه السورة من المبشرات لرسول الله ﷺ بقرب الفرج والنصر والنجاة، وقد كان، ونزل بأس الله بالكافرين ﴿ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

اللهم إنا نسألك نصرك العزيز وفرجك القريب، ونسألك أن تنزل بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين بأعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمنافقين وسائر الكفرة والظالمين الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك ولا يؤمنون بوعدك، وقد طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربنا سوط عذاب، إنك ربنا بالمرصاد . . آمين .

القرآن هدى ورحمة

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

قال ابن كثير – رحمه الله – : « يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين : ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وهي العقول، ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أي : وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي : يكذب ويختلق ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير .

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والأخبار عن الأمور الجلية وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب – تبارك وتعالى – وبالأسماء والصفات وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم الميعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة » أ.هـ.

وقد ذكر العلامة المبارك الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي – رحمه الله – في تفسيره جملة من العبر والفوائد في قصة يوسف عليه السلام، مضى بعضها في القصة، لكن أحب أن أذكرها هنا كما ذكرها جملة، مع تعليق على بعضها رأيت الصواب في خلافه، والله أعلم .

قال - رحمه الله - : « فصلٌ في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ وقال في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد فمن ذلك : —

أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنقلات، من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك مَنْ قصها فأحسنها ووضحها وبينها .

ومنها : أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكباً له ساجدين، وجه المناسبة فيها : أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها فكذلك الأنبياء (١) والعلماء زينة للأرض وجمال وبهم يُهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل

---

(١) قوله — رحمه الله — هنا « وكذلك الأنبياء . . . » وكذا قوله بعد عدة فوائد « ولهذا في أصح الأقوال أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى ﴿ وأوحي إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ وهم اولاد يعقوب الإثنى عشر وذريتهم ... » هذا ليس بظاهر إذ قد دل القرآن على عدم نبوتهم بما فعلوا مع ابيهم واخيهم - وقد سبق - ولم يدل دليل ظاهر على نبوتهم بعد ذلك وليس في الكتاب ولا في السنة ما يدل على ان الأسباط هم أولاد يعقوب الإثنى عشر وذريتهم بل كما سبق نقله عن ابن كثير — رحمه الله — ان الاسباط هم أنبياء بني إسرائيل الذين هم من ذرية أبناء يعقوب الإثنى عشر وكما لم يلزم ان يكون ذرية هؤلاء كلهم أنبياء - وهذا بلا خلاف بين أهل العلم - فكذلك لا يلزم ان يكونوا هم انبياء ، ومما يدل على عدم نبوتهم ان الأفعال التي ارتكبوها مما ينفر عنهم حتى لو كان قبل النبوة فتوبتهم تقتضي محو ذنوبهم لا إثبات اهليتهم لمقام النبوة ، وايضا قد ذكر يعقوب عليه السلام ان الله يتم نعمته على آل يعقوب باجتباء يوسف بالنبوة فهو يشعر بانه هو المجتبي من أبناء يعقوب بمقام النبوة لا غيره ، والله اعلم .

أعظم نوراً وجرماً، لما هو فرع منه فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته (١)، ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات فكانت لأبيه وإخوته، ومن المناسبة أن الساجد معظّم محترِم للمسجود له، والمسجود له معظَّم محترَم، فلذلك دلّ ذلك على أن يوسف يكون معظماً محترماً عند أبويه وإخوته، ومن لازم ذلك أن يكون مجتبي مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا الذي رأى أنه يعصر خمراً، أن الذي يعصر في العادة يكون خادماً لغيره، والعصر يُقصد لغيره، فلذلك أوّله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن .

وأوّل الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأن جلد رأسه ولحمه وما في ذلك من المخ أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل .

وأوّل رؤيا الملك للبقرات والسنبلات، بالسنين المخصبة، والسنين المجدبة ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه .

---

(١) الظاهر والله اعلم ان الشمس اباه والقمر امه ، وما ذكره الشيخ من المناسبة بتانيث الشمس والقمر والكواكب مذكرات فكانوا اباه وإخوته غير ظاهر فالتانيث هنا مجازي في لغة العرب ، وليست بلغة يوسف وأهله ، ثم إن حاجة الناس إلى نور الشمس وبقاءهم بها اضعاف اضعاف حاجتهم وبقاءهم بنور القمر ، فكيف يكون ابوه هو القمر وامه الشمس ، بل نور القمر تابع لنور الشمس فالخير الذي عند امه هو من اثر الخير الذي عند ابيه يعقوب ﷺ ، ونور الشمس يحتاجه الناس كل يوم ونور القمر يستغنون عنه أياماً فناسب ذلك المعنى ان نور النبوة يحتاج إليه على الدوام والنور الذي عند اهل الفضل والعلم من أهل بيتهم يستغنى عنه بغيره احيانًا ويقوم مقامه ، فالمعاني المناسبة في ان الشمس أباه والقمر امه أكثر بكثير من العكس ، والله اعلم .

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقى الماء عليها، وإذا أخصبت السنة سمنت، وإذا أجدبت صارت عجافًا، وكذلك السنابل في الخصب تكثر وتخضر، وفي الجدب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض .

ومنها : ما فيها من الدلالة على صحة نبوة محمد ﷺ؛ حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساءً، وهو أميّ لا يخط ولا يقرأ وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .

ومنها : أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ .

ومنها : أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ .

ومنها : أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم وحصل لهم ما حصل له بسببه كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العزّ والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف .

ومنها : أن العدل مطلوب في كل الأمور، لاسيما في معاملة السلطان رعيته وما دونه حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدّم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيهم (١) .

---

(١) الاستدلال على لزوم العدل بين الأولاد بان الاخلال به في تقديم يعقوب يوسف في المحبة هو سبب اختلال الأحوال وجرى ما جرى استدلال غير صحيح بالمرة فالواجب العدل في العطية أما الحب فهو تابع للصفات والأعمال وحق ليعقوب ان يقدم يوسف فهل يشك في ذلك من ذاق طعم القصة وعلم صفات يوسف وقد اجتباه ربه واصطفاه فكيف لا يحبه ابوه اكثر واما فساد الأحوال فإنما وقع من الجهل والحرص والحسد الذي كان عليه إخوة يوسف لا في إيثار يعقوب ليوسف وكيف يجوز أن ينسب إيثار يؤدي إلى فساد واختلال إلى نبي معصوم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وما عاتبه الله ولا ذمه قط على ذلك ولو كان ذنبًا لتاب منه، وراجع ما ذكرناه عند قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾ تجد فيه الكفاية إن شاء الله .

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص، والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما طال البحث، حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب وآثارة التابعة والسابقة واللاحقة .

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه فالله خير الراحمين .

ولهذا - في أصح الأقوال (١) - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة .

ومنها: ما منّ الله به على يوسف عليه السلام من الحلم، والعلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتم ذلك بأنه لا يُثرب عليهم ولا يعيرهم به ثم بره العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق .

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من

---

(١) راجع ما ذكرناه من ترجيح عدم نبوتهم في ص (٣٢٤)

ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف لّما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضًا، وقال قائل منهم: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعًا حرامًا، لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلامًا رقيقًا، وسماه الله شراءً، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم (١).

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضًا من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توحدها(٢) بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الهمّ الذي هم به يوسف بالمرأة، ثم تركه لله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن الهم داعي من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي

---

(١) الاستدلال على صحة بيع ما لم يعلم حقيقة مالكه لتداول الأيدي له بالقصة فيه نظر، فإن بيع يوسف كان حرامًا باطلاً قطعًا، وإنما سماه الله شراء في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ﴾ لواقع الحال حتى ولو كان باطلاً، كما تقول بيع الخمر حرام وباطل فتسميته بيعًا لا يدل على صحته، ولذا لم يحتج يوسف عند خروجه من السجن إلى عتقه لأنه حر أصلاً، وجريان الرق عليه كان ظلمًا وعدوانًا ممن علمه أو تسبب فيه أو رضي به، فلو ان رجلاً علم أن رقيقه ومملوكه كان قد بيع ظلمًا وهو حر لوجب عليه فورًا إطلاقه وعدم استخدامه فليس برقيق عنده ولا عند غيره، وإن كان لا يلزمه قبول خبر عبده بغير بينة لكنه لو صدقه للزمه إطلاقه، وما وقع من عزيز مصر وغيره لا دليل فيه إذ هم كفار، وأقل أحوالهم ظلمة، ولا إقرار في القرآن على فعلهم، وإن كان أصل المسألة التي ذكرها الشيخ صحيحًا وهو أن الشيء المتداول بين الأيدي ولم يُعلم أنه كان على غير الشرع انه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء . . . إلى آخرها، وإنما الكلام على صحة الاستدلال على ذلك بالقصة، والله أعلم.

(٢) توحدها يعني انفرادها وخلوتها به.

النفس والهوى، فكان ممن ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النازعات : ٤٠] ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم : «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله » (١) وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزمًا، ربما اقترن به الفعل .

ومنها : أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصًا لله في جميع أموره فإن الله يدفع ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ على قراءة من قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء .

ومنها : أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفرَّ منه ويهرب غاية ما يمكنه، وليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها فرَّ هاربًا، يطلب الباب ليتخلص من شرها .

ومنها : أن القرائن يعمل بها عند الإشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، وإذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجارٌ وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر، من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قدِّ القميص، واستدل بقدِّه من دبره على صدق يوسف وكذبها (٢) .

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على

---

(١) صحيح : سبق تخريجه ص (٦٦) .

(٢) راجع ما ذكرناه من العمل بالقرائن عند هذه الآية ، وقد قدمنا ان الراجح ان القرائن تستعمل للوصول إلى الاعتراف ، لا انها يقضى بها مطلقًا في كل الأحوال بلا بينة ولا اعتراف والتوسع في الحكم بالقرائن المجردة يفتح أبوابًا من المفاسد عديدة لذا لا يقول به عامة العلماء .

الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصًا إذا كان معروفًا بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملاً، فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه ولهذا سمى الله هذا الحاكم شاهداً فقال: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لُمْنَها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾، وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة من المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾، وقالت بعد ذلك: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾، وقالت النسوة: ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين – إما فعل معصية وإما عقوبة دنيوية – أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته لقول يوسف عليه السلام: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر،

وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصيةً ضاراً لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية في الشدة، فيوسف عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتيين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رآى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنّا فيه الظن الحسن، وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما متشوقين لتعبيرها عنده، رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما، ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبيّن فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد، أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف – لما سأله الفتيان عن الرؤيا – قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناجٍ من الفتيين: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف

عليه السلام قد قال ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف، أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائلاً مستفتيًا عن تلك الرؤيا فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جوابًا تامًا من كل وجه .

ومنها : أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلّهم – مع ذلك – على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته .

ومنها : أنه لا يُلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن .

ومنها : فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية ؛ وأنه أفضل من الصورة ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف – بسبب جماله – حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته .

ومنها : أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرائي داخل في الفتوى لقوله للفتيين : ﴿ **قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** ﴾ ، وقال الملك : ﴿ **أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ** ﴾ ، وقال الفتى ليوسف : ﴿ **أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ** . . . ﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم .

ومنها : أنه لا بأس أن يخبر الإنسان بما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾، وكذلك لا تذم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله؛ فبهذه الأمور ينهى عن طلبها والتعرض لها .

ومنها : أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان : الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى : ﴿ **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ .

ومنها : أن جباية الأرزاق – إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم – لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه .

ومنها : حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً، حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله .

ومنها : مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته : ﴿ **أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** ﴾ .

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه وزعموا أن الذئب أكله: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾، وقال لهم في الأمر الآخر: ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ فهم في الأخيرة – وإن لم يكونوا مفرطين – فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع بل جائز، وإن كان لا يقع شئ إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضًا من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: ﴿ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾.

ومنها: جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع التَحَيُّلُ على إسقاط واجب أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يحب أن يطلع عليه أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها منه، موهمًا أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ ولم يقل (من سرق متاعنا)، بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر وأنه يبقى عند أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبينت الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه، إما بمشاهدة أو خبر من يثق به وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة لا تقصر عن خمس عشرة سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، ثم ازداد الأمر شدة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفّى بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾، فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى (١) ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجةً واضطرارًا، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر، ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد – بذلك – إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر أو نحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾، ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب، لقوله: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

---

(١) يعني اشد.

ومنها : أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى ليحدث لذلك شكراً كلما ذكرها لقول يوسف عليه السلام : ﴿ **وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ** ﴾ .

ومنها : لطف الله العظيم بيوسف حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات .

ومنها : أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة لقول يوسف عليه السلام : ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ .

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك .

فنسأله تعالى علماً نافعاً، وعملاً متقبلاً، إنه جواد كريم » (١) .

---

(١) عن كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله تعالى - ، صـ (٤٠٧ - ٤١٢) .

الخاتمة

وبعد ...

فبفضل الله ورحمته، تم ما أردت جمعه من المعاني والفوائد من هذه القصة العظيمة والسورة الكريمة، والتي هزت وجداني، وتهز وجدان كل مسلم ومسلمة، وما أراني إلا نقبت قشرة صغيرة عن لب عميق، كلما تدبر القارئ وتفهم السامع متضرعًا لمولاه، سائلاً منه النعمة والفضل، كلما وجد المزيد، وذاق حلاوة القرآن وازداد يقينًا أنه كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد .

اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي .

اللهم علمني منه ما جهلت، وذكرني منه ما نسيت، وارزقني تلاوته آناء اليل وآناء النهار، على الوجه الذي يرضيك عني .

اللهم ما كان من حق وصواب فيما كتبت، فأنت المنان به، ومنك الفضل والرحمة، فتقبله مني واجعله خالصًا لوجهك، ونوراً لي في حياتي وفي قبري ويوم القيامة، ونوراً لأهلي وبنيّ وإخواني وأحبابي والمسلمين .

اللهم ما كان من خطأ وزلل في ما كتبت، فمني ومن الشيطان، وأنت الغفور الرحيم، أرحم الراحمين، خير الغافرين، الودود الكريم، غافر الذنب وقابل التوب، الستير، فأسألك بعفوك ورحمتك، وفضلك وعزتك، وحكمتك

وقدرتك، أن تغفر لي مغفرة من عندك وأن ترحمني من لدنك رحمة تغنني بها عن رحمة من سواك .

اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أن ترزقني مرافقة نبيك وخليلك الذي اصطفيته واجتبيته، وفضلته على جميع خلقك، واخترته لتنزل على قلبه كتابك الكريم، عبدك ورسولك محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، وأن ترزقني مرافقة جميع أنبيائك ورسلك، وخاصة إبراهيم وموسى وعيسى ونوح وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف - عليهم الصلاة والسلام -، ومرافقة الصديقين والشهداء والصالحين، في الفردوس الأعلى بغير حساب ولا عذاب، أسألك ذلك لنفسي ووالديَّ وأهلي وذريتي وإخواني وأخواتي وأحبابي، في من اجتبيت من عبادك الصالحين .

اللهم اجز من أعان على كتابتها ونشرها خير الجزاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

ياسر برهامي

حفظه الله

فهرس

الموضـــوع | رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٥
تفسير البسملة	٧
الحروف المقطعة في أوائل السور	١٠
بين يدي القصة	١٢
أحسن القصص	١٤
رؤيا يوسف عليه السلام	١٧
التربية الإيمانية وأثرها	٢٥
عبر وعظات	٣٢
المؤامرة الخبيثة	٣٣
الوعد الكاذب	٤١
حزن يعقوب عليه السلام	٤٣
يوسف عليه السلام في منحة الجب	٤٦
مكر وخداع وكذب	٤٩
الصبر الجميل	٥١
يوسف عليه السلام يباع رقيقًا	٥٣
تمكين في بيت العزيز	٥٦
محنة جديدة	٦٣
عفة وإخلاص	٦٩
الفرار من المعصية	٧٥
سلبية وضعف	٨٠
كيد نسائي	٨٥
حكم جائر وقرار ظالم	١٠٢
يوسف عليه السلام في منحة المحنة	١٠٤
دعوة إلى الله في كل مكان	١٠٨
تأويل رؤيا الفتيين	١٢٠
الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل	١٢٢
رؤيا الملك وبداية الفرج	١٣١

- تأويل رؤيا الملك ١٣٥
- ظهور البراءة ١٣٨
- الابتلاء بالملك ١٥١
- التمكين ١٧٧
- مجيء الإخوة ١٨٠
- حديث يوسف عليه السلام مع إخوته ١٨٤
- نكأوا الجرح القديم ١٨٩
- مسئولية خاصة وميثاق من الله ١٩٤
- توكل يعقوب عليه السلام ١٩٩
- لقاء الأخوين بعد غياب السنين ٢٠٥
- كيد الله ليوسف ٢٠٧
- نجاح الحيلة ٢١٠
- مازال الحقد باقيًا ٢١٥
- محاولات فاشلة ٢٢٠
- الندم واستشعار الخطيئة ٢٢٢
- كرب جديد فوق الحزن القديم ٢٢٦
- رجاء في رحمة الله ٢٣٥
- انكسار وضعف ٢٣٧
- صفح وعفو ٢٤٠
- بشرى الفرج ٢٤٥
- لقاء الأحبة ٢٥٠
- دعاء وتضرع ٢٥٩
- إعجاز القرآن ودلائل النبوة ٢٦٤
- التحذير من الشرك ٢٨٥
- التحذير من الأمن من مكر الله ٢٩٩
- من فقه الدعوة إلى الله ٣٠١
- العبرة من سِيَر الأولين ٣٠٩
- النصر والفرج بعد الشدة واليأس ٣٢٣
- القرآن هدى ورحمة ٣٣٥
- الخاتمة ٣٤٩
- الفهرس ٣٥١

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - اسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة لتوزيع الكتاب الإسلامي والتصدير
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - اسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

Bibliotheca Alexandrina
0415967

To: www.al-mostafa.com